رواية





حب في السعودية

حُب في السعودية

إبراهيم بادي

حُب في السعودية

رواية

دار الآداب - بيروت

حب في السعودية

إبراهيم بادي/روائي ومسرحي سعودي

الطبعة الأولى عام 2006

الطبعة الرابعة عام 2009

ISBN 978-9953-89-125-5

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت - لبنان

هاتف: 795135 (01) - 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Website: www.adabmag.com

Facebook: dar al adab

إلى فاطمة (أمّي): لستُ إلاّ فوضى تعبّر عن نفسها.

إلى عبدو المحسن: سبقت المنيّةُ الروايةَ.

هذه الرواية من نسج الخيال، حتى لو وجدَت شخوص واقعيّة شبهًا بينها وبين شخوص هذه الرواية. وأيّ شبه، في الرواية، مع أشخاص حقيقيين أو مع أماكن وأحداث حقيقيّة، هو مجرّد عن أيّ قصد، ومحض مصادفة. وليس الهدف من هذه الرواية إزعاجُ أحد، أو أن توصل رسالة بعينها. فليستْ إلاّ «فوضى تُعبّر عن نفسها».

"حلمت فتاة أنها فراشة... حين أفاقت لم تعد تدري...

أهي فتاة حلمت أنها فراشة... أم فراشة تحلم الآن أنها فتاة"

قصيدة صينية

يقود، كعادته، في الطرق السريعة في الرياض.

يبدأ من تقاطع طريق «الملك فهد» مع شارع «التحلية»، متّجهًا شمالاً إلى طريق «الرياض ـ القصيم». يلتفّ بسيّارته، من مخرج «العمارية»، ليعود في اتجاه جنوب الرياض. ينحرف مع مفرق «الدمّام» إلى طريق «الرياض ـ الدمّام»، متّجهًا إلى الشرق. يقود عائدًا، إلى تقاطع «الملك فهد» مع «التحلية»، قبل أن يصل إلى نقطة التفتيش التي تبعد نحو ٢٠ كيلومترًا من الرياض.

ثم يعيد الدورة ذاتها.

لم ينتظرا، موعد انتهاء مُقابلتها، ليفعلا ما تعوّدا عليه، في «مشاوير» كهذه. تناست ماكياجها الذي سيتأثّر، وعباءتها التي بـ «تتجعلك». لم يرغبا أن يؤجّلا ذلك.

تتمنّع أحيانًا. يُطمئنها، في كل مرّة، بالكلام ذاته:

- لا يمكن أن يلحظ أحد ما نفعله. لن ينتبهوا إلى حركة أيدينا.

توافق. تخلع البنطلون وما تحته، من دون المساس بالعباءة. تستعين بها، كلّما مرّت شاحنة أو حافلة، لتُغطي نصف جسدها السفلي.

تستلقي على فخذه. تَمدُّ ساقيها على مقعد الراكب. تفتحُ أزرار القميص، بينما يفتحُ سحاب بنطلونها وزرّه. تَخلعُه بطريقة يَصعبُ من خلالها على من هو خارج السيّارة ملاحظة ما تُهمّ بفعله. تَنْزعُه بخفّة وبسرعة، لتتخلّص من قلق يُلازمها حين تفعل ذلك ببطء.

أحيانًا، تُقلّده. عندما لا تكون مستلقية على فخذه. يخلع هو بنطلونه من دون أن يرفع مؤخّرته عن مقعد السيّارة.

تُبقي في أحيان كثيرة على ملابسها الداخليّة. تقول له: «أحبّ مداعبة يدك من فوقها». تبرّر له في مرّات أخرى بأنّها ترغب في أن ينظر إلى جمال فخذيها، لا إلى شيء آخر، وبأنّها لا تحبّذ فكرة أن تكون عارية تمامًا.

لا تستغرقهما الممارسة باليد أكثر من عشر دقائق.

في حالات أخرى، يحتاجان إلى نصف ساعة. حين يقف بسيّارته إلى جانب منزلٍ لم يُستكمل بناؤه: يختار حارة لا إنارة

فيها. حارة تخلو من أعمدة الإنارة. يفعلان كل شيء، في الظلام، كما لو أنّهما في غرفة نوم.

* * *

تبدأ فاطمة دوامها في الثامنة صباحًا، عدا الخميس والجمعة. هي تعمل مُوظّفة تسويق في الإدارة الرئيسة لأحد المصارف. ينتهي دوامها عادة عند الرابعة مساءً.

اليوم، خرجت عند الثالثة. قالت لوالدها: «لن أرجع إلى البيت قبل السادسة».

أحيانًا، تُبكر في الخروج، لتقابل مدراء شركاتٍ حديثة عهد بالسوق. تُنسّق معهم مسبقًا. تشرح مزايا واحدة أو أكثر من خدمات البنك. تضطر كذلك إلى أن تشرح لإيهاب، كل مرّة. تُفهمه السبب الذي يدفع البنك إلى الاستعانة بموظّفاته، في تسويق خدماته الخاصّة.

لا يقتنع بمسوغاتها. يرفض نوع عملها كلّه. يُفضل أن تعمل في فرعٍ، على أن تُسوّق خدمات البنك لرجال في مكاتبهم. تَتَعلّل: «ذلك لا يحدث كثيرًا. لا تنس أنّ الزيارات تتيح لك لقائي».

لحظة اللّقاء. تُوافق دائمًا على ما يفعلانه. ثم تبرره بـ «سكْرة الشهوة»، رغم أنّها تقترح فعل ذلك عليه، وتُخطّط له أحيانًا. لكنّها تبكي بعد كل مرة. تتساءل: «هل تصلح السيّارة حتى لو كُنّا زوجين؟».

تبكي حتى لو فعلاها في مطعم، أو في منزلها حين يكون والدها في العمل أو نائمًا.

تنتظر أن يُجيبها! لا يبرّر لها، بل يسألها:

ـ ما الذنب الذي نقترفه؟ شابٌ وفتاةٌ مولعان ببعضهما. كل منهما راغب بالآخر. أدمنتُها وأدمنتْنِي. أدمنّا تكرار جنوننا. أين يمكن أن نفعل ذلك؟ ما الفرق بين السيّارة وأيّ مكان آخر؟...

لكنّه سرعان ما يتأسّف منها. فهي تحسّ بأنّه يؤنّبها حين يبرّر ويسأل. يبدو ذلك على وجهها. يقول لها: «أقتنع بأنّكِ توافقين بدافع حُبّكِ فقط، مُكرهة».

لم يستفسر، إلاّ مرّة، عن خبرتها وجُنونها وإثارتها. سألها: «كيف لم تُجرّبي؟ أنتِ ناهزت الرابعة والعشرين. درستِ خارج السعوديّة». لم تغضب من سؤاله. أكّدتْ له: «خبرتي بالفطرة. نابعة من إثارتك لي وحُبّكَ».

(لن يصدّق، لاحقًا، هذا الكلام. سيطرد تبريراتٍ زرعتها فيه. سيؤمن بأنّها «كانت شبقة... لا أكثر». سيقتنع بأنّها ستفعل كل شيء مع غيره، وبالطريقة والأسلوب ذاتهما. سيؤكّد لنفسه، أيضًا، أنّها تكذب على الشاب الجديد (خالد)، وتقول له: «لا أحبّ فعل ذلك. أقرف ممّا نفعل»، وتسأله: «هل يحقّ لنا فعل ذلك»).

كان إذا تعب من التبرير لها، عمد إلى السكوت. وإذا أراد أن يُخفّف من حدّة النقاش في موضوع آخر - له ارتباط بغيرته - عمد إلى تقبيلها؛ ليكرّرا ما يفعلانه دائمًا.

لم يهتمّا مرّة بالمكان وبما حولهما. تصل القبلة بهما، دائمًا، إلى الشيء ذاته.

تصفُ طريقته الأخيرة، في حلّ مشكلاتهما، بالمثلى «التنشيط ودّهما والرجوع إلى الحبّ»، خصوصًا بعد صراخ وشتائم تصدر من كليهما. تقول:

- تتوتّر علاقتنا إذا لم نفعل ذلك لأيّام. ألا تلاحظ؟

يبتسم عادة، وتستدرك هي:

- لا أريد أن تتكاثر المرّات. لكنّني متيّمة بك.

رغم ذلك، يُذكِّر كل واحد منهما الآخر بإحدى المرّات التي تعجبه، حين «يمارسان» عبر الهاتف المحمول. هي تقول:

- أشعر من نَفَسِك أنّك انتشيت.

تُعَزّره دائمًا حين لا يشعر بأنّها انتشت.

أحيانًا، يَعُدُّ كم مرّة تنتشي، في مكالمة واحدة. تنزعج من ذلك. تُمازحه: «هل تحسدني. تدلّ هذه المرّات على حبّي. أنت تنتشي من صوتي مرّة، وأنا مرّات. ماذا لو كنّا مع بعض، ونفعل ذلك حقيقة؟».

(كلّ هذه الأمور ستنتهي. لن تعود فاطمة إلى الشبق المجنون به. لن يؤثّر فيها انتصابه أمام عينيها. لن يجعلها تقفز بلا تفكير. ستقرف منه ومن قُبله، حين تعرف خالد. لن يؤثّر فيها نزع إيهاب بنطلونه أمامها إلى ركبتيه، ولا مشاهدة «حبيبها الصغير» كما كانت تُسمّيه. سيشعر إيهاب بقرفها منه. سيُحسّ بأنّها تستمتع بآخر وتُحبه. ستقول يومًا: «أكره المدخّنين. أحبّ الرجال "الشماحيط" ـ ذوي الأجسام المفتولة». جسم خالد ليس مفتولاً، لكنّه، أضخم من جسمه).

[١]

عُدتُ إلى الجامعة. كنت منتشيًا. تذكّرتُ كل شيء بالتفصيل. كيف مددتُ يدي، وتلمّستها. كيف انحنتْ...

أحبُّ ذلك. أحبُّ أن أجترّ ما فعلناه بعد كل مرّة.

دخلتُ إلى قاعة المحاضرات. نظرتُ إلى وجوه زملائي. ابتسمت.

هل يمكنهم فعلها في السيّارة؟ في شوارع الرياض؟!...

سيخشون أن يُمسَكَ بهم متلبّسين في خلوة غير شرعيّة. لا يعرفون العقاب في هذه الحال. هذا كفيل بأن يفكّروا ألف مرّة قبل أن يُقدموا...

حتى لو كانوا مجانين، فلن يحظوا بمجنونة مثلها. من ستُوافق صاحبها على ما نفعله؟ ماذا ستقول لوالدها لو قبضت عليهما الهيئة (الحسبة)؟ ماذا ستقول له حين سيأتي لاستلامها من دار الفتيات، ويقرأ المحضر الذي سيكتبون فيه كل شيء بالتفصيل المملّ، كأنّهم يكتبون مقاطع رواية جنسيّة؟...

طردتُ كل تلك الأسئلة. عمدتُ إلى التفكير فيها، في المكان الذي سآخذها إليه بعد المحاضرة، حين سأُوصلها من الشركة إلى البيت.

أحد المطاعم التي ارتدناها. لكن، أيّ واحد منها؟ أيّها سنحظى فيه بمتعة أطول؟ أبوها يعلم أنّها في اجتماع ولن يقلق على تأخّرها.

تخيّلتُها عارية الساقين. مستلقيةً على فخذي في السيّارة. فيما كان الأستاذ الهندي يُحاضر. لم أفهم كلامَه بسبب إنكليزيّته الركيكة. بل لم أصغ أصلاً. قلّبتُ ورق دفتر المادّة وتخيّلتها.

تُنسيني المرّة الأخيرة ما قبلها، دائمًا. لا تحضر في ذهني صورة أيّ واحدة ممّن صاحبتهنّ قبلها. حاولتُ أن أرجع بالذاكرة. حينها تأكّدتُ أنّ شبقها وحده يُشعرني بالرجولة، وينسيني كل فتياتي السابقات.

بعد المحاضرة التي استغرقت ساعة، توجّهتُ بسرعة إلى غرفتي في سكن الطلاب.

زميلي في الحجرة لم يكن موجودًا. فتحتُ دُرجًا كنتُ أُغلقه بالمفتاح دائمًا. أحتفظ فيه بملابس داخليّة غالية الثمن. أخجلُ أن يلمحها أصدقائي. أخجلُ، خصوصًا، من «السروال» الحريري الأحمر ذي السحّابين. أتنبّأ بالتعليق الذي سأسمعه، لو انتبه زميلي في الغرفة إلى هذا السروال تحديدًا. سيظنُّ أنّني «نصف رجل».

أبعدتُ الأحمر. خبّأتُه في قاع الدُرج. أجّلته مُمَنّيًا نفسي بمناسبة أهم. اخترتُ واحدًا مشجّرًا، رُسِمَتْ عليه قلوب حمراء.

لبستُه. تخيّلتُ وجهها حين تراه. أرغب في أن أسمع إطراءها لذوقي في الاختيار.

فتحتُ دولابي. أخرجتُ عِطرَ «دينهل ديزاير». قالت مرّة: «لا علاقة بين عشقي لهذا العطر، وبين معنى كلمة ديزاير. أحبّ رائحته، كما أحبّ رغبتك العارمة».

اقترب الموعد. أقودُ سيّارتي إلى حيث الشركة. أُحسُّ بشعور غريب. تزداد نبضات قلبي. أرتجف. تصطكّ أسناني. لا أقدر أن أسيطر عليها. أشعر بالبرد رغم أنّ مقياس درجة الحرارة يشير إلى ٣٦ درجة مئويّة. أتذكّر مُكيّف السيّارة. أُغلقه. أسترجع ذاكرتي.

لم أتمكّن من الخروج مع كل اللاتي سبقنها، كثيرًا. لم يقبلنَ تطبيق اقتراحاتي المجنونة. حتى من قبلت، قتل ارتعادها لحظة المتعة. كان خوفها من دخول المتسلّطين إلى المطعم في أيّ لحظة، يُنسيها اللذّة.

تتفتّت وجوه فتياتي في مُخيّلتي، قبل وصولي إلى مقرّ الشركة بدقائق.

انتظرتها في السيّارة. اتصلتُ بها. أطفأتُ محرّك سيّارتي وانتظرت.

هل يُمكن أن يعتبرها من اجتمعتْ به «غاوية»؟ هي تكشف وجهها وتُظهر خصلاً من شعرها. تضع ماكياجًا...

بماذا يهمّني كيف ينظرون إليها؟ أنا سعيد بشبقها. لا أريد سواها. حتى لو كانت «ساقطة» في نظرهم كلهم...

كيف لا يُهمّني؟ كيف أقبل أن أتزوّج امرأة يعتبرونها «ساقطة»؟...

لَمَ هي كذلك؟ لأنّها تكشف وجهها وتجلس معهم وتضع ماكياجًا وتُظهر خصلاً من شعرها؟ ما العيب؟...

السعوديّات لا يفعلن هذا. يتغطّين من شعورهنّ حتى أصابع أقدامهنّ...

لكنّها سعودية أيضًا. ما المانع أن يقتضي عملها الاختلاط بالرجال؟ ليست هي الوحيدة التي تختلط بالرجال...

لكنّها برأيهم «هجينة». والدها سعودي وأمُّها لبنانيّة. أمّي أيضًا ليست سعوديّة، بل مصريّة! هل نكون «عيال كلب» لأنّ أمُّهاتنا لسن سعوديّات؟

وسوستُ من سؤال إلى آخر. أعدتُ الأسئلة والأجوبة ذاتها. كأنّني أسأل وأُجيبُ للمرّة الأولى. لم أكن أعرف حقيقتها في تلك الفترة. كنتُ أبرّر كل شيء. أُقنع نفسي بأنّها لم تفعل ذلك مع أحدٍ قبلي. لاحقًا، سأكتشفُ كذبها. سأعرف أنّها كانت «تستشرف» عليّ. وأنّني كنت مغفّلاً حين صدّقت أنّ خبرتها وجنونها وجرأتها، كل ذلك بالفطرة. ستتعرّف يومًا على شاب آخر. ستفعل معه كل ما فعلته معي.

***

بدأ إيهاب في توبيخ فاطمة، بسبب طريقة مشيتها. اكتفى بالمسافة بين السيّارة وباب الشركة كي يصدر حكمه: «تتقصعين».

أشارت إلى أنّه يهينها حين يستخدم كلمات مثل: «تتقصعين» في مشيتك و«تتميعين» في كلامك، و«تتغنّجين» في تصرّفاتك. سألتْ بصوت عالٍ: «هل تظنّ أنّني أقصد ذلك؟».

لم يُجبها. سألها: «كيف كان الاجتماع؟». صرخ في وجهها، عندما سمع بأنّها قابلت مدير الشركة على انفراد. إذ قالت: «حتى السكرتير خرج بمجرّد دخولي إلى مكتب المدير».

ـ كيف تقبلين؟ لمَ لم تقولي له إنّك لا تستطيعين الجلوس معه أو سواه، وحيدين؟ أنتِ سعوديّة. يحقّ لك ألاّ تجلسي مع أحد على انفراد؟ استغلّي ذلك كي ترفضي الجلوس معهم بمفردك، والأبواب مغلقة. يجب ألاّ يفهموا أنّ طبيعة عملك تسمح بأن يستفردوا بك.

لم تنبس بكلمة. كان ينظر إليها. هي تنظر إلى الجهة الأخرى. استدرك: «إلاّ إذا كنت ترغبين بذلك؟».

سكتت برهة، ثم صرخت: «أنا غاوية. أتقصع وأتميع

وأتغنّج. . . وما أفعله معك أفعله مع غيرك. ابحث عن فتاة بكرتونتها. ريّح بالك، وريّحني من النكد».

تقول له في مثل هذه الحالات: «أنت مولع بالنكد. مدمن عليه. لا تُفوّت شيئًا إلاّ وتصنع منه نكدًا». لكنّها تستدرك: «أعرف أنّك طيّب. تنسى بسرعة».

تعوّدت على استرجاعه كل المواقف. سيقول لها في موقف مشابه: «ليست المرّة الأولى التي تَقبلين فيها بأن ينفرد بك مدير».

تُسمّي ذلك: «فتح الدفاتر القديمة».

*

في هذه اللحظة. في السيّارة. انتبهتُ إلى شرودها. أبلغتها أسفي. علّلتُ غضبي بغيرتي. فابتسمتْ. قرّرتْ أن تُغيّر جوّ نكدٍ صنعته بنفسها. هي لم تكن لتعترف بخطئها. لكنّها شعرتْ برغبة عارمة، تجاهي، كعادتها. تمنّتْ أن تقفز إلى حضني، منذ رأتني جالسًا في السيّارة، أنتظرها.

أعرفُ ذلك، لأنّها عرضتْ أن نزور مطعمًا للوجبات السريعة. زعمت أنّها تتضوّر جوعًا. لم تكن كذلك. كانت تتضوّر رغبة. تريد أن تنتشي. أرادت أن يجيء الأمر كما لو أنّه غير مدبّر، كعادتها. لا تريد أن أعرف أنّها شبقة. تريد منّي أن أقترح، رغم أنّها من يقترح، أن نذهب إلى مطعم، أو أن أوصلها!

كم أنا مغفّل. كنت أُصدّقها. أُصدّق أنّني من يجرّها دائمًا.

طرحتُ أسئلة كثيرة على نفسي، وقتها، فيما مدّدَتْ جسدها على مقعد الراكب، وأمسكتْ بيدي، وغفتْ لبرهة:

ـ كم مرّة فعلناها في مطاعم الوجبات السريعة؟ لا أذكر. لو تزوّجتها سأواظب على ذلك، في المطاعم.

أذكر كيف أقنعتُها أوّل مرّة، وبدّدتُ خوفها من أن يُقبض علينا. قلت: «يظنّون أنّ الشبّان والفتيات يلتقون في المطاعم الفخمة، كي يكسبوا وقتًا أطول. ففي مطاعم الخمس نجوم يمكن للفتاة والشاب التمتّع بوقت انتظار الطعام، بينما يُجهز في هدوء. هكذا يفترضون. لا يفكّرون أبدًا في مطاعم الوجبات السريعة». (لم أكن أدرك أنّها ليست خائفة، وأنّها تتظاهر بالتمنّع. تريدني أن أُبادر دائمًا، وألعب دور المقنع وصاحب الفكرة).

توطّدتْ علاقتنا في مطاعم الوجبات السريعة. لا نحتاج فيها إلى وقت طويل ولا إلى تهيئة. نُغادر سريعًا. نعتقدُ أنّ أحدًا لن يشكّ في أنّنا فعلنا شيئًا بعشر دقائق. صرنا لا نهتمّ ولا نخاف. ستارة من القماش وغرفة صغيرة تكفيان.

* * *

تنزعُ فاطمة بنطلونها وما تحته. تضعهما في شنطتها الصغيرة. تفتح كل أزرار قميصها. تُبقي على عباءتها السوداء، كي تُغطي النصف السفلي لجسديهما.

يُنزل إيهاب بنطلونه إلى حدّ ركبتيه. يجلس على الكرسي...

ـ المهمّ أن أُحسّ به. ليس بالضرورة أن أنتشي.

هذا ما تقوله حين يؤنّب نفسه لأنّها لم تنتش.

هلعتْ، في ذلك اليوم تحديدًا! حصل ما لم يتوقّعاه.

فتحتْ طفلة الستارة التي تحجب من في الغرفة عن أعين المارّين في المطعم. فتحتها فجأة. ببراءة. ابتسمتْ الصغيرة لهما. ثبّتت نظراتها عليهما.

لم تكترث فاطمة كثيرًا. ابتسما لها، بينما كانت العباءة تغطّي عُريهما.

وقعت عليهما عينا والد الطفلة الذي لحقها، بينما كان يحاول إغلاق الستارة وسحب طفلته من يدها.

وقف، بشماغه وثوبه، وذقنه الطويلة، لثوانٍ مبهورًا. ثم أغلق الستارة.

فزّت فاطمة من حضنه مفزوعة. لبست بنطلونها بسرعة. طلبتْ منه أن يخرجا حالاً.

لم ينجح في إقناعها بالبقاء وبأنّ الرجل سيعتبرهما زوجين. قال: «لن يجرؤ على فعل شيء. هو من أجرم باقتحامه حُرمتنا».

لم يملك شيئًا أمام إصرارها وفزعها. خافت أن يتصل الرجل بالهيئة.

خرجا من المطعم. ركبا السيّارة. ابتسمت. أخبرته أنّها نسيت من الخوف لبس ما تحت البنطلون. قالت إنّها ستخلع بنطلونها في السيّارة، لتلبسه. طلبت ألاّ ينظر إليها. لكن، ما أن خلعت بنطلونها حتى مدّ يده.

استسلمت. ركّزت رأسها على فخذه. طلبت أن يخلع بنطلونه.

* * *

ما حصل في المطعم الذي فتحت الطفلة الستارة فيه، لم يكن الحادث الوحيد.

تحمل فاطمة ذكرى «سيّئة» من مطعم آخر.

كانت في فترة الدورة الشهريّة. كلاهما وافق.

لكنّها، سترفض أن يذكّرها بالأمر. ستقول: «لا أريد سماع هذه القصّة مجدّدًا». طلبت منه محو القصّة من ذهنه وإزالتها من الوجود. هو متيّم بإعادة سرد تلك القصص. يقول إنّه لا يريدها أن تختفي.

* * *

بدأتْ علاقتهما الحميمة في المطعم الذي يقع إلى جانب منزلها.

اتّفقا على أن يختارا مكانًا يُقبّلان فيه بعضهما. تخشى من مجيء والدها إلى البيت في أيّ وقت، ومن وصول خبر دخول إيهاب، عبر جارهم.

اختارا المطعم عشوائيًّا.

خلعت عباءتها، ما إن دخلا.

بدأت في تقبيله كالمجنونة، قبل أن يطلب وجبة لكليهما.

(سيصبح هذا المطعم لاحقًا بمثابة حلّ سريع في حال لم يملكا متّسعًا من الوقت. يختلف عن غيره. غرفه غير المسقوفة لا تُغلق بستارة. بل بباب جلديّ يُسحب. هما يختاران، دائمًا، غرفًا ضيّقة ـ مترين ونصفًا في مترين ونصف. تشغل طاولة الطعام فيها حيّزًا كبيرًا ـ مترًا في متر ونصف ـ ولا يمكن تحريكها، فهي مثبّتة على الأرض. تتسع الغرفة لأربعة أشخاص).

لم تقبل فاطمة يومًا أن يجلسا في الغرف الأخرى الواسعة. تلك الغرف تُطل على الشارع العام. تخاف هي أن يلمحهما أحد من زجاج المطعم. لا تفلح محاولات إيهاب في إقناعها بأنّ الزجاج مظلّل. تتحجّج. لا تطمئنّ. لا تقتنع لأنّ إيهاب يبدو لها كمن لا يخشى شيئًا. متهوّر.

في الغرفة الضيّقة أريكتان طول الواحدة متر ونصف المتر. جلسا على واحدة. تركا الأخرى تنظر إليهما. ذهب ليطلب وجبتين.

عاد إليها. دقيقتان، كافيتان لسيل من القبل، قبل أن يعود مرّة أخرى لإحضار الوجبة. لن يمسّها أحد. سيأخذانها إلى البيت كما هي. عمّال المطعم الفلبينيّون يلحظون ذلك. يبتسمون.

في المرّة الأولى، شكرته حين ركبت معه في السيّارة. شكرته لأنّه رفع يده عن مكان لم تسمح له بعد بلمسه. كانت تسمح بالقُبل فقط. برأيها: «يكفيه أن يحضنني من دون عباءة ويُقبّلني».

في المرّة الثانية، في يوم آخر، وفي المطعم ذاته، سمحت له لمس ما شاء، من دون إدخال يده من تحت الملابس.

في المرّة الرابعة، جلست عليه، فوقه، على الأريكة «الطويلة». التصقت الطاولة بظهرها. لم تهتم. قال لها في تلك المرّة: «ليس ذنبًا طالما أنّنا نفعل ذلك من دون أن نخلع ملابسنا».

مرّ شهر، قبل أن تسمح له في مطعم آخر، بأن يخلع بنطلونه وما تحته. قالت: «أريد أن أشعر به أكثر من المرّات الماضية. اخلع بنطلونك». هي لم تخلع بنطلونها.

سألها إذا كانت تودّ تسهيل الأمر؟

لم تفهمه. استدرك: «ألا تريدين أن تشعري به أكثر من المرّات السابقة؟». أومأت إيجابًا.

خلع ملابسه الداخلية على الفور. لفت نظرها اللون. ابتسمت. أطرت ذوقه.

لا ينسى كلاهما هذا اليوم. كانت تلبس «تنّورة». ستُذكّره دائمًا بهذه المرّة: «لم يكن بيني وبينه سوى ملابسي الداخلية».

*

كنتُ أتساءَل، بعد كل مرّة، عن سبب هذا التدرّج.

برّرتُ حينها: «هي لم تفعل ذلك من قبل. كل الفتيات اللاتي لم يمررن في تجربة مماثلة، لا يستطعن فعل ذلك دفعةً واحدة».

سأُغيّر رأيي لاحقًا. كل قناعاتي ستتغيّر. سأعرف أنّها كانت بارعة في التمثيل.

سيبقى سؤال واحد لن أجدَ له إجابة: «هل كان من حقّها أن تُمثّل العفّة، والبُتولية، وتكذب علي؟».

[٢]

يتمشّيان على كورنيش بيروت. الأمواج تضرب صخرة الروشة.

بدآ المشي من مسرح بيروت (القديم) في عين المريسة. وصلا إلى مطعم بيتزا قريب من الجامعة اللبنانيّة (فرع الروشة).

سيعودان مشيًا أيضًا.

لا يشعران بالمسافة التي قطعاها. يتحدّثان ويتحدّثان. لا يتكلّمان عن المسرحيّة التي شاهداها للتو. كلٌّ منهما يتحدّث عن نظريّته في الحياة. يقول لها: «على رغم أنّني ولدت في مجتمع محافظ جدًّا، فلا أمانع أن أتزوّج من امرأة غير محجّبة».

تردّ: «الحجاب أمر رائع، ولو طلب زوجي منّي أن أتحجّب فسأفعل. المهمّ أن أحبّه ويحبّني».

تستغرب أنّها تحدّثه عمّا تُحبّ ولا تُحبّ، رغم أنّها رأته للمرّة الأولى قبل خمسة أيّام. باحت له بذلك.

*

لم تقل لي عن نفسها، حينها، إلاّ ما تتوقعْ أن يروقَ لي.

كذلك فعلتُ أنا. كلّه كان كذبًا. لم أرغب يومًا في الزواج من امرأة غير محجّبة. أقنعت نفسي: لمَ لا؟ لو أحببتها. لم تلحظ أنّني فعلت ذلك من أجلها. هي لم تفكّر يومًا أن تتحجّب من أجل شاب. لكنّها كذبت عليّ حينها. قالت: «سأدخلُ إلى قمقم لو أردت».

طردتُ تلك الوساوس. كنتُ مُعجبًا بها. حاولتُ أن أجذبها إليّ، رغم أنّني أعرفُ أنّها مخطوبة لشاب آخر.

لكنّها لم تُقم اعتبارًا لذلك. لم تُفكّر فيه حتى. قرّرت أن تتركه من أجلي، مع أنّها تعرّفت عليّ منذ خمسة أيّام فقط.

كانت حكت لخالتها عنّي قبل هذا اليوم. لفتتني خالتها إلى أنّها كانت تحكي لها. ظننتُ أنّني علقتُ في عقلها منذ أوّل يوم رأت فيه وجهي. كان يُفترض بي أن أتنبّأ بأنّها ستتركني لو وجدت شابًّا تعجب به أكثر، كما فعلت مع خطيبها. أعماني الحبّ حينها.

* * *

لم تكنْ فاطمة مخطوبة. كذَّبتْ عليه. زعمت أنّها مخطوبة لأنّها تظنّ أنّ من غير اللائق أن تكون فتاة بعمرها غير مخطوبة. هكذا بررتْ لخالتها سبب كذبتها. قالت له أيضًا: «إنّها تفكّر بفسخ الخطوبة، منذ زمن. ليست مرتاحة للطريقة التي ستتزوّج بها». حذّرتها خالتُها من التمادي في الكذبة: «لا أريد أن تخسري وسيمًا، ومثقّفًا، وسعوديًا مثلكِ. أفكاره تختلف عن كل الذين عرّفتني بهم». صرختْ في خالتها: «ماذا تقولين؟! يجب ألاّ يعرف بأنّني عرفتُ غيره. فحتى لو كان متحرّرًا لن يقبل».

* * *

استوقفا سيّارة أجرة. قال للسائق: «رياض الصلح». ما إن أومأ السائق إيجابًا حتى فتح إيهاب الباب لفاطمة. دخلت إلى مقعد الراكب خلف السائق. رجلها اليمنى بقيت قريبة من المكان المخصّص لرجل الراكب الذي سيجلس إلى جانبها. لامست ساقه ساقها من دون أن يقصد ذلك. أغلق الباب. لم يحركْ إيهاب ساقه. هي لم تحرّك ساقها أيضًا. ظلّت ساقه ملامسة لساقها حتى وصلا إلى «رياض الصلح». استكملا حديثهما. عنه وعنها. سؤال بسؤال.

(لا تزال الأجوبة تصبّ في صالح الأقنعة).

حين وصلا أصرّت أن تدفع. رفض. دفع. وافقت وابتسمت. «تحرّك العِرقُ السعودي في داخلك»، هكذا قالت له حين نزلت

من التاكسي. ناول السائق ألفي ليرة وأغلق الباب. تُعجبها لباقته. «نادرًا ما تجد شبّانًا لبقين»، هذا هو رأيها فيه. لم تخفه عنه. سيمشي إلى جانبها ولا يتجاوزها.

(لاحقًا، في السعوديّة، لن يفتح لها الباب بل ولن يحمل عنها أكياس المشتريات. ستُعيِّره بأنّه غير لبق حين تتعرّف على خالد).

رفضت أن يجلسا في أحد مطاعم السوليدير. قالت له: «كلّهم حرامية، خصوصًا أنّنا في الصيف».

«الدونكن دونات» ملاذ الفقراء ـ كما تسمّيه هي ـ مكتظّ باللبنانيين. إذ لم يترك السيّاح الخليجيّون لهم مكانًا آخر غيره في السوليدير.

أشارت إليه أن يجلسا في «الجنينة».

هناك ستحكي له طويلاً، بعد أن ينزويا في زاوية على الدرج الكبير، عن أحلامها والرجل الذي تتمنّاه. سيكون الكلام رومانسيًّا إلى أبعد الحدود. لن يتجاوزا الأدب أبدًا. سيتكلّمان ويتكلّمان. كلٌّ منهما يحاول جذب الآخر.

في هذه «الجنينة» تحديدًا ستقول: «لا تعجبني الطريقة التي خطبت بها، ولا التي سأتزوّج بها».

*

تفاجأت. لم يمض على معرفتي بها سوى خمسة أيّام: «هل يُعقل أنّي أسرتُ قلبها بهذه السرعة، كي تُفكّر في فسخ خطوبتها؟».

أعدتُ الجمل التي سمعتها منها، في رأسي. اكتشفتُ أنّني تعجّلتُ في إصدار حكمي. كانت تحكي عن طريقة خطبتها وزواجها. لم تحك أبدًا عن أنّها تنوي فسخ الخطوبة.

كيف لم أفكّر حينها في أنّها مجرّد شبقة؟!

قطعتْ كل وساوسي:

ـ خالتي ستقلق عليّ. لم أتأخّر في حياتي إلى هذا الوقت، حتى حين أكون في بيروت.

الساعة الآن تشير إلى الحادية عشرة قبل منتصف الليل.

قلتُ حينها ـ بكل غباء وبراءة: يا الله، ما هذه الفتاة. تستحقّ الثقة. لو أنّها من الفتيات اللاتي عرفتهنّ ويملكن كل هذه الحرِّيَّة، لما عادت إلى البيت قبل الثالثة فجرًا. خرجت معي وحدها لكنّها لم تسمح لي حتى أن ألمسها. ساقي لامست ساقها، لكنّني لم ألمس يدها.

(كيف لم أُدرك أنّها كانت تُمثّل؟!)

ما زلتُ في «الجنينة» معها.

أحُسّ بنفسي أحضنها. أرتفع تدريجًا إلى السماء. أُحلّق معها فوق ساحات وسط بيروت التجاري الذي أحرقته الحرب الأهليّة الطويلة (١٩٧٥ - ١٩٩٠) ثم رُمِّم وعاد جديدًا بعد انتهاء الحرب.

أُحلّق بها فوق السعوديين والخليجيين في مطاعم ومقاهي السوليدير. أُحلّق فوق اللبنانيين الجالسين في «الدونكن دونات» والمستلقين على درج «الجنينة»، والجالسين على رصيف ساحة النجمة.

أنا في حضنها في السماء فوق ساحات وسط بيروت التجاري.

تظهر قبّة سينما سيتي بالاس المهجورة والكنيسة القريبة من ساحة النجمة، ومآذن جامع محمد الأمين وأبنية مجمّع اللعازاريّة التجاري ومواقف السيّارات...

قطعتْ شرودي، بعدما لاحظت أنّني لا أنتبه إلى حديثها:

- ألن توصلني إلى البيت؟! على الأقل كي تتعرّف إلى خالتي؟

كيف أرفضُ عرضًا كهذا؟!

* * *

«بس يا خالتو أنا قلت لك ما تتأخّري برّا البيت. قلقت عليك. سعوديّة وحلوة وأمّورة. وبعدين شو عم تعملي بها الشوب والرطوبة. والله بيروت ما بتنداس هلأ. ما بعرف شو جاب الخليجيين عليها. أصلاً ايمتين كانت بيروت بتلمّ الخليجيين هيك لوما صاروا السعوديين ما بيقدروا يروحوا ع أوروبا»...

خالة فاطمة لا تكفّ عن الثرثرة. تُحبّ الكلام.

قالت لإيهاب منذ فتحت باب البيت: «والله أنا قلت بنت أختي ما بتوقع إلاّ على حلوين. يا ريت الحظّ اللي عندها عندي».

صرخت فاطمة بوجهها. طلبت منها أن تكفّ عن هذا الكلام. لكن خالتها لم تهتمّ بتعليقاتها.

«اللي في قلبها على لسانها»، هكذا تصفها فاطمة.

جلستْ. تكلّمت عن فاطمة وأدبها، وعن شبّان كثر خطبوها.

عاجلتها بغمزة وقالت: «خالتو ما تحكي عن العرسان وخطيبي».

ابتسمت هالة. قالت: «لو ما هي عنيدة بس. أصلاً أبوها ما بيدّخل بـ ولا شي في حياتها. تاركلي كل اشي. يعتبر أنّي مربّيتها بعد ما ماتت أمّها. بس مشكلتو إنّو مصرّ يجوّزها لسعودي».

حاولت فاطمة في هذه اللحظات تذكير هالة أنّ إيهاب سعودي أيضًا.

لكنّها تجاهلتها ورقعت كلامها بطريقتها: «حكت لي فاطمة إنّو ما دخّلك بالسعوديين. حكت لي إنك مثقّف وجاي تعرض مسرحيّة وتاخد دورات بالمسرح ع حسابك».

(تعرّفا بالصدفة.

انتهى عرض مسرحيّته في الجامعة الأميركيّة. جلس يتحدّث مع طلاّب المسرح في الجامعة وآخرين. سألوه: كم لبثوا يتدرّبون، وأين درسوا، وهل هناك مسرح في السعوديّة أصلاً؟

اقترب منه صديقه علي بطل مسرحيّته. قال إنّ فتاة سعوديّة حضرت العرض مع صديقاتها اللبنانيّات. أضاف بعدما ابتسم بخبث: تريد أن تتعرّف على مُخرج ومؤلّف المسرحيّة.

لم يُصدّق إيهاب. فتاة سعوديّة تحضر عرضه هنا في لبنان. ضحك في وجه صديقه. لم يعرف أنّ هذه الفتاة التي حضرت مسرحيّته، والتي سيقابلها الآن، ستلتصق به ثلاثة أعوام ونصف العام. وستبقى ذكرى خالدة لبقيّة حياته).

تأخّر الوقت. تجاوز منتصف الليل. ثارت بأدب على خالتها التي لم تتوقّف عن الكلام، ولم تلبث تلفت نظره إلى أنّ فاطمة كانت تحكي لها عنه منذ أوّل يوم رأته فيه في الجامعة الأميركيّة.

استأذن إيهاب متذرّعًا بالوقت. لم تُفلح محاولات خالة فاطمة

في إقناعه بالمكوث، وأنّه يمكنه السهر طالما هي موجودة معهما. لم تفوّت الخالة الإشارة إلى أنّها لا تقبل فعل ذلك (دخول شاب إلى البيت في هذا الوقت) لولا أنّها تعرف أدبه بحسب ما حكت فاطمة.

طلبت الآن من خالتها أن تسكتْ. ضحكا، وأكّدت خالتها عليه ضرورة أن يلتقيا في السعوديّة. قالت وهي تصافحه: «لازم تزورني بالمجمّع السكني بالرياض. ح تلاقي حياة مختلفة». وعدته بأن تُعرّفه بوالد فاطمة. كانت موقنة أنّ الأخير سيحبُّ إيهاب. هو يحبّ كل الشبّان الطموحين والمثقّفين، خصوصًا إذا كانوا سعوديين.

أحبّت هالة إيهاب وأظهرت ذلك ولم تخجل منه. قالت: «والله يا صبي إنت بتفوت القلب ع طول من دون ما تدقّ الباب».

*

بمجرّد نزولي السلّم، غرقتُ في أحلامي:

البنات السعوديّات اللاتي يخرجن وحدهنّ ويتمتّعن بحرِّيَّة لا تشبه حرِّيَّة معظم الشبّان السعوديين، لسن بالضرورة «ساقطات».

البنات مثلها لا تملك إلاّ أن تحترمهنّ. تخرج معك وتصون نفسها. ليست مثل البنات اللاتي تعرّفت عليهنّ. ليست مثل الفتاتين اللتين سبقتاها. ليست بنتًا سعوديّة عاديّة. بل بنت مثقّفة. تحضر المسرحيّات والعروض الموسيقيّة في بيروت. تستغلّ فترة قدومها مع خالتها في أشياء مفيدة. تحمل كتبًا معها إلى

السعوديّة. تحملها لوالدها لكنّها تقرأ قسمًا منها على الأقلّ.

صورتُها لا تشبه صورة بنتٍ لعوب أو غاوية. متى انقلب الشابّ الذي أعطته الثقة ذئبًا، ستنسحب بهدوء.

اثنتان وعشرون سنة انقضت من عمري ولم أعرفها ولم أعرف مثلها. الفتيات اللاتي عرفتهنّ سقطن من عيني، كما صعدن، بسرعة.

هذه غيرهنّ.

من كنّ، أولئك الفتيات، وأين يحيين الآن؟

في هذا اليوم الحارّ والرطب، بعد ٢٢ سنة على ولادتي، ماذا أتذكّر، غير خمسة أيّام عرفتها فيها؟

هل أتذكّر الأيّام التعيسة التي عشتها مع والدي وديكتاتوريّته وتدخّله في حياتي وأفلاطونيّته؟ هل أتذكّر الفتيات العاهرات اللاتي عرفتهنّ؟ هل أتذكّر الجامعة وأيّامها المقرفة؟ أم البنات اللاتي دفعن لي مالاً كي أضاجعهنّ؟

هل أتذكّر تلك التي رفض زوجها أن يمارس معها بفمه، أم تلك التي أرادت أن تجرّبه في مكان مختلف، أم تلك التي أرادت أن تفعل ما يرفض زوجها أن تفعل معه؟ أم الفتاة التي كانت تظنّ أنّها عذراء فيما هي فضّت نفسها بإصبعها؟...

تتوقّف أسئلتي المسنودةِ على عفّة مكذوبة وتمثيل، عن التدفّق. يطلب منّي سائق التاكسي أن أنزل وأدفع الأجرة.

شبابيك سكن الجامعة الأميركية في بيروت AUB مفتوحة كلّها. هناك طلاّب يدرسون فصلاً صيفيًّا. بعض بلكونات بنايات سكن الجامعة تضجّ بالحركة.

الساعة الآن الثانية صباحًا.

«بماذا تختلف الدراسة في بيروت عن الدراسة في السعوديّة؟». لا أهتمّ كثيرًا بهذا السؤال. لكنّني أجيب نفسي: في بيروت حبّ يحيا. هناك لا تحيا سوى الذكوريّة.

حرب الذكوريّة التي أحدّثُ بها نفسي، ستباغتُني الآن.

مُشرف المسرح في جامعة «الجزيرة العربيّة» (الجامعة التي كنت أدرس فيها في الرياض) وأحد أعضاء الوفد المشارك في مهرجان الجامعة اللبنانية الأميركية LAU، يقف عند باب البناية التي أنزل فيها. ينتظرني. يضيّع الوقت بالحديث مع فتاة وشاب.

خمّنتُ أنّ المشرف كان مهتمًّا لأمر الفتاة لا الشاب.

أسئلة المشرف الفارغة تُقرقع في أذني في هذه اللحظة.

ـ أين كنت؟ في مرقص أم بار أم مع فتاة؟ لن أقول للدكتور رئيس الوفد.

أسأل نفسي: «لمَ يرسلون معنا هؤلاء الأغبياء؟ هذا الشخص تحديدًا الذي يقف أمامي لا يفقه في المسرح حرفًا. كيف

يوظّفونه مشرفًا علينا في الجامعة وعلى أندية أخرى؟ هو ليس أكثر من طالب طبّ نجيب يُحضّر للدراسات العليا ويعمل في هذه الوظيفة، السهلة بالنسبة إليه، والتي توفّر له دخلاً يضاف إلى مكافأة الجامعة. هو يسألني دائمًا عن عبارات مسرحيّاتي وعمّا تعني. وحين يكون عميد شؤون الطلاب حاضرًا، يبدأ بالثرثرة. يحكي وكأنّه من كتب المسرحيّة. ينسى أنّني من كتبها، وكأنّه لقّنني إيّاها. يزعم أمام العميد أنّه يفقه الشؤون التي يولونه إيّاها، بينما هو لا يعرف من يكون تشيكوف ولا ستانسلفسكي ولا غروتفسكي ولا حتى قرأ نصًّا لشكسبير في حياته. ليت الأمر يتوقّف على النصوص. هو يدّعي أنّه من أوحى لنا بفكرة الديكور. لا يبقى إلاّ أن يقول إنّه من أخرج المسرحيّة وكتب اسمي عليها لأنّني طالب في السنوات الأولى. وفوق كل ذلك لا أستبعد أنّه يقول للعميد إنّنا ـ الطلاّب ـ لا نعرف شيئًا، فهو من يقوم بكل شيء»!

أتجاوز أسئلة المشرف بكذبة فاضحة. أقول إنّني ذهبتُ إلى المكتبة ثم إلى السوليدير لآكل وقرّرتُ أن أمشي إلى هنا وتهت. نعم ببساطة تهت.

لا يعلّق المشرف.

أحدّثُ نفسي: «لا بدّ من أنّه مستعجل الآن. يخشى أن يخسر الفتاة الشقراء التي كان يكلّمها. المهمّ أن يشبكها الآن، وغدًا ينفرد بها بعيدًا من الشابّ. يا له من غبي».

(بعد يومين ستنتهي فعاليات المهرجان. وبعد الختام بيوم ستطير الطائرة بفريق نادي المسرح إلى الرياض، حيث سأقابل فاطمة بعد شهرين. وحيث سأعرف حبًّا لن أنساه طيلة عمري. وحيث سأعيش أيّامًا ولحظات لم أعشها مع أحد غيرها. ليس لأنّني لم أجرب غيرها، بل لأنّني لم أفعل ذلك مع فتاة أعشقها، قبلها، لكنّها لا تستحقّ ذلك العشق).

[٣]

«أنا» مؤلّفُ رواية «رجل وخمس نساء». مُؤلفٌ... ولست مُؤلفة.

تعود «أنا» إلى راوٍ. ولا تعود إلى رَاوية (تلك التي كُتب اسمها على غلاف هذه الرواية).

لست إيهاب. هو بطل هذه الرواية التي أكتبها. هو مجرّد شخصيّة خلقتها.

* * *

لم يمض شهر على ما كتبه عبده وازن في صحيفة «الحياة» عن رواية «بنات الرياض». عَنْوَنَ مقالته بـ «الراوية المجهولة تجعل من الإيميل وسيلة سرديّة».

اليوم هو الخميس ٣ رمضان. الموافق ٦ أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٥. (بعد أقلّ من شهر على ما كتبه عبده وازن عن رواية «بنات الرياض» لرجاء الصانع).

كتب عبده وازن في صحيفة «الحياة» مقالة عن رواية لرجاء عالم، (رجاء عالم وليس رجاء الصانع)، تحت عنوان: «السعوديّة رجاء عالم تجعل من واقع المرأة ذريعة سرديّة»، وبعنوان فرعي: «(سِتْر) رواية بهاجس شعري».

في التاريخ ذاته، (٦ أكتوبر)، في أسفل الصفحة الأولى من جريدة «الشرق الأوسط»، كتب عمر العقيلي مقالة تحت عنوان: «رجاء الصانع: سأقدح الزناد لينطلق التغيير... وتوقّعتُ الهجوم أثناء كتابتي الرواية».

تزامنت مقالة «الشرق الأوسط» مع مقالة أخرى مختلفة في صحيفة «الرياض» عن الرواية ذاتها. كان عنوان المقالة التي كتبها طامي السميري: «رواية بنات الرياض وصدى الكواليس».

في اليوم ذاته، الخميس، أيضًا، كتبت رجاء عالم، مقالةً في جريدة «الرياض». عنونت مقالتها بـ «العالم الخفي المطلق». كانت المقالة حلقة أولى من ثلاث حلقات. نُشرت هذه المقالة في الصفحة ذاتها إلى جانب مقالة طامي السميري عن «بنات الرياض».

* * *

بدأتُ أهذي. كعادتي حين تحضر روايتي في ذهني.

صرتُ لا أُطيقُ إيهاب وسيرته. أبحث دائمًا عن جوابٍ لسؤال: «لمَ أكره إيهاب؟».

بِتُّ أخشى أن تلاحظ زوجتي. أخافُ أن تجدَ سببًا آخر لتنعتني بالجنون. لم أُخبرها يومًا عن «رجل وخمس نساء». هي لم تقرأ رواية في حياتها. تشكّ بي من دون سبب.

لم أثق بأحد لأحكي له عن الرواية. تنبّأتُ: «سيقولون: هذه سيرتك الذاتيّة. أحداث حصلت معك. إيهاب هو أنت. وأنت هو إيهاب».

لم أَخفْ من الجزم فقط. خشيتُ من مجرّد شكّهم أيضًا. شكّهم في أنّني خلقتُ إيهاب من العدم. وخلقتُ فتياته الخمس.

بعد أسبوعين، من يوم الخميس ذاته. قرأتُ رواية «سِتْر» لرجاء عالم. كنتُ قرأت «خاتم» قبل نحو عام ونصف العام، حين قرّرتُ كتابة حياة إيهاب.

تساءلت بعدما فرغت من رواية «سِتر»:

هل يمكن أن تُحبّ مريم أو بتول، إيهاب؟ ماذا عن طفول؟!

(مريم وبتول وطفول شخصيّات في رواية «سِتر» لرجاء عالم).

ماذا عن شخصيّات رواية محمد حسن علوان؟ ما وجه الشبه بين إيهاب وبطل «سقف الكفاية»؟ هل يُمكن أن تحبّ مها (شخصيّة في «سقف الكفاية») شابًّا مثل إيهاب؟! أو يُحبّ إيهاب فتاةً مثل مها؟!

ماذا عن شخصيّات رواية عبده خال؟ ما وجه الشبه بين جليلة بطلة خال في «فسوق» وبين إيهاب؟...

أقدر أن أُقحم كل تلك الشخصيّات في حياة إيهاب، أن أصنع بين إيهاب وإحدى تلك الفتيات حبًّا.

سألتُ نفسي: «ما الفائدة من كل هذا الهذيان؟».

* * *

عنونتْ رجاء عالم مقالتها بـ «العالم الخفي المطلق». لم يكن لهذه المقالة، أيّ علاقة برواية «بنات الرياض» أو رواية «سقف

الكفاية» أو حتى رواية «صوفيا». لم تكن للمقالة، أيّ علاقة بإيهاب. لم تكن لها علاقة بـ «رجل وخمس نساء». لم تكن هناك أيّ علاقة بين المقالة ورواية عبده خال «فسوق»!

سألتُ مجدّدًا: هل الحبّ عند رجاء عالم يختلف عمّا هو عندي وعند خال، وعند علوان، وعند رجاء الصانع؟ هل الحبّ عند رجاء عالم وعندنا نحن الثلاثة يختلف عن الحبّ في رواية «الفردوس اليباب» لليلى الجهني؟

الأسئلة لا تنتهي... هل أكتبُ إيهاب أم لا أكتبه؟ هل أُكمل الرواية أم أُحرقها؟ من يهمّه أن يعرف حياة إيهاب، أن يعرف عالمه الخفيّ المطلق؟ هل يَحْملُني ما حصل خلف الستارة إلى صفحاتِ الجرائدِ وشاشاتِ القنوات الفضائيّة؟ هل الجرأة هي كلمة السرّ؟...

* * *

لستُ أعاني «فوبيا» المنافسة. ستكون روايتي الأجرأ.

لكنّي، أخاف من رواية إيهاب، التي قرّر أن يكتبها لينتقم من فاطمة.

هو قرّر أن يطبع نسخًا كثيرة، أن يُرسل نسخة منها إلى كل رجل جديد يخطب فاطمة أو يرتبط بها. طبعًا، لن يُوَقّع الرواية باسمه. سيُوقّعها باسم مستعار. سيكتب في الرواية أنّ فاطمة لن تجرؤ على البوح باسمه.

كتب أيضًا: «ربّما أُحدث إرباكًا في عالم كل الذكور. ربّما سيبحثون عن زوجاتهم في روايتي».

سيختار لروايته اسم: «أنا والرواية وهي».

استخدمتُ وسأستخدم مقاطعَ من روايته، في هذه الرواية «رجل وخمس نساء».

أعرف أنّني خلقته وكتبته!

لكنّي ببساطة لم أعد أعرف إن كنت أتحكّم فيه كلّيًّا، أم أنّه يتحكّم بي. أُحسّ أحيانًا أنّه يتدخّل في كتابة روايتي. أُحسّ برفضه بعض السطور التي أكتبها. يدفعني شعور غريب إلى تغيير أحداث كثيرة.

أمسح، في كثير من الأحيان، صفحات وأُعيد كتابتها. تختلف الأحداث الجديدة جذريًّا عن القديمة (الممسوحة)! أشعر مرّات أنّ إيهاب وفاطمة والشخصيّات الأخرى تُملي عليّ ما أكتب.

حتمًا ستُشبه رواية إيهاب روايتي، على مستوى الأحداث، فأنا أروي قصّته، وهو سيروي قصّته. ستتشابهان أيضًا في الأسلوب والمفردات.

أصلاً لن يكتب إيهاب رواية. لأنّني لن أكتبها. هو يفعل ما أمليه عليه.

لا...

هو يُملي عليّ ما أكتب...

أُحسُّ بأشياء كثيرة تختلج في عقلي وتتداخل.

الضجّة التي صاحبت روايات كثيرة بعد أكتوبر ٢٠٠٥، دفعتني إلى فتح الكومبيوتر المحمول من جديد. قرّرت أن أعود إلى إيهاب. كُنتُ أنجزت كتابة «ثلاثة أرباع» الرواية، «رجل وخمس نساء». لكنّي رميتها، بل أخفيتها في مكان ما، في الكومبيوتر، لا يصل إليها أحد، حتى أنا.

لم يبق إلاّ صفحات وتنتهي حياة إيهاب.

بعد أشهر قليلة أستطيع أن أنشر ما كتبت. ستتخيّله كل فتاة كيفما تريد.

هل يكون «دون جوان»؟!

وجهه سيكون مختلفًا بعدد القرّاء. كل قارئ سيتخيّله بوجه ولون وبشرة ورائحة مختلفة.

هل يقارنون وجهه بوجهي؟ هل يفتّشون في حياتي بحثًا عن دلائل تشير إلى أنّني كتبت سيرة ذاتيّة؟

هو من قرّر أن يكتب سيرته الذاتيّة مع فاطمة... لست أنا.

هل يمكن أن يسبقني إيهاب إلى النشر؟

قال لفاطمة إنّه سيُهديها روايتهما في عيد ميلادها المقبل. وُلدت فاطمة في الثامن والعشرين من أغسطس. هي من مواليد برج العذراء.

نحن في أكتوبر الآن. لا أزال أملك متّسعًا من الوقت. سأنشر روايتي قبل ذلك. قبل أن يفرغ من روايته.

لن أسمح بأن تنافس روايته روايتي...

أوه... عدتُ إلى الهذيان من جديد.

[٤]

تعجّبتْ هالة من استعجال فاطمة.

كانت تَعُدّ على مسامع خالتها الأيّام الباقية، قبل عودتها إلى الرياض. يومًا يومًا.

سألتها: «يا خالتو... ما عمرك كنت مصروعة هيك عالسعوديّة. شو مالك؟».

تكتفي فاطمة بالابتسامة وعبارة «اشتقت لصديقاتي».

*

كنتُ في الرياض. أعدُّ الأيّام. أسألُ نفسي: هل نسيتني أم لا تزال تذكرني؟

(حينها فقط، نسيت إشارتها في بيروت، إلى أنّها تُفكر في فسخ خطوبتها. ستُذكّرني لاحقًا).

أُحدّث نفسي: «لا أظنّ أنّها تقبل بصداقتي. هي مخطوبة. تبدو مؤدّبة جدًّا. يجب ألاّ أشغل نفسي بها كثيرًا».

اتّصلت بي في اليوم الذي حطّت فيه طائرتها.

سألتُها في اليوم ذاته عن مدى إمكان فسخ خطبتها. بَدَتْ إجاباتها غريبة يومها. لم تقنعني.

لكنّها قالت بعد إلحاح منّي: «نعم أريدك، فأنا مخطوبة رغمًا عنّي». قالت هذه العبارة بعد أسبوع. قبل أن تنطق بها، قرأتُ في عينيها بوحًا آخر. تحديدًا في أوّل لقاء في الرياض.

كان حصل في مطعم إيطالي. قالت لغة عينيها: «أريدك. أرغبك. أُعجبت بك. أسَرْتَني. باهتمامك بي. بأدبك معي. بعبقريّتك، منذ شاهدت مسرحيّتك. بكلامك».

في ذلك اللّقاء، كاد كعب حذائها العالي يسقطها من الدرج.

قفزتُ من مكاني. أمسكتُ بها. حين وجدتها في حضني ولم تسقط، عنّفتُها. قلت: «انتبهي جيّدًا، خصوصًا أنّك تنتعلين هذا البرج».

ستبوح لي لاحقًا بأنّها أحبّت تعنيفي لها. صارت متابعتها فرضًا، كلّما أرادت نزول الدرج. كنتُ أختار مطاعم نضطرّ فيها إلى صعود الدرج. ستحكي لي دائمًا عن تلك المرّة في المطعم الإيطالي: «شعرتُ به. تمنّيت أن تُقَبّلني وقتها، أن ترفع عباءتي».

فسختْ خطبتها بعد ثلاثة أشهر. أدركتُ أنّ بإمكاني التقدّم خطوة. صرنا نخرج يومًا بعد يوم. لم تبح لخالتها حتى بلقاءاتنا. طلبت منّي ألاّ أفعل. تتعلّل لوالدها بالعمل.

كانت المطاعم هي المكان الأمثل. تجلس إلى جانبي، كلّما دعوتها إلى مطعم. ساقها تلامس ساقي. تُحضر لي معها في كل مرّة شوكولا. بتّ أحضر لها شوكولا أيضًا.

بدأتُ أشعر بالغيرة عليها. أُوَبّخها حين تلبس ما يُظهر مفاتنها. كانت تبتسم. لم تكره توبيخي في تلك الفترة.

كلّما عادت إلى البيت، بعد كل لقاء، تتصل بي. حين تجد وقتًا في عملها تتصل. كنتُ أتصل بها كل يوم كي أُوقظها لدوامها. طالت المكالمات الليليّة تدريجًا. كل ليلة أربع ساعات أو خمس.

أُحدّثها عن نفسي. عن حياتي. عن المسرح. عن الكتب التي قرأتها. عن فلسفتي في الحياة. فكري المتحرّر وإيماني بحقوق المرأة. أحببتها، حكيت لها عن نفسي كما تريدني هي أن أكون.

كانت تعلّق على كلامي عن حرّيّة المرأة: «مستعدّة أن أغطّي نفسي من أخمص قدمي إلى شعر رأسي. المهمّ أن تكون راضيًا. كن ما أنت عليه».

كنت أسأل نفسي: «هل خطّطت لذلك؟ ربما أرادت أن أحبّها فقط، فهي تحبّني».

اعترفتُ لها بكل علاقاتي القديمة. قلت إنّ رغبتي عارمة، وتتحكّم فيّ. قالت: «من منّا لا تحكمه رغبته؟».

سأشعر بعد أيّام بالذنب. فأنا خرّبت حياتها. كانت ستذهب إلى زوجها بعد أشهر قليلة، قبل أن تشاهد مسرحيّتي.

خفّفت عني: «كنت سأترك خطيبي على أيّ حال. ثم إنّ القدر ساقك إليّ. اعتبرني لم أكن مخطوبة».

لاحقًا ستضيع كل هذه الأيّام الحلوة. ستُحبّ شابًّا اسمه خالد. سيتسلّى بها. لن يفكّر بالزواج منها. رغم ذلك تُصدّقه.

سأبكي كثيرًا. سأتساءل عن السبب الذي يدفعها إلى عشق شابّ يتسلّى بها ولا يريد الزواج منها.

«الفتيات غريبات. لا يحببن من يحبّهنّ. لا يردن من يجري وراءهنّ. هي لم ترد أن تتزوّج من يبكي بسبب فراقها. أرادت أن تجري وراء سراب. لم تعرف يومًا إن كان خالد صادقًا. إن كان سيتزوّجها. كل هذا لا يهمّ. ستعمي الشهوة عينيها، ستسيطر على كل شيء في حياتها».

* * *

مرّ عامان ونصف على علاقتهما. لم يعرف بعد عن علاقتها بخالد. أخفت عنه الحقيقة. لم تخبره بشيء أبدًا.

كانت علاقة إيهاب بفاطمة متوتّرة جدًّا في تلك الفترة. المشاجرات سيّدة كل مكالمة. في إحدى المكالمات قالت: «لا أزال أحبّك». لم تكن قالتها منذ فترة. عبّر لها عن سعادته، رغم استدراكها: «لا أستطيع المضي في حياتي. أنا مشلولة. أريد أن أتحرّر منك. سلطتك تخنقني. سلطتك هي المشكلة».

هي لا تبكي. في هذه المكالمات. تصرخ. تقول إنّ كلامه «مُزعج. مُضجر. لا يُطاق».

بدأت فاطمة في استخدام هذه الكلمات، منذ عرفت خالد. تعلن له بهذه الكلمات أنّها ترغب في إنهاء مكالمة. تضيف إذا لم يقبل بإغلاق الخطّ: «لا أحبّ سماع صوتك. لا تتصل مرّة أخرى».

يبوح لها أحيانًا: «لو لم يكن هناك آخر في حياتك، ما تكلّمت بهذه الطريقة». هي تغلق الخطّ بعد هذه العبارة دائمًا.

(قبل أن تعرف خالد، كان إيهاب يغلق «الخطّ» بوجهها، سواء ضايقته أم لم تفعل. كلّما غضب منها، يتهرّب، ويحرمها من صوته. رغم كل ذلك تتصل ولا تتفوّه بعبارات وكلمات تشبه هذه التي تنطقها الآن).

جرّب مرّة أن يقول: «سأخطب صديقة أختي».

خفّت حدّة عباراتها وكلماتها تلك. غيّرت طريقة معاملتها.

قالت: «ألم تقل إنّك لن تفعل قبل ثلاث سنوات. ألم تقل إنّك ستنتظرني حتى أتزوّج!».

ردّ عليها بسرعة: «أنتِ لا تحبّينني. تراضينني وتسايرينني. حتى تتزوّجي آخر. أنا أفضل الخيارات حتى الآن. ربما كان هناك شاب آخر. لكنّك لا تبوحين بذلك. حتى تذكيرك لي بالمشكلات التي لا تطاق، جديد. كنت تقولين: المشكلات أمر طبيعي. هي تحدث بين كل رجل وامرأة. أنا مجرّد احتياط حاليًّا. ستغلقين بابي إن وجدت غيري. وستعودين إن رموك مثل الكلبة».

أغلقت الخطّ في وجهه. شتمته. أرسل لها رسالة كتب فيها: «هل نسيت عبارتك؟ كنت تقولين: حبيبي، أليس رائعًا أنّ مشكلاتنا تنتهي بمجرّد اللقاء؟ فذلك يعني أنّ الحبّ يصنع المعجزات. تزوّجني وسأسعدك».

*

بعد شهور من فسخ خطوبتها. وبعدما سمحت لي بأشياء كثيرة. بدأ أوّل شجار بيننا.

كانت تُكلّم زملاءها في الجامعة. تتصل بهم بين الحين والآخر. قبل اقتناعها بأنّ ذلك لا يصحّ، قلت لها: «سئمت الشجارات معك».

كنت أغيب عنها يومًا أو يومين حين أكتشف أنّ أحد أصدقائها اتصل بها وهي ردّت عليه.

قرّرتُ مرّة أن أتركها.

كذبتُ. قلتُ إنّي سأتركها. قالت: «حبيبي، أليس رائعًا أنّ مشكلاتنا تنتهي بمجرّد اللقاء؟ فذلك يعني أنّ الحبّ يصنع المعجزات. تزوّجني وسأسعدك». سأذكّرها يومًا بهذا الكلام. ستصف حينها كلامي بـ«العاطفي والبعيد من العقلانيّة».

تفلسفتُ عليها مرّة. شرحتُ نظريّاتي في أيّ علاقة بين امرأة ورجل. قسّمتها إلى ثلاثة أجزاء: عاطفيّة، وجنسيّة، وفكريّة. قلتُ لها: إذا لم تنجح علاقتان من ثلاث يغرق المركب.

كانت تقول: «تذكّر أنّ علاقتنا الحميمة والعاطفيّة أكثر من ناجحة. تبقى الفكريّة وسأتعوّد عليها تدريجًا».

صرّحتْ لي حينها بأنّها تُحبّ عبقريتي، خصوصًا كلّما «فلسفت الأمور».

أبدت اندهاشها حين دخلتْ شقّتي أوّل مرّة. وقفت مبهورة أمام الكتب. لم تصدّق كيف أقرأ كل هذه الكتب.

قالت في ذلك اليوم تحديدًا: «لم ينحت أحدٌ أثرًا في قلبي كما فعلت أنت. ولم أعجب بعقل شابّ كما أعجبت بعقلك. ولم يأخذ أحد منّي كما أخذت أنت».

لن تنطق بالعبارة الأخيرة، بعد أن أكتشفَ حكاية الشابّين اللذين سبقاني.

كذبتْ عليّ حين قالت: «لم يمسسني أحد قبلك».

حتى حين سألتها للمرّة الأولى: هل قبّلت شابًّا في حياتك؟ كان ردّها: «لا. لكنّني dying to that. أرغب بشدّة أن أقبّلك».

أذكرُ ردّها بالحرف حين كرّرت عليها السؤال مرّات أخرى.

قالت: «لم أُقبّل أحدًا في حياتي، ولم أرغب بتقبيل شابّ قبلك. لا... لأكون أكثر صدقًا: رغبت في تقبيل غيرك لكنّي لم أفعل».

* * *

سيؤكّد أنّه يصدّقها. سيقول: «أصلاً أنا أحببتك لأنّكِ تكبحين رغبتك انتظارًا للرجل الذي يستحقّك».

قال هذا الكلام، بعد أوّل قُبلة:

جلستْ على فخذه في بيتها. كان أبوها مسافرًا إلى الدمّام ليحضر اجتماع عمل. غيّرت وضع جلستها على فخذه أكثر من مرّة. غيّرتها ثلاث مرّات في ثوان.

قال بعد ابتسامة: «لا ألومك. تنقصك الخبرة».

في الوضعيّة الرابعة ساعدها. وضع فخذه بين رجليها. جلست على ركبته. بعد قبلة حارّة وطويلة. قال: «تحتاجين إلى دروس في القبلة أيضًا».

(ستمرّ فترة طويلة، قبل أن يكونا عاريين للمرّة الأولى. ستتكرّر لقاءاتهما. ستشهد عليهما سيّارته والشوارع والمطاعم. ستشهد غرفة نوم والدها وحمّامًا بيتها، والصالون والصالة. سيشهد بلاط بيتها أيضًا، وبيت خالتها. ستشهد شقّته...

سيزول خجلها شيئًا فشيئًا. ستصل علاقتها به تدريجًا إلى عمق لم تتصوّره، لكنّها تقبله. لم تُخف ذلك. صرّحتْ به مرارًا.

سيخبرُها هو أيضًا أنّه يحلم بها في أحلام اليقظة، كل ليلة.

سيستعين بصورها. سيسرق صورًا فوتوغرافيّة كثيرة لها. سرق ١١ صورة. تَلبسُ في كل صورة ملابس مختلفة.

سرق صورًا لها بقمصان النوم أيضًا. ينظر إلى هذه الصور أكثر من غيرها. ينظر إلى فخذيها ونهديها البارزين. سيستخدم صورة مختلفة، في كل مرّة يحلم بها. أحيانًا، لكل ليلة صورة).

حين رأى أوّل مرّة جسدها عاريًا، سألته:

ـ ألن تظنّ أنّني فعلتها مع أحد قبلك؟

ـ أنا أحبّك. الحبّ يعني أن يمنح كل واحد جسده وعقله وحياته للآخر.

لم يُلحّ يومها على لمسها وهي عارية. خيّرها. «إن كنت لا تشعرين بعد، أنّني أستحقّ لمسه، يمكنك تأخير ذلك».

أجابت مبتسمة: «سألتك ليطمئنّ قلبي فقط. أعرف أنّك تحبّني».

لاطفها. داعبها من تحت البطّانيّة التي غطّت نفسها بها.

همس في أذنها: «أحبّك. لا أريد غيرك زوجة».

مرّر يده ببطء من رقبتها نزولاً. لم يرفع يده عنها. قبّل شفتيها، ثم رقبتها. نزل تدريجًا.

رفعت رأسه فجأة. قالت: «لا هنت». توقّف ونظر إليها. دخلا في نقاش طويل. أصر أن يفعل ذلك. رفضت هي. برّرت: «أنت أكرم عندي من أن تضع وجهك هناك». قال بلطف: «هذا لا ينقص من كرامتي بل يزيدها». رفضتْ.

عاد إلى تقبيلها.

فاجأته. رفعت رأسه. طلبت هي أن تفعل ما كان ينوي فعله.

ـ كيف تطلبين ذلك وترفضين أن أفعل أنا؟

ـ ربما أسمح لك في وقت آخر. لكنّك قلت إنّ ذلك لا ينقص من الكرامة بل يزيدها. أريد أن أبدأ أنا بذلك معك.

لمّحت إلى أنّها لم تكن تفكّر في فعل ذلك حتى لزوجها: «كنتُ أقرف بمجرّد التفكير في الأمر».

أكّدت له أنّها ترغب في فعل ذلك. ألحّت.

(يومها فقط. بدآ علاقة مجنونة لم يوقفها أيّ شيء. لا مكان ولا زمان. لن تتوقّف إلاّ بعدما تتعرّف على خالد).

[٥]

الآن، لا مجال للشكّ في جُرأتي. وصفت بدقّة ما دار بين إيهاب وفاطمة. ربما أكون راويًا متعجرفًا، نرجسيًّا! لكن، ألن تُحقّق حياة إيهاب مبيعات خياليّة، وقياسيّة؟ ألن تحقّق إقبالاً هائلاً على قراءتها ومعرفة تفاصيلها المجنونة؟

بسبب هذا السؤال، أخافُ من أن يكتبها هو. أُدرك أنّ روايته «أنا والرواية وهي»، ستنافس جرأة روايتي.

أعرف أنّه شخصيّة في رواية. لكنّني أخشى تَدَخُّلاته السافرة.

يتطاول على قناعاتي. أُكلّمه. أُحسّ به. هو لا يعرفني جيّدًا. لا يستوعب أنّه مجرّد شخصيّة مكتوبة. لا يفهم. لم يلحظ تغيّره، حتى.

كان في مجتمعه في الدمّام متشدّدًا. يرفض كشف وجه المرأة. يرفض أن تخرج أُخته وحدها، حتى لو كانت ذاهبة إلى صديقاتها. لا يقبل أن تجيب امرأة على الهاتف. لا يقبل أن تتحدّث المرأة مع رجل في محلّ لبيع الملابس أو في مقهى أو مطعم.

بعدما تعرّف على فاطمة أصبح لا يمانع في كل ذلك. لكنّه لم

يكتف، يقول لها أحيانًا: «ليتني كنت أوروبيًّا، بل لا دينيًّا، لأقبل بكلّ تصرّفاتك».

ضحكتُ كثيرًا وأنا أكتبُ على لسانه تلك العبارة. تذكّرتُ اسكتلنديًّا. كان مديري في الشركة.

كان متزوّجًا من اسكتلنديّة. جاءت لتعيش معه في السعوديّة. لم يُتح لها تزمّتُ زوجها فرصة أن تعيش فيها أكثر من شهر. عادت إلى بلادها مُطلّقة.

كان يطالبها بلبس العباءة حين تخرج من المنزل، على رغم أنّ خروج غير السعوديّة من دون عباءة في المدينة التي كنّا نعمل فيها، ليس مستغربًا.

حاول إقناعها: «لا أحتمل نظرات الرجال. ضعيها على كتفك، في المرافق العامة فقط». رفضتْ. أصرّ هو. فكانت النتيجة طلاقها، والعودة إلى اسكتلندا.

لم تضع فاطمة وشاح الرأس يومًا، قبل إيهاب. تتجنّب في الرياض زيارة أماكن تضطرها إلى ذلك.

لم يطلب منها، أن تتحجّب، في بداية علاقتهما. فرضتْ على نفسها ذلك. حين ستتعرّف على خالد، ستنبّه إيهاب إلى أنّه غيّرها، ألبسها الوشاح رغمًا عنها. سيقول: «أنت ظننت أنّ الحجاب ضروري لأتزوّجك. لم أطلب ذلك منك».

لكنّه كان يوبّخها حين لا تضعه، بعدما تعوّد أن يراه يُغطّي شعرها.

* * *

لا يُخفي إيهاب غضبه كلّما سمع واحدًا من هذه الأسئلة: «هل قلتَ هذه الكلمة ذاتها لإحدى الفتيات اللواتي عرفتهنّ قبلي؟ هل فعلتَ مع واحدة مثلما تفعل معي في السيّارة؟ هل تتركني كما تركت مَنْ قبلي؟».

السؤال الأخير تحديدًا يدفعه إلى الصراخ: «لم أترك من سبقنك. لم أقل يومًا لفتاة إنّني سأتزوّجها. كنّا نتفق: سنكون صديقين فقط. ما فعلته لم يتجاوز المرح. كل واحدة منهنّ قَبلت. بل إنّ معظمهنّ لا يقبلن الزواج بمن تعرّين أمامه أو قبّلنه أو خرجن معه. هل تفهمين؟».

حاول أن يشرح أنّها تضغط عليه. لكنّها لا تلبث أن تكرّر أسئلتها كل مرّة.

حين يغضب كانت تردّد: «لم يُقبّلني أحد قبلك. أنت ضاجعت مليون فتاة. غِيرتي طبيعيّة».

يسألها: «ماذا عن أصدقائك في الجامعة في لبنان؟».

تشتمه: «حقير. هم مجرّد أصدقاء. هل تظنّ كل صديق وصديقة يفعلان ما فعلته مع فتياتك؟».

كان كلامها سببًا لكي لا يجيب على اتصالاتها ثلاثة أيّام.

ركبت في اليوم الرابع تاكسي.

وقفت أمام شقّته، عند الثامنة صباحًا.

لن تذهب إلى البنك في هذا اليوم. هي تعرف جدوله. محاضرته الأولى تبدأ عند العاشرة.

أرسلت رسالة: «أنا واقفة أمام باب بنايتكم في تاكسي. إذا لم تخرج فسيقبضون عليّ بتهمة التحرّش بالعزّاب». اتصلت به أربع مرّات. تعرف أنّه لا يضع جوّاله على وضعيّة الصامت حتى لو كان نائمًا.

نظر إلى هاتفه. لم يجب عليها. انتبه إلى وجود رسالة. فتحها.

قام من مكانه. لبس بنطلونه بسرعة. أخذ مفتاح سيّارته وخرج. حين شاهدته يخرج من باب البناية ابتسمت. نزلت من التاكسي. لم تكترث لكلامه. دخلت بسرعة. دخل وراءها.

تعرف شقّته. دخلتها قبل هذه المرّة. شقّة رقم ٢ في الطابق الأرضي.

كان يتلفّت وهو يمشي وراءها.

حين دخلت الشقّة حضنته. بكت. وضعت يده على قلبها. كان يخفق بشدّة. دفعته، رفعت حاجبيها وقالت: «لا تفعل ذلك مرّة أخرى. ولا تفكّر في أنّي سأفعلها مرّة ثانية. كاد قلبي يتوقّف من الخوف، بينما أدخل».

ضحكت قبل أن تستطرد: «ادخل الغرفة، والبس البنطلون كما يلبسه الناس».

اكتشف أنّه لبس بنطلونه بالمقلوب. ضحك. قال: «أعرف أنّك لم تُقبِّلي أحدًا قبلي. وأنّك حفظت نفسك ٢٤ عامًا. وأنّ أصدقاءك مجرّد أصدقاء. لكن لا تضغطي عليّ».

أومأتْ برأسها موافقة.

مدّت يدها إلى خدّه. تلمّسته. قبّلته.

لن يذهب إلى محاضراته. أكّد لها أنّه لن يفوّت شيئًا مهمًّا. تناول محموله. تظاهر بأنّه يطلب من صديقه أن يكتب له الملاحظات المهمّة.

لا تعرف أنّه سيغيب عن اختبارين «شهريين» اليوم.

خرجا وقت صلاة المغرب. تحديدًا، حين ركع إمام المسجد القريب من بيته، الركعة الثالثة. نسيتْ حافظة نقودها في سيّارته. (ستتذكّرها حين تدخل بيتها). رآها. وضعها في درج السيّارة. لم يفتحها.

اتصلت به. قال: «وجدتها لا تقلقي». طلبت منه أن يحضرها الآن، وألاّ يفتحها. ترجّته.

ـ ماذا عن والدك؟

ـ ليس موجودًا في البيت.

ـ ماذا لو جاء؟

ـ اتّصلتُ به. لن يجيء قبل ساعتين.

كان والدها في البيت. تحجّجت بأنّها ستنزل لزيارة جارتهم.

فتح إيهاب حافظتها. نبّشها. وجد صورة شاب. وضعها في جيبه.

وصل إلى بيتها وناولها إيّاها من باب البناية.

اتصلت بعد دقيقتين. سألته عن الصورة. جاوبها ببرود: «أيّ صورة؟». سكتت. هو لم يضف كلمة. سألته مجدّدًا. لم يتكلّم. قالت إنّها صورة زميل لها من المغرب اسمه رشيد. أضافت: «لم يحدث بيننا شيء. صدّقني».

ضحك. أغلق الخطّ وهو يضحك. أرسلت رسالة. نعتته فيها بالشكّاك.

اتصل. صرخ: «لم أعلّق. لم أقل أيّ كلمة. لم أنوِ فتحها، إلاّ حين ألَححْتِ أن أحضرها. رأيت سيّارة والدك واقفة. أنت قلت: لا يقود غير سيّارته. ولم تمض دقيقتان حتى اتصلت تسألين عن الصورة. لم أتّهمك بشيء. احتفظت بها فقط».

طلبتْ أن يعيدها. رفض:

ـ إذا كنت تصرّين على استعادتها. فستكون آخر مرّة ترين فيها وجهي.

ـ والله إنّك تشوف الناس بعين طبعك. تحسبهم زيّك ما يعرفوا إلاّ الغريزة.

لم يعلّق. أغلقت الخطّ.

بكت بعد المكالمة.

فتحت الدرج الذي تحتفظ فيه بصور رشيد. مزّقت عشر صور. أحرقت ثلاث صور أخرى. كانت تحضنه في الأولى. تُمسك بيده في الثانية. تلمس خدّه في الثالثة.

فتّشت عن صور أخرى. وقعت عيناها على الدفتر الأزرق الصغير. مدّت يدها. همّت أن تقطّعه. تراجعت. تناولت قلمًا. كتبت:

«لم أحبّ أحدًا قبلك. لم أعط شابًّا ما أعطيتك. أحلم أن تكون زوجي. لماذا لا تفهم؟ أحاول أن أنسى كل شيء، أن أكون زوجة تُحبّها، سيّدة أعمال ناجحة. طفلٌ أو طفلان. يقولان لك بابا ولي ماما. لا أقدر أن أحكي لك كل شيء. سيتحوّل حينها الحلم إلى كابوس».

(ستعترف له أنّها كانت تحبّ رشيد. بعد أيّام قليلة سيتصالحان. ستُقسم وتضيف: «لم يلمسني. كانت علاقة عفيفة. حبّ عذري». سيتّفقان على أن ينسى. سيشرط ألاّ تُذكِّره بمن سبقنها. توافق).

* * *

اتصلت به يوم أربعاء. طلبت منه أن يفتح بريدها الإلكتروني.

سيجد في صندوق الحفظ سيرتها الذاتيّة. تُريده أن يُرسلها إلى صديقتها. إذ ستُقدّمها الأخيرة إلى مديرها.

تعمل صديقتها في مصرف آخر في جدّة. قالت إنّهم يدفعون أكثر بكثير من المصرف الذي تعمل فاطمة فيه.

كانت الساعة وقتها العاشرة مساءً. هي ملزمة بإرسال السيرة اليوم. فالمصرف الذي تعمل فيها صديقتها أعلن منذ شهر عن وظائف شاغرة. أعلن أنّ يوم الأربعاء (اليوم) آخر موعد لاستلام الطلبات.

صديقتها ستداوم غدًا الخميس. ستضمّ سيرتها الذاتيّة إلى ملفّات الأخريات، كأنّها قدّمت ملفّها يوم الأربعاء.

هي لن تذهب إلى المكتب غدًا. لا يوجد في بيت فاطمة كومبيوتر. هي لا تحبّه. لا تحبّ التقنيّة. هكذا تقول له دائمًا.

(ستكره التقنيّة أكثر. ستَمْقتُها يومًا. ستقول لإيهاب لاحقًا، حين سيكون خالد موجودًا في حياتها: «الماسنجر السبب. لو لم أعطك كلمة المرور. لو لم تبحث ورائي، وتُفتّش في ماضي، لما شعرت بالنقص أمامك. الله يلعن النت وسنينه». ستلومه لأنّه نبش. ستسأله كثيرًا: «لِمَ فعلت ذلك؟ لماذا لم تثق بي؟». سترىط ذلك برفضها الزواج منه. ستؤكّد أنّه سيُذلّها بماضيها لو تزوّجته. كان يردّ عليها: «لست نذلاً. أريد الزواج منك. لا أهتمّ بماضيك». ستُلغي بريدها الإلكتروني بسبب هذه القصة).

في اليوم ذاته، دخل إيهاب إلى «الماسنجر» المسجّل بعنوانها البريدي. كان أرسل سيرتها الذاتيّة.

وجد اثنين على الخطّ (أون لاين).

أرسلوا له (لها): HI.

أجابهم بـ HI. لم يضُف كلمة واحدة.

أحدهما كتب له (لها): «كيفك فطّوم. كيف السعوديّة وأهله».

كان اسمه المستعار: «ولد بيروت».

أغلق نافذة المحادثة معه. اختار أمر الخروج.

قبل أن يُنفِّذ الأمر، دخل على الخطّ بريد إلكتروني ثالث. كان عنوان البريد (الماسنجر):

RASHEED_ON_LINE@HOTMAIL.COM.

تراجع عن أمر الخروج. لم يُرسل أيّ كلمة.

أرسل في هذه اللحظة «ولد بيروت»: «شو فطّوم؟ مشغولة».

جاوبه بـ YES.

ردّ: «أوكيه باحكي معك ليتر أون».

بمجرّد أن قرأ عبارة «ولد بيروت»، الأخيرة، فُتحت نافذة محادثة جديدة.

كُتب: «وينك تيما من زمان. اشتقت لك. ليش ما بتردّي عليّ».

لم يجب بسرعة. اختار أمر الخروج مرّة أخرى.

تراجع في اللحظة الأخيرة.

كتب:

- موجودة. بس مكتئبة شوي.

- أخيرًا. مالك ديما أشوفك أون لاين ما بتحكي معي. احنا مو اتفقنا إذا أحد اكتأب يتصل بالتاني. ولا نسيتي.

لم يكتب إيهاب جملة واحدة. ظلّ يعيد قراءة العبارات. جاءته عبارات جديدة:

- اتصلت بك أكثر من مرّة قبل خمسة شهور بس انت ما رديتي. بعتّ مساج قبل شهرين. ما جاني رد. توقعت انك نسيتيني.

- ولو. بس والله كنت مكتئبة.

- فضفضي.

- طفشانة. بحسّ إنّو صار لازم أصير أمّ. مشتاقة لبيبي.

- أكيد ما لقيتي واحد يحلّ محلّي... أمزح. ما تزعلي.

- لا بالعكس. أنا محتاجة أفتكر. أحسّ بفراغ عاطفي عن جدّ.

- يو ميس مي.

- أكيد... طبعًا آي ميس يو.

تردّد كثيرًا وهو يطبع عبارة أخرى. أعاد صياغتها أكثر من مرّة:

ـ رشيد، شو أحلى يوم معي في لبنان ما بتنساه.

تتصل به فاطمة في هذا الوقت. ينظر إيهاب إلى رقمها ويبتسم. اتصلت أكثر من عشرين مرّة.

ردّ عليها. قال سيكلّمها بعد نصف ساعة. رفضت. أقنعها بأنّ معه أصدقاءه.

كان عادة، يخرج إلى السيّارة. يتكلّم معها. ثم يعود إلى أصدقائه بعدما تفكّر هي بالنوم. أدرك أنّها شكّت بردّه، لكنّه تجاهل شكّها، وأغلق الخطّ.

* * *

أصيبت فاطمة بصدمة. بكت كثيرًا وأغلقت الخطّ، حين حكى لها إيهاب، بالتفصيل، عن أوّل مرّة داعبها فيها رشيد.

حكى عن المكان. عن البداية. عن القبلة في «جنينة العشّاق» في وسط بيروت (التي قابلها إيهاب فيها).

حكى وكأنّه يحكي حكاية أخرى ليس لها علاقة بها.

قال: «سأحكي لك اليوم حكاية قبل النوم».

أجّلَها إلى آخر المكالمة، رغم إصرارها.

كانت تضحك وتقول: «ستحكي حكاية تُثيرني يا لئيم». ردّ وهو يبتسم بخبث: «بالضبط».

أغلقت الخطّ في نصف الحكاية. سألته قبل أن تفعل: كيف عرفت؟!

لم يُجبها. واصل سرده.

ردّدت سؤالها.

تجاهلها. وواصل سرده.

بكت.

لم يهتمّ. واصل سرده.

أغلقت الخطّ. اتصل بها. أكمل سرد الحكاية.

هي تبكي وتطلب منه أن يتوقّف. لم يعرها أيّ انتباه. كأنّها لا تتكلّم. يواصل السرد.

أغلقت ولم تجب عليه هذه المرّة. اتصل كثيرًا من دون فائدة.

أرسلت له رسالة: «انساني. اعتبرني ميتة».

أرسل لها رسالة: «أنا أحبّك. لا يهمّني لو نمت مع مليون». اتصلت عليه. سألته: «هل أنت مخاوي جن (تُسخّر الجِن في خدمتك)؟».

لم ينف.

ضحك. قال:

ـ أريد أن أسمع كل شيء عن ماضيك، منك، الآن. أنتِ تُدركين أنّني أعرف كل شيء. وأنّك لا تقدرين أن تكذبي.

ـ لمَ تسألني، طالما تعرف؟ هل تريد أن تُذلّني؟

ـ أريد أن أقنع نفسي أنّك كنت صادقة. حكيت لي كل شيء. سأنسى أنّك لم تحك. سأتعلّل لنفسي كلّما تذكّرت، بأنّك حكيت لي. لن أتذكر أنّك كذبت.

وافقت. حكت له كل شيء عن رشيد.

استنطقها. حكت له عن ابن جيران خالتها في المجمّع السكني، حين كانت تبلغ ١٦ عامًا.

هي لم تخلع ملابسها مع أيّ منهما. سمحت لرشيد أن يخلع بنطلونه، إلى ركبتيه فقط. سمحت له بذلك مرّة واحدة.

هذه المرّة هي التي حكى رشيد عنها في «الماسنجر».

أكّدت له أنّها قرفت بعد هذه الحكاية، وأنّبت حالها على خيانة ثقة والدها. قالت: «لم أسمح له بعدها بلمسي. ظل حبًّا عفيفًا. انتهى بمجرّد سفره إلى المغرب». حلفت بأنّها لم تُكلم رشيد منذ التقت به في بيروت.

(هي ستسامحه عندما تعرف أنّه دخل إلى «الماسنجر». لكنّها ستغضب في وقتها. ستقول: «لم تحدّثت معه بهذا الكلام؟ كنت قد منعته أن يتحدّث معي بالأمور الحميمة».

لم يتخلّ إيهاب عنها، بعدما عرف. لم يتركها، رغم أنّها أكّدت له أنّ علاقتهما ستنتهي لأنّه لن ينسى.

هو لن يُحاسبها لأنّها فعلت شيئًا قبله. سيحاسُبها كثيرًا لأنّها كذبت واستغلّت حبَّه لها. هكذا يُعلّل كلّما ذَكّرها بأنّها كانت تُعايره بعلاقاته، كانت تستشرف عليه.

سَيَمُنّ عليها لأنّه نسي. سيلومها كلّما خرجت وحدها إلى السوق. لن يقبل بأن تسافر إلى بيروت مع خالتها. سيقول: «لا يحقّ لك أن تسافري إلاّ معي، حين أتزوّجك».

ستوافق، فعندما تعترض على شكّه في أيّ شيء، سيُذكّرها بماضيها).

* * *

هل أنا متحاملٌ على فاطمة؟

لَمَ سمحتُ له بأن يكتشف ماضيها؟

هل أقفُ بسبب ذكوريّتي إلى جانبه؟...

يبدو أنّني أهذي.

سأواصل السرد.

أريد أن أنتهي من هذا الكتاب.

سألتفتُ إلى شخصيّات أخرى.

[١]

لم تدمْ علاقة منال بإيهاب، كما دامت صداقته بابنة عمّها عَلْوَة. كان يقولُ لعَلْوَة دائمًا: «أحسُّ أنّ منال عبرت في حياتي لأعرفك». لم يظْهرْ شعوره بالغيرة يومًا على عَلوَة مع أنّ علاقتهما تطوّرت وتعلّق بها أكثر من تعلّقه بمنال.

(حين سيقابل دَيان يومًا، لن يُظهر غيرةً عليها؟ سيقول لها: «أنا لا أُحبّك، طالما لا أشعر بالغيرة عليك من رجل آخر. أقيس حبّي بالغيرة دائمًا». قال الكلام ذاته لعلوة).

سمعت عَلوَة كثيرًا عنه، قبل أن تسمع صوته للمرّة الأولى. شَهِدت وسامته من خلال صورة تحتفظ بها منال. أعطاها إيّاها في مجمّع تجاري، حيث قابلها وأختها في الرياض. علّقت عَليها: «لا يشبه السعوديين». أخبرتها منال أنّ أمّه مصريّة.

لا تهتمّ عَلوَة إن كانت أم إيهاب مصريّة أو سوريّة أو لبنانيّة أو مغربيّة. بل تسألُ ابنة عمّها دائمًا: «لمَ يتزوّج السعوديّون من عربيّات؟ لن يختلف الأمر كثيرًا عن الزواج بسعوديّة. طالما أنّهم سيستخرجون تصريحًا للزواج من أجنبيّة، فلمَ لا يتزوّجون من إيطاليات أو فرنسيّات أو إنجليزيّات أو سويسريّات كي يحسّنوا نسلهم؟». رغم ذلك لا تنكر وسامة إيهاب حين ستراه للمرّة

الأولى حقيقة! تبرّر: «ربما لعب اختلاف الجينات دورًا، ليُولد هذا الجمال».

* * *

ظهر في حياة، علوة، اليوم الثلاثاء. لم تكن تعرف عنه سوى أنّه شابّ تحبّه ابنة عمّها، ووسيم. لم تُخبرها منال إلى أيّ مدى وصلت علاقتها به. لم تكن تُبدي اهتمامًا بذلك.

يتمتّع زوجُ عَلوَة بإجازته السنويّة، في المغرب. هو يعمل في مصرف في القصيم، حيث يسكن وزوجته وأولاده. تسكنُ عائلتهما في الرياض. تنامُ منال الآن في بيت عَلوة في القصيم. هي تَدْرُس في جامعة الملك سعود (في الرياض)، تخصّص علوم طبِّيَّة. بعد سنة ستنتقل إلى الأردن لتدرس الطبّ في جامعة اليرموك. لم تعلن منال ذلك له حتى الآن. قالت فقط إنّها تأمل أن تحصل على معدّل عالٍ في عامها الدراسي الأوّل في الجامعة، يؤهّلها للتحويل من تخصّص العلوم الطبِّيَّة إلى تخصّص الطبّ.

سيختبر إيهاب غدًا، الأربعاء، في مادّة الفيزياء. يبدأ اختباره الواحدة بعد الظهر. ينتهي عند الخامسة.

يتكلّم الآن مع أوّل فتاة استحوذت على قلبه. منذ شهور قليلة، قال إنّه أحبّها. هي انتهت من اختبارات الفصل الأوّل من العام الدراسي، أمس. وصلت إلى بيت علوة اليوم.

كانت تجلس في غرفة نوم عَلوَة. تُرتّب الأخيرة خزانتها، بينما

تتكلّم منال مع إيهاب. تسأله: «هل ذاكرتَ جيّدًا»؟ يردّ عليها بغنج. باحت له مرّات أنّها تحبّ أسلوب غنجه.

ـ كيف أذاكر وأنا أفكّر فيك؟ نعم ذاكرت. لكنّي قرّرت أن آخذ فاصلاً أستمع فيه إلى صوتك.

ـ ليتك تذاكر هنا إلى جانبي. وتأكل من «الكيكة» التي صنعتها عَلوَة.

سمع صوت عَلوَة عبر هاتفه النقّال، قبل أن يكمل عبارة «يا ليت...»: «اتفضّل معانا عالكيكة».

طلب منها أن يُكلّم عَلوَة. ناولتها الهاتف. قالت بخبث: «مو من عادتي أتكلّم مع اللي أصغر منّي، بس إيش نسوّي عشان خاطر منّول».

ـ من قال إنّك كبيرة. عمرك ٢٩. هذا يعني في كل الأحوال أنّك فتاة صغيرة.

شكرته على إطرائه، لكنّها استدركت: «أنت ومنال صغار. تعيشون وهمَ الحبّ والرومانسيّة».

رفع حاجبيه. قال:

ـ أكبر دليل إنّك صغيرة، كلامك. هل تتحمّلين تبعاته؟ تعزمين على «الكيكة» ممازحة. لو كنت كبيرة لعنيت ما تقولينه.

ـ أنتَ في الرياض، وأنا عزمتك. اترك اختباراتك والحق «الكيكة».

ـ أختبر في الفيزياء الساعة الواحدة. أخرج بعد منتصف الوقت الثالثة والنصف. أركب سيّارتي وأكون في القصيم السابعة مساء كحدّ أقصى.

وافقت عَلوَة. ثم تردّدت. لكنّه تحدّاها. شرَطت أن يجلس في بيتها يومًا واحدًا فقط. فهي لا تضمن وقت عودة زوجها من سفره. منال نطّت من الفرح، قالت لها من دون خجل: «سألتقيه أخيرًا في منزل من دون خوف وقلق». ستعرفه أكثر عن قرب.

ظلّت علوة تُردّد أمام منال: «سأتحمّل ساعات عشان عيونك». قالت: «أنا الخاسرة الوحيدة في ها اللعبة. لكن، يالله نتعرّف على الولد اللي صجيتينا فيه. خلّينا نعرف إيش حبيتي في ها المصري؟». تُكايدها. «هو مصري حتى لو كان يشبه ريكي مارتين». هذا الانطباع تولد عند عَلوَة بسبب صورة إيهاب التي كانت تحتفظ بها منال.

حين وصل إلى منزلها. قالت لمنال «بياض بشرته وشعره الناعم يشيران إلى عرق غير سعودي، من طرف أبيه أو أمه. يظلّ وسيمًا أيًّا كان الأمر».

* * *

وصل عند السابعة مساء. وصفت له عَلوَة الطريق إلى المنزل عبر الخليوي، منذ دخوله القصيم. كانت معه على الخطّ. شارع بشارع. إشارة بإشارة. ما إن مرّ من أمام بيتها (الطابق الأوّل في

ڤيلا مكوّنة من طابقين)، حتى صرخت: «شفتك. سأفتح باب الڤيلا. أوقف سيّارتك بعيدًا. وتعال مشيًا». أقفلت الخطّ بعدما أكّد لها أنّه لمح يدها الظاهرة بخجل من وراء باب الڤيلا. أوقف سيّارته عند أوّل مفرق بعد الڤيلا. تأكّد من أنّ مكان الموقف لا يعود لأي ڤيلا أخرى. يعرف حتى الآن أنّ المغامرة كلّها لن تتجاوز الست ساعات.

حدّث نفسه: «ماذا لو خلعتِ البنطلون والقميص وبقيت بالملابس الداخليّة. سأقنعها بأن أخلع كل ملابسي، لو كانت هي بهذه الجرأة».

مدّ خطواته أكثر. دخل إلى المنزل. كانت علوة وراء الباب من دون عباءة. هي أجمل من منال. لا مقارنة بينهما. سيحكي لصديقه وليد أنّ جمالها هو ما يسمّيه الشبّان بـ «المَرَة».

كانت منال حكت له عن زوج ابنة عمّها الذي يسافر إلى خارج السعوديّة كثيرًا. بادر بمجرّد أن أغلقت الباب: «العرق التُّركي المخلوط بالسعودي واضح على وجهك. لكن جمالك لا يمكن تصنيفه: لا تركي ولا سعودي ولا أيّ شيء. كيف يسافر إلى المغرب ويتركك؟».

ابتسمت. قال هذه العبارة في حوش «الڤيلا». كانت منال في صالون البيت. دخلا الصالون. كانت علوَة أقفلت باب الممرّ بين الصالون والصالة. يجلس أطفالها في الصالة. قالت لهم: «عمّة منال عندها ضيفة». ابنها عبد العزيز عمره ١٢ عامًا. تقول لمنال إنّه يفهم ماذا يعني دخول رجل في غياب والده.

دخل إيهاب الصالون. وقفت منال ومدّت يدها تُصافحه. لم يكن قد نظر إلى جسدها من دون عباءة، ولا مرّة واحدة. هي نحيفة. لها مؤخّرة ممتلئة إلى حد ما، ونهدان متوسّطان «من مقاس 34 b». يفاخر دائمًا أمام الفتيات بأنّه يستطيع تخمين مقاسات أيّ فتاة في حال رآها، حتى ولو من خلف قميص أو تي شيرت. بل يزعم أنّه يقدر على تحديد المقاس حتى لفتاة تلبس عباءة.

نُحف منال وحجم مؤخّرتها ونهديها ليس أمرًا جديدًا عليه، فمنال كانت تلبس عباءات مخصّرة.

يكتم الثلاثة رغبتهم في الضحك على الموقف. ليس لأنّ إيهاب مجنون وكان عند وعده، وقطع نحو ٤٠٠ كيلومتر بين الرياض والقصيم. بل لأنّ عَلوَة تسمح للمرّة الأولى بدخول شاب، غير فهد، بيتها. كان هذا هو الوحيد الذي تسمح له بدخول البيت في غياب زوجها، فهو يحبّها ويصونها أكثر من زوجها، هكذا تقول.

اختصرت منال سبب رغبتهم في الضحك: «حسبناها مزحة». قرّرت عَلوَة أن تنسحب من الصالون إلى الصالة. ستذهب لتوضيب البيت وترتيبه. يمكنهما الآن الجلوس من دون رقيب، حتى منتصف اللّيل وقت نوم الأطفال.

سيتحدّث إيهاب ومنال كثيرًا. ستُحَضّر له العشاء. ستطعمه بيدها. سيحاول أن يلمس أصابعها بشفتيه، كلّما قرّبت لقمة الخبز المغرقة بإيدام البامية من فمه. سيُظهر تمتّعًا بالأكل غير مسبوق. سيقول إنّ سبب الصوت تلذّذه الطعام.

«امممممممم». يتأوّه أحيانًا. لا تخفي ابتسامتها حين يلامس لسانه أصابعها. تسحبها ببطء من فمه.

مضى الوقت. جلست عَلوَة معهما بعد أن نام أطفالها. اعترفت بعد ساعة واحدة من الثرثرة أنّها لم تُحبّه ولم تحبّ الفكرة، لكنّها تورّطت. الآن، ستقول: «أعجبتني. لن أسمح أن تذهب في وقت متأخّر. سأُحسّ بتأنيب الضمير لو وقع حادث في الطريق. يمكنك النوم هنا. اقض الليل مع منان. سافر حين تصحو».

علّقت منال على موافقته: «مالك لم تُصدّق خبرًا؟». قالت عَلوَة: «تكفّلي بتجهيز الطراحة والبطّانيّة والمخدّة. أنا سأنام». ابتسمت قبل أن تضيف: «لا تخربصوا كتير... حدكم بوس، لا تتجاوزوا حد السُرّة».

ضحك إيهاب. خجلت منال، ورمتها بمخدة «الأنتريه».

* * *

جلسا جنبًا إلى جنب على «الطرّاحة» التي أحضرتها. أخذا يتكلّمان مجدّدًا عن الجنون الذي أوصله إلى هنا. حديثهما لم يستمرّ أكثر من ربع ساعة. بدأ الحوار في التماوت. يسكتان لبرهة. يتكلّمان ثم يسكتان.

ـ هل أنت مجنونة مثلي؟ هل تتمرّدين على من حولك وتتصرّفين بغرابة؟

ـ جرّبني. لا تنسَ أنّني من قَبِل بوجودك والجلوس معك لوحدنا. بل من اقترح أن تبيت، وأقنع عَلوَة.

ـ فلنبدأ بأوّل اختبار. ماذا لو اقترحتُ أن تنامي إلى جانبي الليلة على الطرّاحة؟

ابتسمت. سكتت لحظة.

ـ ماذا أيضًا؟ هل هذا كل شيء؟!

ـ لا داعي للعجلة. الاختبار الثاني أن تخلعي قميصك. لو كنت تلبسين حمّالة صدر، طبعًا. أمّا لو كنت لا تلبسين ف. . .

ـ لا يهمّ إن كنت ألبس أم لا. هل هذا كل شيء؟ أخلع القميص وأنام إلى جانبك؟

ـ حتى الآن. نعم.

ـ توقّعتُ أن تطلب أكثر. لا مشكلة. أدر وجهك كي أخلع قميصي.

ابتسم. أدار وجهه. تراجع. نظر إليها وهي تهمّ بخلع القميص. قال: «سأغمض عينيّ». لم تُعلّق. لاحظت أنّه أغمض عينيه بطريقة تُمكّنه من النظر إليها. خلعت القميص لتنكشف حمّالة صدر زرقاء من «الدانتيل». تمدّدت على الطرّاحة. غطت نفسها بالبطّانية. قالت: «يمكنك أن تفتح عينيك». ابتسم. دخل معها تحت البطّانيّة. قال: «يمكنني النوم بعدما تأكّدت أنّك مجنونة مثلي». لم تُعلّق.

مثّل النوم في البداية. لم يُتقن التمثيل. تعبُ السفر والمذاكرة من الصباح، ظهرا عليه الآن. غطّ في نوم فعلاً. قاوم. لم يستطع الاستمرار في مقاومة النوم. نام.

قبل أن يبدأ بتمثيل النوم كان طلب منها أن تُسند ظهرها على ظهره، بعدما خلع قميصه. «اللحم يلتصق باللحم»، هكذا قال. احمرّت وجنتاها.

تحرّكت منال كثيرًا. حكّت ظهرها بظهره. حكّت قدمًا بقدم. لامست قدمها الباردة قدمه. أفاق فزعًا. التفت إليها. نظر في عينيها وفي حمّالة الصدر الزرقاء. ابتسمت.

ـ لقد نمتُ فعلاً. أتصدّقين أنّني نمت؟!

ابتسامتها اتّسعت. أغمضت عينيها. كان وجهها يقابل وجهه. كان يقاسمها الوسادة ذاتها، فهي لم تحضر وسادتين. بل قالت: «وسادة واحدة تكفيك. أنت ستنام وحدك، ولا نملك هنا محل وسادات».

اقترب إيهاب من وجهها أكثر بعدما أغمضت عينيها. لامس أنفه أنفها. قرّر أخيرًا أن يلمس جبينها بشفتيه. لم يُقبّلها على جبينها، لمسه بشفتيه فقط. ثم حرّكهما إلى عينها اليسرى، فإلى خدّها الأيسر.

استغرق ذلك نحو ثلاث دقائق. لم تُعلّق. نقل شفتيه إلى ذقنها. لم تبادر بأيّ ردّة فعل. رفعهما من ذقنها إلى شفتيها.

لم يأت أحدهما بحركة. لم يُقبّلها بعد. الشفاه متلاصقة، فقط. لم تأكل بعضها بعد. العيون الأربعة مغمضة...

[٢]

قطع نحو ٤٠٠ كيلومتر بسيّارته. من أجل ماذا؟ هل حصل على ما رغب فيه؟ كان يرغب في النوم معها، وهما عاريان تمامًا.

قرّرتُ ألاّ يفعل. اكتفيتُ بما وصلا إليه. يكفيه ما حصل عليه.

سيحصلان على المزيد لاحقًا.

تراجعتُ. أفكّرُ في كتابة ما حدث بعد تلك القُبلة المختلفة عن كل القُبل...

* * *

لم تخلعْ غير قميصها وبنطلونها. بقيتْ بملابسها الداخليّة. لكنّه خلع بنطلونه وما تحته. جلستْ في حضنه. مدّت يدها، لتتأكّد أنّ الوضع مناسب.

لن يخفي إعجابه بقدرتها على التحكّم بشهوتها، والحفاظ على عذريّتها. بعد شهور قليلة، لن يلومها حين يعرف أنّها ليست عذراء. ستقول إنّ زوجها سلبها عذريّتها بالقوّة.

في مرّة أخرى، حين ستخلعُ ملابسها الداخليّة، ستسمح له بأن يعرف أنّها ليست عذراء، لأنّ زوجها مُحمّد (الذي عقد قرانه عليها فقط) لم يستطع انتظار اليوم الذي يتخرّجان فيه، ويقيمان حفلة زواج.

كانت أمُّها تقول لها بعد عقدِ قرانها: «حافظي على نفسك. أعرف أنّه (محمد) زوجك شرعًا. لكن لا تسمحي له أن يأخذ أكثر من قُبلة، فربما طلّقك، قبل حفلة الزواج. اعتبريه مجرّد صديق. لو وقعت في المحظور فلن يقبل أحد الزواج منك. ستصبحين ثيّبًا».

انتهت اللّيلة الأولى. نامت إلى جانبه. لن تعرف عَلوَة، في الصباح، أيّ شيء. استمتعا كثيرًا بما فعلاه. أقنعته بأنّها لا تحبّ زوجها وستنفصل عنه. أجابها بأنّه يريد الزواج منها.

* * *

هل أكتفي بالقبلة؟ هل أكتبُ أنّ منال حملتْ منه في تلك الليلة؟ أنّه تزوّجها؟ أنّهما أنجبا ثلاثة أولاد وأربع بنات؟

مسحتُ كل شيء كتبتُه بعد القبلة. كبست على زر Delete.

انتهت الليلة بتلك القبلة. لم يتزوّجْها طبعًا. ستختفي من حياته. سيتعرّف بعدها على هتون.

تُناديني زوجتي الآن. ستلومني لو تعذّرت بالكتابة.

إيهاب يُخرِّب حياتي ويضجرني.

هل يمكن أن يفرّ؟ إلى رواية أخرى مثلاً؟

أضحك بهستيريّة. لن يفرّ إلى الحقيقة، بل إلى خيال كاتب آخر. هل يفعلها؟ هذا الخبل ناتج عن الكحول الذي أشربه بينما أكتب... ومن خطط وفصول وقوالب عن حياة إيهاب، وضعتها في رأسي قبل أن أشرعَ في الكتابة؟

طاحونة الرواية تطحن...

* * *

بعد أن تسافر منال إلى الأردن سيروي إيهاب لعلوة عن كل المرّات. ماذا فعل ومنال في بيت صديقه. حين فعلا ما فعلاه في بيتها (عَلوَة). سيضحكُ إيهاب وعلوة دائمًا، وسيذكّران بعضهما بما حدث في المرّة التي نام فيها عندهم:

كان إيهاب أغلق هاتفه النقّال طيلة اليومين اللذين مكثهما في بيت عَلوَة. (هو لم يسافر يوم الخميس. بقي للجمعة). أغلق هاتفه كي لا يتورّط مع أحد أصدقائه. فهؤلاء قد يطلبون مقابلته في أيّ لحظة. لن يقبلوا أعذاره. قد يجيئون إلى غرفته للمذاكرة. لا يريد أن يعرف أحد أنّه في القصيم. لا يريد أن يحكي أصدقاؤه كثيرًا بين بعضهم بعضًا أنّه ينام مع فتاة في بيت ابنة عمّها. سيحسدانه. هو يخاف من الحسد. حذّرته أمّه كثيرًا منه. علّمته ألاّ يحكي عن نفسه كثيرًا. ألاّ يتفاخر أمام أصدقائه عن درجاته. لكنّه سيحكي ما يشاء حين سيعود. لن يحفظ سرّه. سيحكي تحديدًا عمّا حدث له.

طلبت منه عَلوة أن يبيت يوم الخميس أيضًا. لن تسمح له بالسفر في الليل (العذرُ ذاته). وعدتُه أن توافق على سفره يوم الجمعة. قالت: «لا تقلق. سأطردك عصرًا، إن لم تسافر».

سيسافر الجمعة. سيختبر يوم الأحد في مادّة الكيمياء. سيرفض أيّ عرض مغر يشبه العرضين اللذين قدّمتهما عَلوَة ومنال يومي الأربعاء والخميس. لن يقبل الجلوس ساعة أخرى، فهو لم يقرأ كلمة واحدة من منهج الكيمياء.

بعد منتصف ليل الخميس، أخبرهما أنّه سيسافر حين يستيقظ.

استيقظ مساء الجمعة عند الخامسة. فتح هاتفه النقّال. كان زميله في الغرفة وليد، أرسل رسالة قصيرة: «اتّصل عليّ للضرورة. الدنيا مقلوبة عليك في الدمّام. أنا حَ أجنّ من اتصالات أمّك؟».

«هل يمكن أن يكون والده مات؟». وصلت للتوّ رسالة أخرى من ابن خاله: «هل أنت بخير... أمّك تبكي. اتصل عليها أرجوك».

اتصل بزميله في الغرفة، في الرياض. قال وليد: «اتصل ضابط في أحد مراكز شرطة القصيم بمنزلكم في الدمّام. سيّارتك عندهم».

قبل أن يُكمل وليد كلامه، اتصلت فاتنة. انتقل إلى مكالمتها. قال لها إنّه كان يُعزّي صديقه في القصيم. لم يحمل شاحن الهاتف معه. حاول أن يهدّئ من روعها، كي يعرف منها ما قاله الضابط بالتفصيل.

روثُ ما حصل بعدما قالت: «لا يهمّ ما قاله الضابط. المهمّ أنّك بخير».

* * *

عاشت حياة قصيرة مع والده. لم تنجب منه غير إيهاب. أنجبت أربع بناتٍ بعدما تزوّجت رجلاً آخر. أكل السلّ رئته - زوج أمّه (هل كان سينجب أخًا لإيهاب، لو لم يمت؟). قطعت فاتنة عهدًا على نفسها. أن يكون ابنها الوحيد طبيبًا. تُريد رفع رأسها أمام أعمامه وأبيه. لم تتزوّج بعد موت زوجها الثاني. ترك لها بناية. تصرفُ بها على بناته. تعمل خيّاطة كي تصرف على إيهاب. تُرسل إليه ألفي ريال كل شهر. يضيفهما إلى ألف ريال يحصل عليه من الجامعة. تدفع منذ عام ثمن سيارته: ١٢٠٠ ريال كل شهر. الأقساط مقسّمة على ثلاث سنوات. طلبت منه مرارًا ألاّ يأخذ ريالاً واحدًا من والده. لم ترده أن يطلب منه حتى. لم يُفكّر والد إيهاب يومًا في أن يرسل إليه أيّ مال. انشغل بعمله والسفر. لم يتزوّج بعد فاتنة.

اتصل بها ضابط يوم الخميس عند التاسعة صباحًا.

تُفيق فاتنة مع صلاة الفجر، كل يوم. تعملُ الأربعاء والخميس، تحديدًا، من الساعة السابعة صباحًا وحتى الثامنة مساءً. تُقام حفلات الزفاف في هذين اليومين. وتُقام الحفلات كل يوم في أيّام العطل السنويّة.

كانت الاختبارات انتهت في معظم الجامعات والمدارس.

إيهاب سيدخل آخر اختباراته لنصف العام الدراسي يوم الأحد المقبل.

تسأله فاتنة عن مواعيد جدول اختباراته دائمًا. تنشغلُ فترة الاختبارات بتجهيز الطلبات المتزايدة. ينشغل بالها أيضًا على اختبارات إيهاب.

تنشغل اليوم الخميس بإتمام خياطة ثمانية فساتين لبعض النسوة. هنّ قلقات كعادة كل زبوناتها اللاتي سيستلمن فساتينهنّ في يوم الحفلة ذاته. الزبونات اتّصلن بها أمس لتأكيد الموعد.

تعلم أنّ هؤلاء النسوة لا يشغلهنّ ثمن القماش المكلف ولا ثمن الخياطة، بقدر ما يشغلهنّ استلام الفستان وحضور الحفلة. تطمئنهنّ دائمًا. لم تتأخّر يومًا عن موعد زبونة في حياتها. رغم ذلك تتقن عملها. تقبل خياطة فساتين لزبوناتها الدائمات، في آخر لحظة. يُساعدنها في جلب زبونات جديدات. صيت إتقانها وانضباط مواعيدها ينتشران عبرهنّ.

سمعتْ رنين الهاتف الثابت. كانتْ تُصلّي الضحى. ثلاثة اتصالات متتالية. لا ينقطع الرنين، سوى للحظات. تناولت السمّاعة بمجرّد أن سلّمت. لم تخلع «شرشف الصلاة بعد».

سألها الضابط: إن كان هذا منزل إيهاب؟ عرّفها بنفسه وباسم مركز الشرطة الذي يتحدّث منه في القصيم. ردّت إيجابًا. ارتعدت. قال لها إنّ سيّارة إيهاب عندهم، قبل أن تسأله. لم

تتمالك نفسها. فالمفترض أنّ ابنها يؤدّي اختباراته في الرياض، «ما الذي أوصل سيّارته إلى القصيم؟ أين هو الآن؟».

تُحذّر فاتنة ابنها دائمًا. لا توصيه سوى بثلاث: الصلاة، المذاكرة، والابتعاد من إثارة المشكلات خصوصًا التي قد توصله إلى الشرطة. تقول: «احنا على قد حالنا. ما عندنا واسطات. لا تحطّني وتحطّ نفسك في مواقف ما نقدر عليها». هي لا تتضايق من مكالماته الكثيرة ومغازلته. لم تؤنّبه يومًا على فاتورة نقّاله التي تصل إلى ألف ريال كل شهر. لكنّها تخاف من الشرطة. ترتعد منها.

سألت الضابط: «هل الموقف كبير؟ هل يستدعي أن أتصل بأحد؟ أو أن يسافر والده إليكم؟». طمأنها. لكنّها لم تهدأ.

أغلقت الخطّ. أخذت تلطم خدّيها. اتصلت على هاتف إيهاب النقّال. مُقفل طبعًا. اتصلت أكثر من مئة مرّة. استيقظت ابنتها الكبرى، على صوت بكائها. سألتها. لم تجب فاتنة بحرف واحد. قامت من مكانها. دخلت غرف المنزل غرفة غرفة. تخرج من غرفة لتدخل أخرى.

لا تزال الفساتين تنتظر. ستصل أوّل زبونة بعد صلاة الظهر. ستأتي الزبونات الثماني على التوالي. كانت حدّدت مواعيد الاستلام. بين كل زبونة وزبونة ساعة. هي قصّت الأقمشة. خاطت معظمها. لكنّ اللمسات الأخيرة على الفساتين الثمانية لم تكتمل. من دون هذه اللمسات لن تلبس زبونة واحدة فستانها.

طلبت من أخته أن تتصل به. ألاّ تتوقّف عن الاتصال. لم تعرف ما تصنع. قالت لابنتها: «والده سيعايرني. سيقول إنّ ابن الحرام ذهب إلى المكان المناسب له». كان يذكّرها كلّما كلّمته: «مَصيرهُ السجن».

احتضنتها ابنتها. بكت معها. صحت الفتيات الثلاث. أبكاهنّ المشهد. كل واحدة منهنّ دخلت غرفة وصارت تبكي. سمعن والدتهنّ تبكي وتقول: «إيهاب راح. خليَتْ الدنيا به. راح. بلا أخو. بلا أبو. وينك يا وليدي».

ابنتها الصغرى (٦ سنوات)، لم تفهم. بكت مع أخواتها رغم أنّها لم تفهم السبب. طلبتْ فاتنة من الكبرى أن تجرّب. ألاّ تتوقّف. صلّتْ ركعتين. جلستْ تدعو وتقرأ القرآن. بعد كل صفحة تسأل: رد؟ لا تجيب ابنتها على سؤالها. فلا تزال تتصل. الهاتف مغلق. تتصل.

تعود فاتنة لتُصلّي ركعتين. تقرأ القرآن. قرأت سورة ياسين مئة مرّة. قرأت آية: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾. قرأتها ألف مرّة. دعت الله أن يردّ إليها ولدها الوحيد. سبّحت باسم الله ألف مرة. استغفرته ألف مرة. قالت: «اللّهمّ إنّي لا أسألك ردّ القضاء ولكنّي أسألك اللطف فيه»، ألف مرّة.

سينقضي يوم الخميس. لن تُسلم الفساتين الثمانية. لن تخيط النساء الثماني عندها مرّة أخرى. ستدفعُ لهنّ حقّ القماش. ستدفع كثيرًا. سيبُعدن عنها زبونات كثيرات. لن تؤنّب إيهاب. بل

لن تروي له ذلك. ستقول لابنتها: «طزّ في الفلوس. المهمّ إنو رجع».

هو ردّ يوم الجمعة. لم تنم فاتنة من الخميس إلى الجمعة سوى ساعة. رأت في هذه الساعة كوابيس مزعجة. صحتْ أكثر من خمس مرّات في ساعة نوم واحدة. عادت إلى قرآنها وصلواتها، إلى أن ردّ يوم الجمعة.

[٣]

خافت عَلوَة. حلّلت: ربما رآك جارنا الذي يسكن في الطابق الثاني تدخلُ إلى البيت. ربما كان لزوجي دور في هذه التمثيليّة.

قالت لمنال وإيهاب: «لا بدّ من أنّه في الطائرة الآن. سيصل في أيّ لحظة. جارنا الملقوف أبلغه بكل شيء. تبرّع بالاتصال بالشرطة».

حاول أن يُهدّئ روعها. أن يُقنعها بأنّ علي لم يعرف. هو يسأل: «ماذا أفعل؟ هل يحبسونني لأنّي بتُّ في بيت معكما؟ ماذا سيعتبرونه؟ اغتصابًا أم خلوة؟». علوة نبّهته بأنّ زوجها لئيم. قالت إنّه سيُكبّر القصّة. سيُجبرهما على أن يعترفا عليه. أن يقولا إنّه دخل البيت عُنوة. واحتجزهما فيه يومين. لن يفوّت الفرصة من دون أن ينتقم. كان يشكّ بها دائمًا.

تداولوا احتمالات كثيرة. «احتفظوا بالسيّارة لأنّ النظام يمنعهم دخول أو اقتحام منزل محرمُه غير موجود. كلّم زوج علوة الضابط. نسّق معه. هل يهرب إيهاب ويترك سيّارته؟ هل يقول إنّها سرقت»؟!

جلستا أمامه على الأريكة. عَلوَة تحلّل ومنال ساكتة. ينظرُ

إيهاب إليهما. خطرت له فكرة. اتصل بأحد أصدقائه في القصيم. سلطان ابن حارته في الدمّام. يعمل مُعلّمًا في إحدى مدارس القصيم الإبتدائيّة. قال له إنّه بات ثلاثة أيّام عند صديقتيه. وإنّ سيّارته في الشرطة. شرح أنّه لا يعرف سبب احتفاظ الشرطة بسيّارته. اتفق معه على أن يجيء إلى بيت عَلوَة ليُقلّه.

سيقولان للشرطة إنّه جاء كي يقضي ثلاثة أيّام مع سلطان. وإنّ خالة إيهاب أرسلت غرضًا (قماشًا) لعَلوَة ومنال. وأوّل ما فعله في الرياض إيصال الغرض لبيت عَلوَة، حيث جاء سلطان واقترح أن يوقف إيهاب سيّارته هنا، طالما لا يعرف القصيم جيّدًا. ظلّت السيّارة يومين عند بيت عَلوَة، وحين عادا لم يجداها. صدف أن اتّصل على أمّه فأبلغته بأنّ مركز الشرطة «الفلاني» اتصلوا.

اتّفقا. وصفت عَلوَة البيت لسلطان، عبر هاتف إيهاب النقّال. لم تمض نصف ساعة إلاّ وكان وصل ليقلّ إيهاب. نبّه إيهاب عَلوَة ومنال ألاّ يخطئا في سرد القصّة. قال لهما لا تقولا إنّكما تعرفان بأمر السيّارة. كل ما تعرفانه هو أنّني أعطيتكما القماش. علوة ستتصل بصديقة لها في الرياض. سيتّفقان معها على كل شيء. على أنّها خالة إيهاب التي أرسلت إليهما غرضًا. أكّد إيهاب لهما أنّ الشرطة لن تستجوبهما إلاّ إذا قبل زوج علوة. وأنّ هذا الأخير لن يقبل. ظنّوا أن الأمور ستحلّ بهذه الطريقة.

* * *

وصل الشابّان مركز الشرطة. قفز بسرعة. لا يريد أن يضيع

الوقت، فاختبار الكيمياء يوم الأحد ولم يفتح صفحة حتى الآن.

رغم ذلك فهو لا يستطيع منع خفقان قلبه السريع. جرّ وراءه سلطان الذي لا يعرف إلى أين ستصل المشكلة، ويخشى من اتهامه بتهمة شهادة الزور.

رأى سيّارته واقفة في حجز الشرطة. سأل الجندي عند الباب: «سيّارتي محجوزة ولا أعرف السبب». دلّه على ضابط الخفر. هذا الأخير لم يكن يعلم بأمر سيّارة إيهاب. سأله:

ـ ماذا فعلت كي يحجزوا سيّارتك؟

ـ لم أفعل شيئًا. أوقفتها في حارة. في موقف للسيّارات إلى جانب أحد المنازل، ليومين. اتصل ضابط من هذا المركز بأهلي وخبّرهم أنّ سيّارتي عندهم.

سأله عن اسم الضابط. كانت فاتنة أخبرته باسمه. اتصل ضابط الخفر به. لم يكن سيتصل، قال لإيهاب: «عد إلينا في الصباح». لكن إيهاب حكى له عن اختباره النصفي في مادّة الكيمياء غدًا في الرياض. أخرج له بطاقة الجامعة. طلب ضابط الخفر من إيهاب وسلطان أن ينتظرا خارج المكتب. بعد ربع ساعة تقريبًا نادى عليهما. سأل إيهاب:

ـ صاحب المنزل الذي أوقفت سيّارتك عنده، اتصل بالمركز. قال إنّ في سيارتك على مقعد الراكب لوحة سيّارة أرقامها تختلف عن أرقام سيّارتك. ذهبت دوريّة. فتحت سيّارتك. أحضرتها إلى

هنا. اكتشفوا أنّ هذه اللوحة مسروقة وأنّ من سرقها ارتكب جريمة اغتصاب بصبي!

بالنسبة لإيهاب وسلطان الأمر أسهل بكثير من لو كان زوج عَلوَة من أبلغ عنه وطلب منهم أن يمسكوه إلى هذه اللحظة. شرح إيهاب سبب غيابه يومين وبرّره باقتراح سلطان. أمّا اللوحة فقال إنّه وجدها في الشارع يوم الثلاثاء الماضي وكان يريد تسليمها إلى الشرطة بعد اختباره يوم الأربعاء، لكنّه اضطر إلى السفر إلى الرياض فأجّل إبلاغ الشرطة إلى يوم آخر.

كان وجد هذه اللوحة قبل شهر ولم يُنزلها من سيّارته. أراد إهداءها إلى صديقه بندر الذي يُحبّ تجميع لوحات الإرشادات المروريّة ولوحات أسماء الشوارع. أحبّ إيهاب أن يهديه هديّة ثمينة، لوحة سيّارة. فكانت النتيجة أن عاش هو وعَلوَة ومنال وسلطان في رعب لساعات. عاشت أمّه فاتنة لحظات فقدان ولدها الوحيد ليوم كامل. اقتنعت لاحقًا أنّ قراءتها القرآن وأدعيتها هي من ردّت لها ولدها. لن تسأله في حياتها عمّا حدث وعن هذا العزاء الموهوم. بعدما اطمأنّت عليه، طلبت منه طلبًا وحيدًا، ألاّ يغلق هاتفه المحمول مهما كان السبب.

* * *

بعد تينك الليلتين اللتين قضاهما إيهاب مع منال، التقاها في الرياض. أقلّها من المطار إلى منزل صديقه. عاد بها إلى المطار مرّة أخرى، حيث سيأتي أخوها ليُقلّها إلى البيت.

في هذه المرّة اكتشف أنّها ليست عذراء. لم تقدر على إخفاء السرّ. باحت له من دون أن يسألها، قبل أن تركب معه السيّارة. كانا اتّفقا على كل شيء. اتّفقا على ماذا سيفعلان في بيت صديقه. اقترحت: «هل تترك كل الفتيات اللاتي تعرفهنّ، لو وفّرت لك ما تجده عندهنّ». هو كذب عليها. قال إنّه يعرف فتيات كثيرات. ينام معهنّ. لكنّه لا يحبّهن. لم يكن يعرف غيرها. قال من دون تردّد: «طبعًا يا حبيبتي. أنا أحبّك وسنتزوج بمجرّد حصولك على الطلاق».

لم يكن يكذب. كانت منال أوّل بنت يحبّها. سيكتشف لاحقًا أنّ حبّه هذا يختلف عن حبّ هتون، وعن حبّ فاطمة وحبّ دَيَان، وأخيرًا حبّ دنيا.

وصلت إلى الرياض. كان ينتظرها في المطار. وصلت عند الخامسة مساء. قالت لأهلها ستصلُ عند العاشرة. ستذهب مع

إيهاب إلى بيت صديقه، وستتصل بأخيها وهي في طريق العودة إلى المطار.

الآن هما معًا في الغرفة. كان رتّب نفسه وأحضر واقيات. هي صاحبة حيل. قالت له عليك أن تثيرني حتى لا أمنعك. مدّ يده بينما كان يقبّلها.

كانت هذه المرّة الأولى له مع فتاة يشعر أنّه يحبّها وتحبّه. جرّب قبل ذلك مع مومسات في «ساحة المرجة» في سورية وفي فنادق البحرين. جرّب مع جارتهم التي تكبره بعشر سنوات. لكن، لم يكن للحبّ مكان في تلك التجارب. الآن يختلف الأمر. باح بذلك لها. إنّه مختلف.

لاحقًا مع فاطمة سيذوق معنى وطعمًا آخر. سيشعر أنّه أحلى. سيهيم به.

لكنّ الآن، داخل غرفة صديقه امتزج الخيال بالواقع. أخيرًا يشعر بطعم مختلف. سيعرف الحدّ الفاصل. سيدركه أكثر مع فاطمة وسيتذكّر هذه المرّة. سيعرف الانفعالات والأصوات ونشوة الوجه. لم يتسنّ له معرفة ذلك مع منال. ستختفي بسهولة من حياته. لكن فاطمة ستبقى طويلاً.

ينظر إلى وجه منال المستمتع والغارق في النشوة. لن ينسى ما يراه الآن على وجهها، إلاّ بعد أن يعرف فاطمة.

لن يشعر بهذه النشوة مع هتون التي تعلّمت كل شيء، حتّى

القبل، على يديه. سيرى النشوة على وجه فاطمة مرّات ومرّات ومرّات.

* * *

لم تستمرّ علاقتهما طويلاً. سافرت إلى الأردن. انتهى كل شيء بينه وبينها. اكتشف عن طريق علوة أنّها تعرّفت على شاب كويتي. عرف أنّها أرادت مرّة أن تستغلّه وتجعله يرسل لها مبلغًا كبيرًا من المال. لم تُفلح في الاحتيال عليه. اكتشف لعبتها عن طريق زميلتها البحرينيّة التي تسكن معها في الشقّة ذاتها.

انتهت هذه العلاقة لتبدأ أخرى. مع عَلوَة. صداقة لا تنتهي. ستدوم فترة طويلة. لن يحدث بينه وبينها شيء. لن يقبّلها حتى. لن يعترف أنّه يحبّها. هو لم يقل إنّه يحبّها. هي لم تقل أيضًا. ستكون مجرّد صديقة. سيكون مجرّد صديق. هي أحبّته لكنّها تعرف أنّه يصغرها بعشر سنوات. وتعرف أنّها متزوّجة وعندها أولاد وبنات. سيقول لها دائمًا: «أنتِ مرشدتي الروحيّة». ستنصحه في علاقاته مع فاطمة وهتون ودنيا. لن يسمح لها أن تتدخّل في علاقته مع دَيَان. هذه لبنانيّة والثلاث الأخريات سعوديّات.

تعتبر علوة أنّ هدف كل غير سعوديّة تودّ الارتباط بسعودي، ماله. قالت ذلك له أكثر من مرّة. لكنّه يغضب. هذا رأيها بشأن دَيَان وأحيانًا بشأن فاطمة لأنّ أمّها وخالتها لبنانيّتان. كان لا يحبّ رأيها بغير السعوديّات. حاول مرارًا أن يُقنعها أنّ دَيَان

وفاطمة غير. عَلوَة لم تقتنع. بات يرفض النقاش معها عنهما.

لن يقف تدخّلها في حياته عند حدّ «النصائح» في علاقاته العاطفيّة المستقبليّة. ستُقنعه بأمر سيظلّ عالقًا في حياته. لن ينسى أبدًا تلك المزحة التي تحوّلت إلى حقيقة.

لن ينسى أبدًا أنّه تحول إلى «جيغولومان»، رجل مومس، ينام مع الفتيات بمقابل ماديّ. سينام مع أربع سعوديّات. كل واحدة منهنّ ستدفعُ له ألفَ دولار. لم يتخيّل لا هو ولا عَلوَة أنّ المزحة ستتحوّل حقيقة.

[٤]

«جيغولومان»، هو الاسم المستعار (nickname) الذي أطلقه إيهاب على نفسه في غرف الدردشة (الشات). جاءته الفكرة في لحظة ملل.

الساعة الآن الثانية صباحًا. سيُغلق موظّف المقهى بابه. يُمكن للزبائن الجلوس في المحل إلى أن يخرج الناس من صلاة الفجر. سيُفتح الباب ليخرج من بقي من الزبائن، بعد صلاة الفجر بساعة على الأقل. لا تسمح الشرطة لمقاهي الإنترنت في الرياض بالعمل بعد الثانية صباحًا.

موعد أوّل محاضرة عند الواحدة ظهرًا. كان يتنقّل بين مواقع دردشة عدّة: «علي بابا»، «القلوب»، «دلّوع»... كان إذا ملّ تلك المواقع بحث في «جوجل» عن مواقع عربيّة أخرى للدردشة. يبحث عن مواقع يتواجد فيها الخليجيّون. الفتيات الخليجيّات تحديدًا، والسعوديّات على وجه الخصوص. بعد سفر منال إلى الأردن، شعر بأنّه وحيد. في حاجة إلى أنثى. هو ليس حزينًا، في هذه اللحظات. كان اقتنع أنّها «استغلاليّة». مرّ على سفرها نحو ستة أشهر.

توطّدت علاقته بعَلوَة. كانت تحدّثه كثيرًا عن فهد. تحكي له ما يحدث بينهما. ينصحها رغم أنّه أصغر منها.

كل ما يشعر به أنّه في حاجة إلى أخرى. يبحث في مواقع الدردشة. يبحث ويبحث. جرّب طرقًا كثيرة. تحدّث كمثقّف، كرومانسي، كشابّ مجنون. كانت تصيب أحيانًا.

يعلّق فتاة للحظات أو أيّام، لكن سرعان ما ينتهي كل شيء. يظلّ في غرف الدردشة ساعات من دون نتيجة. حين ينجح مع فتاة، يطلب منها بريدها الإلكتروني على الهوتميل (hotmail)، الماسنجر، الذي يمكنه الحديث معها كلّما كانت موجودة على الخطّ.

في هذا اليوم، حين قرّر أن يجلس إلى ما بعد صلاة الفجر، كان ملّ لعبة «التشبيك»، كما سيقول لعلوة. أراد أن يُجرّب شيئًا آخر.

خطر في ذهنه فيلم أميركي شاهده قبل أسابيع. فيلم «الجيغولومان». الرجل الذي يمارس الجنس مع النساء بمقابل. علوة ستسأله كيف خطرت الفكرة في رأسه. سيبرّر: «بعض الفتيات السعوديّات في حاجة إلى «جيغولومان». يقلقن من الشبّان السعوديين. يخفن من أن تُوزّع أرقام هواتفهم المحمولة بين شبّان كثر. فليس صعبًا أن يعرف أحد اسم عائلة الفتاة عن طريق أرقام خليويتهنّ. يحتاج الشاب فقط إلى صديق مقرّب يعمل في الاتصالات. يُعطيه الرقم فيكشف له على جهاز الكومبيوتر الاسم الثلاثي لصاحب الرقم. هذا كل شيء».

في تلك الفترة لم تكن البطاقات مسبوقة الدفع وصلت إلى السعوديّة. دفعه أيضًا إلى الفكرة كلام علوة له بشأن عدم قبول الفتيات الزواج مع من خرجن معه. قالت: «معظم الفتيات لم يخطّطن يومًا للزواج من شابّ كنّ معه على علاقة. العلاقة بالنسبة إليهنّ للتسلية فقط. لا يصدّقن أنّ الشابّ سيقبل بفتاة تعرّف عليها قبل الزواج».

ظنّ إيهاب وعلوة أنّ «العذراوات سيدفعن أكثر. فكثيرات سيبحثن عن متعة التجربة ويخشين من أن يتهوّر شاب معهنّ. ويضيع مستقبلهنّ في لحظة شهوة». تساءلا: «ماذا لو تيسّر لفتاة من ينفّذ طلباتها؟ يقوم لها بكل ما ترغب فيه مقابل أن تدفع مبلغًا، من دون أن تخشى شيئًا على نفسها. إذا أمّن العقوبة لن يخفن من شيء. لن يكتشف أزواجهنّ بعد الزواج ما فعلن. لو سنحت للفتاة فرصة، فلن تتردّد. خصوصًا الفتيات اللاتي يملكن الكثير من المال».

أقنع نفسه في ذلك اليوم. (ستقنعه علوة أكثر بالفكرة حين سيحكي لها). ستؤكّد له أنّ كل ما فكّر به واستنتجه صحيح. اختار «الجيغولومان» اسمًا مستعارًا.

انطلق في غرف الدردشة وراح يلصق العبارات: «سيّدتي... آنستي السعوديّة... الآن يتوافر الجيغولومان في السعوديّة... يمكنك إشباع رغبتك الجنسيّة من دون فضّ البكارة... الرجاء عدم الدخول إلاّ للجادّات فقط».

دردش مع كثيرات. لم يجذب الإعلان الفتيات فقط. جذب

الشبّان الذين زعموا أنّهنّ فتيات. كان إيهاب يتحدّث مع الجميع، حتى لو شكّ أنّ الآخر رجل، لا يمانع في الإجابة عن كل الأسئلة. كلّما تحدّث مع أحد، تعلّم من أخطائه. كان لا يكرّر ما يُنفّر فتاة. يتعلّم من كل محادثة يُجريها.

حين يصل الأمر إلى الجدّ، يطلب إجابة على سؤال بعينه، مبرّرًا أنّ هذا السؤال هو الذي يثبت إن كان الطرف الآخر فتاة أم شاب. كانت إجابة سؤاله بسيطة على الفتيات فقط، لكنّها صعبة على الشبّان. سؤاله ببساطة: ما قياس حمّالة الصدر؟ كان ينتظر الإجابة كاملة: ٣٢ أو ٣٤ أو ٣٦ أو ٣٨ (المحيط)، a أو b أو c (الحجم). يرفض إيهاب استكمال أيّ محادثة مع من لا يجيبه إجابة من شطرين: رقم وحرف.

لم تنتظر كل الفتيات أن يلصق إيهاب الإعلان كي يبدأن محادثة معه. بعضهنّ يبدأن حديثًا للسؤال عن معنى الاسم المستعار. يجيب عليهنّ. يشرح. رغم ذلك كان يبدي انشغاله دائمًا بمحادثات أخرى. تبقى الأسئلة هي القاسم المشترك في كل المحادثات: «أوه... هل هذا موجود في السعوديّة؟ كيف يمكن الحصول عليه؟ ما الذي يضمن لي أنّك لست شابًا تحاول الإيقاع بالفتيات؟ ماذا يضمن بقاء البكارة؟ كم المبلغ ومن يوفّر المكان؟ هل يجيء إلى الرياض، جدّة، الدمّام، أبها...؟ ماذا لو لم يُعجبني شكله؟ كم شابًا تملكون؟ هل يمكنني الاختيار؟ ما طريقة الدفع؟»...

يبقى اللّعن قاسمًا مشتركًا في محادثات أخرى: «لعنك الله يا

فاسد. أدخلك جهنّم مع الكفّار. الله يحرقك بناره. ما عندك أخوات يا ملعون؟... جيبه لأمّك وبناتك وأخواتك. يا ملعون يا ديّوس يا عدو الله... أنت في بلاد الطهر يا عاهر»...

تظهر أحيانًا عبارات مختلفة، في محادثات من نوع آخر: «هداك الله. استغفر. عد إلى صوابك. الله يشفيك. تُب إلى الله»...

* * *

أعجبت فكرة «الجيغولومان» عَلوَة. قرّرت أن تشارك في اللعبة. فهاتفها المحمول مسجّل باسم السائق.

قالت له: «حين تتأكّد من أنّها فتاة، أعطها رقمي، فلو سمعت صوت أنثى ستشعر بالطمأنينة أكثر».

استفاد إيهاب من ذلك. كان يُعرّف نفسه باسم رنا. يقول إنّه فتاة تعمل لحساب «الجيغولومان».

ظنّ هو وعلوة أنّهما «سيكسبان بهذه الطريقة فتيات أكثر».

وزّع رقم عَلوَة على كثيرين في النت كانوا أرادوا الاستفادة من خدمة «الجيغولومان».

اجتاز كلّهم اختبار قياس حمّالة الصدر. لكن نصفهم كانوا شبّانًا، أرادوا أن يتعرّفوا على رنا التي تعرض الـ «جيغولومان».

بعضهم حاول إقناع عَلوَة بأنّه سيدفع كثيرًا. لكن نصيبه كان إقفال الخط.

إحدى عشرة فتاة، كنّ حصيلة دردشة يوميّة، لمدّة أسبوع، بعد تخطيط وتجريب دام أسبوعًا آخر.

كان إيهاب يدخل مواقع الدردشة عند العاشرة ويخرج عند الثانية صباحًا. كان تمرّس بأسلوب الإقناع، بعد أسبوع تجارب فاشلة.

اعتبرت ستّ فتيات أنّ المبلغ (٣٠٠٠ ريال لثلاث ساعات) كبير. طلبت الفتيات التخفيض، لكن عَلوَة كانت تُصرّ. تقول «إنّ هذا المبلغ مخفّض، وهو للمرّة الأولى فقط. في حين أنّه سيصل إلى خمسة آلاف ريال بعدما يُجرّبن طعم «الجيغولومان». فطعمه لا يفوّت. وهذا المبلغ يعدّ قليلاً أمام المتعة التي سيحصلن عليها».

فتاة واحدة لم تناقش المبلغ وأكّدت أنّها ستدفع الدبل لو أمتعها كما تتصوّر. قالت: «لديّ من الشبّان ما يكفيني، لكنّي أريد أن أجرّب مُنتجكم»! حاولت الأربع الأخريات المفاصلة في السعر، لكن إصرار عَلوَة كان حسم الأمر.

تحوّلت «المزحة» إلى جدّ. وعلى رغم أنّ إيهاب صاحب الفكرة، فلم يصدّق عَلوَة حين اتصلت لتخبره عن أوّل موعد.

تردّد كثيرًا قبل أن يأخذ قرارًا. قال إنّها كانت فكرة في لحظة ملل. ردّت عليه: «لن تخسر شيئًا. لن يكون كمينًا. لا تخف. لم يمض أسبوع واحد على إعلانك عن المنتج».

ضحكت قبل أن تستطرد: «لا تفسد المتعة. أنت صاحب

الفكرة. جرّب لن تخسر شيئًا. ستدفع الفتاة ثلاثة آلاف ريال. جرّب فعلها بمقابل».

لم يمض يومان على تحديد الموعد الأوّل. حدّدت عَلوَة موعدين آخرين. ستحدّد ثلاثة مواعيد أخرى بعد أربعة أيّام. كان بين الموعد والموعد سبعة أيّام على الأقلّ. الموعد الأوّل كان يوم أربعاء. والثاني كان الخميس التالي. ستكون المواعيد الثلاثة الأخرى تواليًا: أربعاء فخميس فأربعاء.

قرّرت أن يكون فارق زمني، كي تشعر الفتيات بأنّ من سيدفعن عليه مطلوب. برّرت ذلك له.

* * *

الفتاة الأولى، تهاني. عمرها ٢٩ عامًا. تسكن الرياض. ستقلّه من المطار كما اتّفقت معها عَلوَة. «فهو سيصل الرياض في يوم الموعد ذاته، قادمًا من جدّة».

إيهاب كان في الرياض، لكن عَلوَة تلاعبت لتُضفي على الأمر حبكة. تهاني قالت إنّها مطلّقة (سيظهر لاحقًا أنّها متزوّجة). لم تُمارس الحبّ منذ خمس سنوات. زوجها يعيش في مدينة أخرى ومع زوجة أخرى!

الفتاة الثانية، نوال. ٢٤ عامًا. تسكن الرياض أيضًا. طلبت أن يتّصل بها بمجرّد وصوله الرياض. سيُقلّها من إحدى المجمّعات التجاريّة. ستصف له المجمّع عبر الهاتف المحمول. هي متزوّجة (لم تخجل من ذلك). تريد أن تمارس «فمويًّا» فقط. فهي لم تجرب ذلك في حياتها مع زوجها.

الثالثة، نهى. عمرها ١٨ عامًا. تسكن في جدّة. سيُقلّه سائقها من مطار جدّة. قالت إنّها ستدفع ٦ آلاف ريال لو شعرت معه بمتعة تختلف عن الرجال الآخرين الذين جرّبت معهم. قالت إنّها عذراء. هي فعلاً كذلك. لم ترغب بغير المداعبات.

كانت الرابعة هي صوفي. عمرها ٣٥ عامًا. تسكن جدّة. قالت إنّها أرملة (سيعرف إيهاب لاحقًا أنّها متزوّجة هي الأخرى). تريد أن تفعل ما لم يقبل زوجها أن يفعل معها. لم تحدّد. سيكتشف لاحقًا طلبها. ستقلّه مع سائقها إلى شاليه في أحد مجمّعات الشاليهات في جدّة.

الخامسة، كانت ديما. عمرها ٢١ عامًا. تسكن في الدمّام. مسقط رأسه. قالت إنّ زوجها يدرس في أميركا. هي تشعر بشبق منذ سنتين. ستُقلّه من مطار الدمّام مع سائقها. سيكتشف أنّ زوجها (ابن عمّها)، ليس وسيمًا، ويسافر إلى البحرين دائمًا. أرادت أن تخونه كما يخونها مع «الروسيّات».

[٥]

أجلسُ في شاليه في «فاريّا» ـ في عيون السيمان تحديدًا ـ في لبنان، على أريكة أمام المدفأة.

اليوم هو الاثنين الـ ١٤ من نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٥. وصلتُ إلى لبنان قبل يومين (السبت، الخامسة مساءً). خرج سامر، الشاب السوري (الناطور)، من الشاليه، قبل لحظة فقط. كان يهتمّ بالنار، فأنا لا أحسن التعامل مع الحطب والمدفأة. الساعة الآن الخامسة مساءً بتوقيت لبنان. كنتُ وضعت أمتعتي في غرفة نوم الشاليه عند الثالثة ظهرًا. لم أحمل شيئًا من الشنط. حملها سمير وسامر.

سمير السائق الذي أقلّني من فندق البورتميليو في الكسليك، إلى فاريّا.

كنتُ قرّرت، وأنا في السعوديّة، أن أنزل في جونيه كي أكتب. أخيرًا، اعترفتُ لزوجتي بأنّني أُنجزُ رواية. حكيتُ لها عن إيهاب وفتياته الخمس. قالت: «سيسجنونك إن شاء الله. سيُكفّرونك. حينها سأخلعك عند القاضي. سأفتك منك، ومن جنونك وعتهك».

لفتني أنّها لم تشك ولو للحظة بإمكان أن تكون الرواية سيرة ذاتيّة. سألتها. أجابت: «قبلت الزواج منك مضطرة. من هنّ الفتيات المعتوهات اللاتي أحببنك؟ احمد ربك أنّه في وحدة قبلت فيك».

لاحقتني بعدها. كلّما رأتني أكتب، شغّلت المكنسة الكهربائيّة، أو رفعت صوت التلفزيون حتى آخره. كانت تتلذّذ في تعذيبي. تطلب منّي أن أتكلّم معها، حين لا أعير كل وسائل إزعاجها اهتمامًا. تخلقُ مشكلة. تفتعل شجارًا. المهم عندها ألاّ أكتب.

تسألني أحيانًا: «من سيدفع ثمن النشر؟». كانت المرّة الأولى التي تُشاركني فيها همّي. لكن حين قلت: «في الغالب أنا». انفتحت عليّ أبواب جهنّم. ذكّرتني بالكتب التي أشتريها. وبالمبالغ التي أدفعها ثمنًا للروايات التي تملأ مكتبتي. تنسى أنّني أُعطيها مرتّبي كاملاً أوّل كلّ شهر. تنسى أنّني آخذ مصروفي منها، بما لا يتجاوز عشرة في المئة من مُرتّبي. تنسى أيضًا أنّها تشتري بمرتّبي فساتين وأدوات ماكياج تكفيها وأختها. تدفع مرتّب السائق والخادمة من مرتّبي. تُسافر كل عام على حسابي هي وأختها. وفوق كل ذلك لم أجد يومًا عشائي أو غدائي جاهزًا حين أعود إلى المنزل بعد دوامي. أضطر كل يوم إلى أن أفيق وحدي، وأبحث عن القميص والبنطلون هنا وهناك.

ومع ذلك، تُعلّق دائمًا: «مكتوب عليّ أتزوّج واحد أهبل». أنا أهبل، لأنّني أطيعها في كل شيء. لم أردّ يومًا في حياتي عليها.

أخشى من أن تتركني وحيدًا. أخاف من ألاّ يقبلني غيرها. تُعايرني بشكلي دائمًا. بأنّ واحدةً غيرها لم تكن لتقبل الزواج منّي. صدّقتها. حتى أختها تقول أمامي وبكل عين قويّة: «كيف تتحمّلين هذا الأهبل»!

مللتُ منها. لم أعد أطيقها. وأطيق تدخّلاتها في حياتي.

تخيّلتُ منظر البحر. تخيّلتُ نفسي أكتب في بلكونة إحدى غرف فنادق جونيه. أردت أن أكتبَ وأُنجز هذه الرواية. أريد أن أنتهي منها ومن إيهاب الذي يُطاردني في كل وقت، في منامي ويقظتي.

الغريب أنّني كنتُ صرفت النظر عن أن أكون روائيًّا. وعن نشر حياة إيهاب. لا أعرف ما الذي يدفعني بقوّة إلى إنجازها؟ هل يكون الخوف من إيهاب وروايته ما صنع كل هذا؟ لا أدري. لا زلت أهذي...

رغم كل ذلك، أقول لنفسي، منذ أكتوبر، سأُنهي هذه الرواية. لكنّها ترفض أن تنتهي (لست متأكّدًا حتى الآن أنّني سأُنجزها). باتت كابوسًا.

أدخل في متاهات. أقرأ بعض الفصول التي كتبتها قبل شهور وأراجع أمورًا كثيرة لم تعجبني. تبدو لي بعض السطور والصفحات جاهزة للنشر والقراءة. لكنّني في كل الأحوال عرفتُ أنّ هناك فصولاً ناقصة.

قرّرت أخيرًا السفر إلى بيروت. هناك حين أُقفل هاتفي النقّال

أستطيع أن أنجز هذه الرواية. أن أتخلّص من تلك المستبدّة. ورّطتُ نفسي. كنت حدّدتُ موعدًا بعد هذا القرار، عبر البريد الإلكتروني ثم الهاتف، مع دار الآداب. في بيروت. شرحت لي أنّ المخطوطة ستمرّ على لجنة للقراءة.

اتفقتُ معها على أنّني سأسلّمهم المخطوطة في يوم الاثنين ٢١ نوفمبر. سيستلمون منّي النسخة النهائيّة. وسيردّون عليّ بعد شهر على أقل تقدير. لن أهتمّ كثيرًا بالتفاصيل الناقصة من حياة إيهاب مع فاطمة ودَيان ودنيا. قرّرت أنّ ما كُتب عن الفتيات الثلاث كافٍ.

كان عليّ أن أضيف فصلين فقط. حياة إيهاب مع منال وهتون. كنتُ كتبتُ حياته مع فاطمة. ثم مع ديان، فدنيا.

اكتفيتُ في شهر أكتوبر بمراجعة الفصول الثلاثة، وإعادة ترتيبها.

هنا في بيروت كتبتُ قصّته مع منال وهتون. كتبتُ الفصلين في أسبوع.

* * *

إيهاب في هذه اللّحظة، وفي هذا اليوم، بعيد منّي. في السعوديّة، تحديدًا في الدمّام، عند فاتنة. لا يزال يفكّر بفاطمة. يُرسل لها الرسائل. يحاول إقناعها بأنّ خالد يتسلّى بها فقط. يُذكّرها بأشياء كثيرة. لا يزال إيهاب يسألُ فاطمة عن السبب الذي منع خالد من تعريفها بأهله. تتساءل بسببه عن حقيقة خالد. إيهاب يقول لها إنّه يكذب. يزعم الانشغال كي لا يخسر ثمن

المكالمات. لا يريد أن يتصل بها كل يوم، خصوصًا أنّها في الرياض الآن، وليست في جدّة عنده، وقريبة منه. حين كانت فاطمة في جدّة كان خالد يتصل بها كل يوم.

لا تزال تقول له: «لا تتدخّل في حياتي. احترمني. حتى لو كان كذّابًا سأحترمه. هو يتعامل معي بصورة أكثر من جيّدة. يحترمني. لا أهتمّ لما تراه أنت».

هذا الكلام سيتكرّر. لن ينتهي. لن يتخلّص إيهاب منها قبل رأس السنة. في رأس سنة ٢٠٠٦ فقط سيقرّر أن ينسى فاطمة. سيحلف أنّه لن يعود إليها حتى لو عادت هي إليه. سيتفرّغ لإنجاز روايته التي كان بدأ في كتابتها. لكنّي لن أسمح أن ينجزها. لا أريد أن تنافس روايتي. سأنهي هذه الرواية قبل رأس السنة، قبل الوقت الذي حدّده هو للشروع في إنجاز ما بقي من روايته مع فاطمة بهدف فضحها.

عدتُ إلى الهذيان...

* * *

أنا الآن في فاريّا، في عيون السيمان. كنت بتّ يومين في فندق البورتميليو في الكسليك. لكنّني لم أكتب حرفًا. الجوّ هناك لم يساعدني. إذ هيّأتُ نفسي للكتابة في غرفة تُطلّ على البحر. والغرف المطلّة على البحر في البورتميليو كلّها مشغولة. لم أجد فندقًا آخر يناسبني.

إبراهيم هو السائق اللبناني الذي أقلّني من المطار إلى الكسليك يوم السبت. اقترح عليّ حين عرف أنّني جئت لأنجز رواية أن أذهب إلى فاريّا وأستأجر شاليه، فالناس بدأت بالزحف من فاريّا الآن، خصوصًا السعوديين الذين عادوا لأنّ إجازة عيد رمضان انتهت.

لم يعجبني اقتراحه حينها. كنت أتخيّلُ منظر البحر بينما أكتب في بلكونة غرفة في أحد الفنادق.

بعد أقلّ من يوم (الأحد ليلاً). اتصلت بإبراهيم. طلبت منه أن يجيء صباح الإثنين ليقلّني إلى فاريّا.

أرسل لي في الصباح سمير أخاه. لا أعرف السبب الذي منعه من الحضور. لم أهتم. المهمّ أن أصل إلى فاريّا الآن، حيث يكون إيهاب بعيدًا ولا يتدخّل. حيث يمكنني أن أنجز الرواية بأسرع وقت ممكن. فبعد أسبوع (يوم الإثنين) سيستلم مندوب دار النشر الرواية منّي. سيقرؤونها ثم تصحّح ثم تُطبع ثم تُشحن. كل ذلك يجب أن يتمّ قبل رأس السنة.

* * *

اليوم هو الأربعاء الـ ١٦ من نوڤمبر. كتبت الفصل الخاصّ بعَلوَة. نفدت قارورتا النبيذ (من نوع فقرا) اللّتين اشتريتهما يوم الاثنين. نفدت المعلّبات وكل المؤن التي اشتراها لي سمير وسامر. لا يهمّ. سامر سيتكفّل بشراء ما أحتاج إليه. لن أخرج من هذا الشاليه قبل أن أكتب حكايتيْ هتون وفاتنة، وأعيد مراجعة الرواية، أكثر من مرّة.

بقي فصل واحد فقط، من حياة إيهاب قبل فاطمة.

ماذا عن ديما وتهاني ونهى ونوال وصوفي. هل هناك ضرورة لكتابة التفاصيل؟!

أشعر بالنعاس. أرغب في النوم. سأنام هنا على الأريكة أمام النار.

[١]

تُسمّيها زميلاتها «العسكري». لا يَحكين عن علاقاتهنّ العاطفيّة أمامها. يتوقّفن عن الثرثرة حين تُقبل نحوهنّ. يخجلن من مجرّد نطق كلمة قُبلة. تُحب هتون ذلك. لا يُزعجها لقب «العسكري». تُحافظ عليه. هي ناهزت الثانية والعشرين. تزعم أنّها لا تعرف عن علاقات الجنسين أكثر ممّا درست في كُتب مناهج الأحياء.

نورة، صديقتها الوحيدة. تدرس معها في الكلّيّة ذاتها. تستقبلها كل ثلاثاء في بيتها. هي متزوّجة. لا تعير لقب «العسكري» أيّ اهتمام. لا تكترث به. تحبُ هتون. تثق بها. تبوح لها بأسرارها الحميمة أحيانًا. تقول: «معقّد. يُهملني بعد دقائق تكفيه لينتشي».

يحمرّ وجه هتون كلّما حكت نورة عن علاقتها بزوجها. مع ذلك، تسمع قصصها، فنورة لا تحكي لغيرها.

كان اللقاء الأوّل بإيهاب في منزل نورة.

وصل عند العاشرة صباحًا. زوج نورة في عمله. تركت باب الصالون مفتوحًا. قالت له عبر الخليوي: «اضغط على زرّ الطابق

الثاني. حين يفتح باب المصعد، تجد الشقّة في وجهك. ادخل بسرعة. ومن الممرّ، ادخل الغرفة التي على يسارك».

جلس في الصالون الواسع. مساحته خمسة أمتار في ثلاثة. بين إيهاب وباب الصالون ثلاثة أمتار. أمام عينيه لوحة كبيرة رُسمت عليها فتاة عارية. لو دخل أحد من باب الصالون ستكون اللّوحة على يمينه وإيهاب في آخر الصالون على يساره.

وقفت هتون ونورة خلف الباب.

قالت نورة، من وراء الباب، ومن دون أن يظهر طرف عباءتها:

- هل تريد أن تراها بعباءة أو من دون عباءة؟

ضحك. سكت. ضحك مرّة أخرى بقوّة. يسكت، لكنّه لا يقدر على كتم ضحكته. يضحك ويحاول كتمها. قال: «هل جئت، كي أجلس مع فتاة تلبس عباءة؟ أأنا أهبل؟!».

دفعتها نورة بقوّة إلى داخل الصالون. أغلقتْ بابه.

صرخت هتون. شتمتها. سكتت. نظرت إليه للحظة. غطّت وجهها بيديها. أدارت ظهرها له. حاولت فتح الباب. صرخت، فيما تضحك نورة عليها، من وراء الباب.

هو تفرّج مندهشًا.

- ماذا يحصل؟ هل أنا في بيت مجانين؟

استسلمت للموقف. أدارت وجهها. طلبتْ منه أن يُغمض

عينيه. اعتبر طلبها مجرّد دعابة. قال: «خير... ترى يا أبو الشباب، إنت لابس بنطلون واسع، وقميص فضفاض. وكلّها غامقة».

هي ترتدي بنطلونًا بُنّيًا وقميصًا أسود طويلاً.

بدأ يتململ. تأفّف. سَمعتْ. اقتربت بخطوات قصيرة وبطيئة. طلبت منه بصوت عال ألاّ ينظر إليها. أضافت: «نظراتك تُخجلني». علّق:

ـ كأنّي أشوف مشهدًا في مسلسل. جاء البطل يخطب وتركوا له خطيبته كي ينظر إليها النظرة الشرعيّة.

جلست بعيدًا. بينها وبينه ثلاث كنبات.

وقف. صرخت: «مكانك».

ابتسم. قال: «أردت تحريك رجلي فقط». جلس. فتحت نورة الباب. تُحرّكه ببطء. نظرت من طرفه. قالت هتون: «مبسوطة؟! حسابك عندي».

دخلتْ. كانت ترتدي عباءتها. تضعُ لثامًا على وجهها. لم يبد منه سوى عينيها اللّتين بدتا باللّثام جميلتين. سقط اللّثام لوهلة. ظهر وجه فتاة أكثر من عادي.

التفت بوجهه في هذه اللّحظة إلى وجه هتون. تأمّله. وجهها جميل. نزل بعينيه إلى جسدها، ومؤخّرتها. صرختْ: «نورة. قولي له ألاّ ينظر إليّ بهذه الطريقة».

ستتحدّث نورة عن خجلها. ستمدح أخلاقها. ستقول إنّها لم تقابل شابًّا في حياتها. سيعلّق ساخرًا: «المكتوب مبيّن من عنوانه».

خرجت نورة. وقفت هتون. قال: «مكانك». تسمّرت. لم تتحرّك خطوة. أغلقت نورة باب الصالون بالمفتاح.

قام من مكانه. جلس قريبًا من مكانها، رغم أنّها طلبت منه ألاّ يقترب. لم تجلس. بقيت واقفة. مدّت يدها. أدارت وجهه عنها. قالت: «لا أستطيع فعل أيّ شيء من الذي كنت تشرحه لي في التلفون». مدّ يده. أمسك بيدها. لمسها بحنان. سحبها. قال:

- هاتي بوسة.

- لا . . . بلا قرف.

نظر إليها بدهشة. استدركتْ: «أنا أقرف من البوس. لا أستطيع تخيّل امتزاج ريق أحد بريقي». قال: «لمْ تقولي لي من قبل؟!».

تجاهلتْ سؤاله. تجاهلَ كلامها. سيُعلّمها القبلة رغمًا عنها. سيقولُ لها: «أخيرًا جرّبتُ طعم بنتٍ لم تُقبّل أحدًا قبلي، للمرّة الأولى». سترفع حاجبيها، ستقول إنّها قبّلت أمّها وأبيها وأخواتها ومحارمها. سيؤكّد لها أنّه لم يعرف أسخف منها في حياته. لن يسحب هذا الكلام. ولن تُعلّق عليه كثيرًا.

سيُعلّمها «البوس». لن تستطعم في البداية لكنّها ستتعوّد.

ستعشق القُبلة. ستصبح مدمنة لاحقًا. سترجّاه أن يُقبّلها كثيرًا.

اقتربت منه. تجاوبت مع يده. جلست إلى جانبه. بينها وبينه شبرين. قال: «افتحي فمك». رفضتْ. رمقها. حرّكتْ رأسها، رافضة بلطف. كرّر طلبه، بحدّة أعلى هذه المرّة. ترجّته بوجهها. حرّكت شفتاها. همست: «بليز».

طلب فتح فمها مرّة ثالثة. تنفست. شهقت. أغمضت عينيها. مدّت رأسها إليه. مدّت شفتيها بقرف. اقترب منها. لم يُقبّلها. حضنها. لكنّها أبعدته. لمْ يستجب. زحفت بمؤخرتها إلى الوراء. حاولت أن تتخلّص من حضنه. لم يسمح لها. قالت: «بليز. لا أحسُّ بما تحكون عنه. لا أحسّ بالشهوة».

رفع يديه من حولها. رجع إلى الوراء. سكت قليلاً. سألته إذا كان غضب. لم يجب. وقف.

طلب منها أن تقف. نظرت إليه. كرّر طلبه. وقفت ببطء. لم تتحرّك. وقفت فقط. اقترب منها. رجعت إلى الوراء، عرقلتها الكنبة. جلست. سحبها. وقفت. حضنها. بدأ في تقبيل رقبتها. شعرت بشيء يتحرّك. مدّت يدها من دون شعور وبسرعة. مدّتها إلى بنطلونه.

تفاجأ. توقّف عن تقبيلها. سألته: «ما هذه العظمة؟». ابتسم ونظر إليها. رفعت يدها بسرعة. دفعته، وشهقت. شهقت بقوّة. ضحك. احمرّ وجهها. ضحكا كثيرًا. لن ينسيا ذلك. ستُقسم أنّها كانت تظنّه مُشوّهًا.

* * *

اليوم. صباح الخميس. بعد اللّقاء الأوّل بشهر.

يجلسُ معها في صالون شقّة أُختها. هذه المرّة الأولى التي يدخل فيها بيت هناء. لن تكون الأخيرة، رغم قَسَمِه بأنّه لن يدخل هنا مرّة أخرى. جاء بعدما أصرّت. أقنعته بحرصها. أكّدت أنّها تخاف أكثر منه. وأنّها لن تقدم على شيء يورّطه ويورّطها مع أهلها. رفض في بداية الأمر.

لم تنجح محاولاته بتخويفها من احتمال أن يكتشف أمرهما. قال: «سيضربونك، إن لم يقتلوك. سيطلبان الهيئة لي، بعدما يضربوني ضربًا مؤذيًا. سيزعمون أنّي حرامي أو مغتصب تسلّلت إلى البيت». لم يجن شيئًا من هذا الكلام سوى إصرارها، وتأكيدها بأنّها لن تقابله في مكان آخر. قالت إنّها مقتنعة بهذا المكان. وافق.

أوقف سيّارته أمام البناية فيما يقرأ الإمامُ سورة الفاتحة في الركعة الأولى من صلاة الفجر. بين البناية والمسجد شارع فرعي. المسافة بين بابي المسجد والبناية نحو ثمانية أمتار.

أطفأ سيّارته وتلفّت حوله. لا يزال هناك من يذهب إلى المسجد. اتصلت به. لم يردّ عليها. أسند رأسه على مقعد السيّارة. ركّز عينيه بالمرآة. سيتنفّس كلّما التفت أحد إلى السيّارة.

يقرأُ الإمام سورة الفاتحة في الركعة الثانية الآن. يَجْرِي بعض السكّان نحو المسجد. انتهت الركعة. كبّر الإمامُ للسجود.

اتصل بها. شقّةُ هناء في الطابق الأرضيّ في بناية يسكنُ فيها أهلُ زوجها. باب البناية الخارجي مغلق دائمًا. لم يخرج أحد. لم يخرج أيّ من سكان البناية إلى المسجد. الباب الكبير لا يُفتح إلاّ بالمفتاح أو بـ «الأنترفون». لم تخبره أنّ سكّان البناية يعرفون بعضهم بعضًا. لم تخبره أنّهم إخوة وأبناء عمومة.

طلب منها أن تفتح الباب الآن. كانت وضعت جوّالها على وضعيّة الصامت. وقفت إلى جانب «الأنترفون». تنظر إلى المحمول. حين اتصل، ردّت فورًا.

ضغطت على زرّ «الأنترفون». فُتح باب البناية. نزل من سيّارته. مشى بسرعة. دفع الباب ودخل. يضع هاتفه المحمول على أذنه. يسمعها. أغلق الباب وراءه. مشى على الرخام بحذر. عانى من حذائه. يحاول قدر الإمكان ألاّ يُصدر صوتًا. دخل البناية. هو في حوشها. كان ينظر إلى النوافذ. اصطدم بسلّة كبيرة. وضع يده على فمه. كتم ألمه. وُضع في السلّة شجرة صغيرة. نظر إليها بحقد.

هي تسأله عبر الهاتف عن الصوت. سكت. تحرّك بسرعة إلى داخل البناية. كانت واقفة وراء الباب.

فتحت الباب بمجرّد رؤيته من «العين السحريّة» (تُسمّى السحريّة في بعض مدن السعوديّة). أدخلته إلى الصالون. بين الصالون وباب الشقّة متران فقط. أقفلت باب الصالون بالمفتاح.

سألته لِمَ لم ينزل بمجرّد وصوله؟ شرح أنّه كان ينتظر خروج

السكّان إلى الصلاة، كي لا يصادف أحدًا بينما يدخل. ابتسمت. قالت: «كل أهل يوسف مثله، لا يصلّون». لم يسألها كيف زوّج والدها الملتزم ابنته لرجل لا يصلّي.

همس بغضب: «كيف لا تخافين؟ أنا في عمارة سكّانها من عائلة واحدة! تركتني أدخل من الباب هكذا وبكل برود! ماذا لو أنّ أحدهم قابلني وسألني؟».

تجيبه بكلّ برود بعدما حضنته: «لن يسألك أحد. لسنا وحدنا في البيت. سيعرفون أنّك جئت تزور يوسف».

- لا تقولي إنّهما في غرفة النوم؟!

تبتسم. تهُزّ رأسها إيجابًا. لطم وجهه وعضّ على لسانه. اقترب منها وهمس: «سأخرج الآن».

- لا . . . حبيبي. «بعد ما جيت تبغي تُخرج»!

وضع يده على فمها. أزاح وجهه عنها. عاد والتفت إليها. نظر في وجهها. تلَمّسه. بدأ بتقبيلها. كان وَعَدَها أنّه سيعلّمها أصول القبلة هذه المرّة.

فتح فمها بشفتيه. أدخل لسانه. حاولت أن ترجع إلى الوراء. لكنّه وضع يده خلف رأسها. مدّت يدها على وجهه. دفعته. لم يستجب. حضنها بقوّة بعد أقل من خمس دقائق. فتح سحّاب بنطلونه. نزعه. باعد بين رجليها. تقدّم خطوة.

ستعضُّه أكثر من مرّة. (سيذكّرها يومًا بعضّاتها حين كانت تتعلّم).

صارت عنيفة، بعدما تعلّمت.

لم تخلع بنطلون «بيجامتها». هو طلب منها. لكنّها أكّدت أنّها مستمتعة. باحت بذلك. رفضت فكرة خلع البنطلون. لم يلحّ.

بمجرّد انتشائه قرّر الخروج. سألته إذا كان يُمكنها مقابلته مرّة أخرى. قال وهو يطلب منها أن تفتح باب الصالون: «ما حدّ يعرف بكرا إيش يصير؟ كل شيء ممكن. المهمّ ما يقابلني أحد وأنا خارج من العمارة». باح لها بأنّه يتمنّى أن يغمض عينيه فيجد نفسه في السيّارة. أضاف: «مجنونة. لن أفعلها مرّة أخرى حتى لو قتلتني الشهوة». ابتسمت.

* * *

ظلّ بعد لقائهما الأوّل ثم الثاني، يُهيّؤها عبر الهاتف. يحكي معها بلا خجل. ينطق كل شيء باسمه. يُعلّمها كل شيء يعرفه.

هو ينفّذ ما كان ينصح به أصدقاءه: «إذا رغبتَ في مضاجعة فتاة فابدأ ذلك من الهاتف. لا تترك كلمة تخجل منها من دون أن تنطقها. اشرح لها بالتفصيل كيف تريد أن تفعل معها. ابدأ ذلك تدريجًا. قل لها إنّك لا تمانع في الزواج من فتاة نمت معها. قل إنّك لا تهتمّ إن كانت عذراء أو لا. قل إنّك تمقت العرب وتخلّفهم. لا تقبل فكرة الدم. حينها فقط، ستعترف هي أنّها مثلك. تشبهك. ستعترف أنّ عندها رغبة لا تختلف عن رغبتك. ستجدها ناضجة تمامًا حين تقابلها في أوّل موعد».

كان يطبّق ما يقول لزملائه مع هتون وسواها. فعل ذلك مع منال. وسيفعله مع فاطمة ودَيان.

الآن هو في موعده الأهمّ. الموعد الأوّل الذي تقبل فيه هتون الخروج معه. لم يترك لها مجالاً. رفض كل عروضها للقاء في بيت أختها. رفض أن يزورها في بيت نورة، فهو يخاف من زوجها.

أخذها إلى بيت أخته. طلب المفتاح من زوجها.

في هذه الفترة كان زوج أخته انتقل إلى الرياض. سيعمل فيها عامًا واحدًا. سيعود بعدها إلى الدمّام. كانت أخته تأتي كل خميس وجمعة. تعود إلى الدمّام في أيّام الأسبوع. أحيانًا تقضي معه أسبوعًا كاملاً، في الرياض.

هناك لن يُزعجه أحد. ستكون عارية تمامًا. ستكون مُلكًا له. ستبادله الرغبة. سيعلّمها أشياء كثيرة لم تجرّبها. لن يتورّع عن فعل كل شيء علّمها إيّاه في التلفون.

هي ستتعوّد على كل ذلك. ستتصل به كثيرًا، بعد هذا اللقاء. ستطلب منه أن يجيء إلى بيتها أو بيت أختها كثيرًا. ستكذب عليه في إحدى المرّات. ستقول إنّ أختها وزوجها خرجا. لن يعودا إلاّ عند الظهيرة. سيذهب إليها عند الثامنة صباحًا. سيكتشف أنّهما في البيت، وأنّ أخاها موجود أيضًا. لن يقتنع بأنّها أقفلت عليه الباب بالمفتاح. سينفجر بسبب شبقها. سيخبرها بأنّ ما تفعله لا يسمّى إلاّ «هبلاً». هي لا تهتمّ. ترتاح فالثلاثة نائمون.

لاحقًا، سيشعر بالضجر، من اتصالاتها اليوميّة. كانت تتصل كل ساعة. لا تملّ. حتى لو لم يردّ على اتصالاتها، كانت أحيانًا تتصل أربعين مرّة في أقل من ساعة.

بعد شهور قليلة سيتعرّف على فاطمة. سينسى هتون. سيطلب منها ألاّ تتصل به. بعدما كان يظنّ أنّه أحبّها.

حين ستؤنّبه هتون سيُذكّرها بأنّه قال أكثر من مرّة، حين تعرّف عليها: «مللت الفتيات. لا أحبّ السعوديّات. لا أفكّر في الزواج. أفكّر في التسلية فقط. لا تنتظري أكثر من ذلك. ولا تظنّي أنّني سأتزوّجك».

سيسألها: ألم توافقي على ذلك؟ ألم تقبلي قبل أن ألمسك حتى؟

هذا سيكون عذره دائمًا، كي يغلق الخطّ.

[٢]

اصطدم بمراهقين عند باب المقهى. لم يلتفت إليهما. انتبه إلى أنّ أحدهما وقف ينظر إليه. لم يعره اهتمامًا. توجّه إلى المحاسب السعودي. هذا المحاسب يعمل في المقهى كي يقضي ساعات في الإنترنت من دون أن يدفع. طبعًا هو يحصل على مرتّب مقابل وقوفه هنا. لكن هذا المرتّب لا يتجاوز الألف ريال مقابل ٨ ساعات.

سأله: «في جهاز فاضي»؟

أشار المحاسب بيده إلى إحدى الكبائن ـ كبينة رقم ٨. لم تعجبه الكبينة. كانت مكشوفة. جلس ينتظر جهازًا آخر.

بعد ساعة كان يطبع كلامه بسرعة. منهمك. لا يلحّق على إجابة كل الرسائل. يحادثه كثيرون.

يظنّون أنّ اسمه المستعار يعود لأنثى. هو يختار «أثير». إذا غيره يختار «الحبّ».

تتشابه معظم المحادثات.

ـ مرحبًا... ممكن نتكلّم.

ـ أهلاً... كيفك يا حلوة... ودّك تدردشي.

ـ صباح الخير على البنّور. . .

جمل كثيرة تشبه هذه الجمل، يتلقّاها إيهاب بمجرّد دخوله إحدى غرف الدردشة. وإذا تجاهل المرسل، جاءت جمل مثل:

ـ ليش يا عسل ما بدّك تكلّمنا؟

ـ عبّرنا يا هوووووووووو

ـ لوووووووول والله البنت ثقيلة.

ـ إيش رأيك أعزمك اليوم على فطور في الشيراتون؟

بقي نصف ساعة على وقت محاضرته. وربع ساعة كي يكمل الساعتين اللتين دفع مقابلهما. لن يفوّت هذه الربع ساعة، خصوصًا أنّه سيخرج خالي الوفاض، فالفتاتان اللتان تكلّمتا معه للحظات لم تعودا موجودتين الآن. لم يستطع أن يأخذ عنوان بريديهما. واحدة عاندته. وانقطع الاتصال مع الثانية.

«يشيّك» الآن على لائحة الأسماء في غرفة الدردشة للمرّة الأخيرة. يبحث عن فتاة لم يراسلها. الأسماء لم تتغيّر، فاليوم هو الأحد. بنات الثانويّة في مدارسهنّ وبنات الجامعة في جامعتهنّ. وحدهنّ اللاتي لا تعملن أو لا تدرسن يتواجدن هنا. معظم هؤلاء عنيدات. لا تسهل مخادعتهنّ. لهذا السبب قرّر أنّه لن يعود في أيّام الأسبوع إلى الدردشة. قال ذلك لوليد حين سأله عن سبب تبديل عادته. زيارة الإنترنت كل يومين.

توقّف عند اسم «هتان» للحظة هذه المرّة. كان هذا الاسم المستعار يمرّ أمام عينيه كثيرًا، لكنّه لم يحادثه ولو مرّة. جرّب.

ـ مرحبًا... صباح الخير... ودّك تدردش أنا بصراحة طفشان... إن شاء الله ما تكون (مشغول)؟

جاء الرد مفاجئًا.

ـ أنا مو مشغولة... بس أنا بنت... بنفع؟ ولا لازم ولد.

ـ لا عادي... ما تفرق... أهم شي ندردش.

بدأت قصّة هتون التي اختارت اسم هتان كاسم مستعار. امتدّت إلى الهاتف. كان إيهاب يحاول دائمًا أن يُظهر أنّه غير مهتمّ بالفتيات. قال إنّه درس في أميركا وشبع منهنّ. وإنّه لا يحبّ الفتيات السعوديّات. كان يطبّق نظريّة وليد: «البنت زي اللبانة (العلك) كل ما تدوس عليها تلصق زيادة».

قال لهتون أكثر من مرّة: «مللت الفتيات ولا أحبّ السعوديّات. لا أفكّر في الزواج. أفكّر في التسلية فقط. لا تفكّري أنت في أكثر من ذلك. ولا تظنّي أنّني سأتزوّجك».

في هذه الفترة لم يكن إيهاب على علاقة حبّ مع أيّ فتاة. كانت منال خرجت من حياته. مع مرور الأيّام بحث عن حبّ جديد في الإنترنت. وجد هتون. فعل معها كل شيء، لكنّها بقيت عذراء.

وما إن دخلت فاطمة حياته، حتى بدأت هتون تتحوّل إلى فتاة مملّة، ومزعجة. صار يصارحها بذلك.

* * *

اليوم، الجمعة ١٧ نوفمبر. الساعة التاسعة صباحًا.

أشرب كأسًا من نبيذ «فقرا» الأحمر. أنجزتُ قصّة هتون. اكتملن. منال وهتون وفاطمة ودَيان ودنيا. لم أعطِ حيّزًا كبيرًا لهتون! ربما لأنّني بدأت أضجر. أو لأنّني أكملتُ روايتي.. أو لأنّني أحاول الهرب من فكرة أنّ إيهاب سيكتب رواية...

بقي فاتنة فقط.

ارتبط إيهاب بمنال لمدّة عام ونصف العام. ثم بهتون لعام كامل. عرف فاطمة قبل أن يُنهي علاقته بها.

تعرّف على دَيان بعد عامين ونصف العام. كانت علاقته بفاطمة، حينها، متوتّرة. بقي معها نصف عام قبل أن يعود مرّة أخرى إلى فاطمة.

استمرّت علاقتهما الجديدة ستّة أشهر. بعد ذلك تعرّفت فاطمة على خالد.

ظلّ إيهاب يلاحقها عامًا كاملاً. كان أسوأ عام عاطفي بالنسبة إليه. حاول أن يتعرّف على غيرها. لكن علاقته بأيّ فتاة لم تدم أكثر من أسبوع واحد فقط.

عاد لدَيان لكنّ العلاقة لم تتطوّر. بقيت كما هي. أخيرًا تزوّج دنيا.

حدث كل ذلك في سبع سنوات، غاب خلالها إيهاب عن فاتنة. لكنّه طوال تلك السنوات كان يحاول أن ينسى أنّ والده رماها في الشارع. تمنّى أن يُحقّق حلمها في أن يصبح طبيبًا.

هو إذن ابن لحظة وصوله إلى محطّة النقل الجماعي، في الرياض، حيث السيّارات الصفراء. حينها خُلق. قصّته مع فاطمة حدثت في زمن لاحق.

يمكن إعادة ترتيب الأحداث. يمكنُ إعادة ترتيب الصفحات. يمكن تقديم الصفحات الخاصّة بفاتنة قبل كل الأخرى، وتقديم منال وهتون على فاطمة. لتأتي بعد ذلك دَيَان فدنيا.

لكن! ماذا عن الصفحات الخاصّة بي؟

أنا لست شخصيّة في هذه الرواية!

* * *

لن يعيش إيهاب ماضيه أبدًا. سيتلقّاه. سيكون الماضي مجرّد منامات أو أحلام يقظة أو ذاكرة أو قصص يرويها لفتياته. هذا قدره. ألاّ يعيش ماضيًا. ما الفرق إذا عاشه فعلاً أو تذكّره؟ تظلّ حياته عبارات على ورق. ماذا لو تشابهت قصصه مع الواقع؟..

ما ذنبه؟ الأمر كلّه يتعلّق بالغريزة. غريزة الكتابة. لو لم تكن لديّ تلك الغريزة والرغبة الجامحة لما كان. أشعر كثيرًا بأنّه يريد الانتحار.

كيف ينتحر من دون أن تتمّ الرواية؟ لا يحقّ له أن يحدّد مصيره. أنا المتصرّف هنا...

لا زلتُ أهذي.

[٣]

«ولد فاتنة». هكذا يُحبُّ أن يُعَرّفه أصدقاؤه وزملاؤه لأيّ أحد. يبرّر بأنّه يكسر القاعدة بذلك. يهدمها. لا يستطيع أحد معايرته باسم أمّه المكتوب في جواز السفر. فهو يتفاخر به. يحبّ ذكره في كل مكان. يدلّعها. يسمّيها فَتّون أحيانًا. لا تخلو حكاية يسردها لأصدقائه أو فتياته من اسمها. يورد أمثالها دائمًا.

يحتفظ إيهاب بلوائح كثيرة. يكتب فيها مجرّد أسماء. لائحة أمّه وبناتها الأربع، والتي لا تزيد ولا تنقص. لائحة حبيباته الخمس (منال وهتون وفاطمة ودَيان ودنيا). كلّما زادت واحدة يفتح الدرج ويكتب الاسم على الورقة المخصّصة للائحة بعينها.

هناك أيضًا لائحة تتضمّن فتيات خمس أخريات... ديما وصوفي ونهى ونوال وتهاني. يسمّي هذه اللائحة: لائحة «الجيغولومان». وهناك لائحة رابعة، لكنّه لا يحتفظ بها في الدرج ذاته. يُسمّيها لائحة الجنس المحرّم. خمس فتيات مارس معهنّ بعدما دفع إليهنّ (في «ساحة المرجة» في سورية وفي فنادق البحرين). وهناك اللائحة الخامسة والأخيرة: خمس فتيات أخريات مارس معهن من دون مقابل، إحداهنّ كانت جارتهم التي تكبره بعشر سنوات.

أمّا علوة فلا يضمّنها في أيٍّ من لوائحه الخمس. يعتبرها مجرّد صديقة رغم أنّه يقول دائمًا، أمام فاطمة: «لا أصدّق بأنّ هناك صداقة بين فتاة وشابّ. لا بدّ من أن يفكّر أحدهما بجسد الآخر ولو في خياله».

لا يعرف إذا كانت أمّه فاتنة ستصدّق أنّه خاض كل تلك التجارب الحميمة.

يسألُ زميله في الحجرة (وليد): «كيف سيكون تعبير وجهها حين تعرف سرّ هذه اللوائح وقصّة كل اسم فيها؟ هل يمكن أن تقتنع أنّ الشاب الذي حبسته في البيت أكثر من ١٥ عامًا عرف كل أولئك النساء في أقل من سبع سنوات؟».

كانت فاتنة تخشى عليه من أولاد الحارة. لم تكن تسمح بأن يتعدّى عتبة الشقّة إلاّ معها أو إلى المدرسة.

كانت تقول: «حين كنت صغيرًا. كنت مؤدّبًا. أينما تركناك نجدك. عندما أخرج أتركك مع ألعابك في زاوية إحدى الغرف. أرجع لأجدك جالسًا في الزاوية ذاتها. حتى لو تأخّرتُ لساعات. أحيانًا أجدك نائمًا في مكانك. كنت تخاف أن تتحرّك من حيث تركناك. كنت مثالاً للأدب. لم يكن أحد يستطيع أن يستنطقك. تهمس همسًا. لا تتكلّم».

يضحك كلّما تذكّر هذا الكلام. هو الآن ثرثار. لا يكفّ عن الحديث. يتحكّم في أيّ مناقشة. يُحرّك الحديث كيفما يشاء. لا يعرف كيف تحوّل الشابّ الصامت إلى ثرثار ومحترف في أساليب

الإقناع وسلب قلوب الفتيات. لم يكن يخجل من الاعتراف بأنّ فاتنة حبسته ١٥ عامًا. بل كان يظنّ ويعترف بأنّها فعلت: «لأنّها خشيت عليّ من أولاد الحارة. كنتُ جميلاً وأبدو كالفتيات. كانت تخشى أن يغتصبني أحد أو يستدرجني للفعل بي». يضحك حين يقول هذه العبارات. يُتبعها بهستيريّة: «فاتنة صايعة. كانت تعرف أنّ الشبان الصغار يميلون إلى الأولاد الحلوين مثلي. وعلى رغم أنّها علّمتني حسن الظنّ، فإنّها لم تحسن الظنّ بأولاد الحارة. فالأمر يتعلّق بولدها الوحيد».

يردّد دائمًا: «هربت منها لأنّني أحبّها». يردّد هذه العبارة على منال وهتون وفاطمة ودَيّان ودنيا. يقول: «لا أستطيع العيش من دونها أو معها». كانت فاطمة تردّد العبارة الأخيرة أيضًا: «لا أستطيع العيش من دونك أو معك». تردّدها كثيرًا، لكن في سياق آخر. تسأله إن كان يصدّق أنّها لا تستطيع العيش من دونه أو معه؟ تسأله وهو جرّب هذا الشعور مع أمّه قبل أن يجرّبه معها.

منذ سبع سنوات يعيش في سعادة يصفها بالموقتة. يشتاق لأمّه حتى وهو مرتاح بعيد منها. يقول لها إنّه سيعود. لكنّه أراد أن يتمتّع بحياته قليلاً. هي تحاصره منذ ثمانية عشر عامًا. ثمانية عشر عامًا وهي تركض وراءه. نقاشاتٌ ومشكلاتٌ لا تُعد. خصامٌ وبكاء وودّ وأحضان.

سيقول لفاطمة يومًا بعد أن تتعرّف على خالد: «شعورك تجاهي مثل شعوري تجاه أمّي. لا أكرهها، بل أعشقها، لأنّها علّمتني. ضحّت من أجلي. دلّلتني. جعلت منّي شهريار. مع هذا

فرحت عندما تخلّصت من حصارها، ومن مسؤوليّة بناتها. أنا لا أصرف عليهنّ. والدهنّ، زوج أمّي، ترك لهنّ بناية تصرف عليهنّ. لكنّي سعيد، لأنّني سأجلس وسأخرج مع رفاقي من دون أن أخاف من توبيخها حين أتأخّر. أنتِ أيضًا سعيدة وفرحة لأنّني لن أسألك مع من كنت؟ حين تركت أمّي وسافرت لدراستي، شعرت أخيرًا أنّها لا تستطيع أن تطلب منّي مشاركتها في جولتها التسوّقيّة. لن أضطر إلى ترك أصحابي لأقلّ فاتنة أو إحدى بناتها من أيّ مناسبة. أنتِ أيضًا حرّة الآن. ستجلسين مع صديقاتك. لن أطلب منك أن تخرجي معي بدلاً من الجلوس معهنّ. هي كانت تقول حين أجلس مع رفاقي ولا أُوصلها: أنت تحبّ رفاقك أكثر منّي».

* * *

سيّارات صفراء كثيرة في موقف السيّارات. هذه سيّارات الأجرة السعوديّة القديمة. يقفز راكب إلى إحداها آملاً أن يكتمل عدد الركّاب بأسرع وقت ممكن. عددهم عادة خمسة. لا يمانع بعض السائقين لو ركب معه ستة. أو أن يدفع أحد الركّاب عن راكبين أو ثلاثة ليلحق بموعد. اكتمال العدد المطلوب قد يستغرق أكثر من ١٢ ساعة. إيهاب يعرف أنّ معظم «سائقي الخطّ» هؤلاء مدمنون. يتعاطون الكبتاغون المنشّط ليبقوا متيقّظين أطول وقت ممكن.

كانت أمّه تحذّره دائمًا من الركوب معهم.

ينظر إيهاب إلى الركّاب الذين يبحثون عن سيّارة ينقصها راكب

أو راكبان ليكتمل نصاب عددها. يجرّون حقائبهم وراءهم. البؤس يعلو وجوه معظمهم. يحدّث نفسه: «هل لأنّهم فقراء ولا يملكون ثمن تذكرة طيران؟». هو لا يملك ثمن تذكرة طيران إلى الرياض!

يسمع كما كل المتواجدين في ساحة المواقف صوت مايكروفون محطّة «النقل الجماعي»: «النداء الأخير للركّاب المتوجّهين إلى الرياض».

لن يستقلّ إحدى حافلات النقل الجماعي. بل سيّارة صفراء إلى الرياض. لن يركب السيّارة الصفراء لمجرد أنّه يريد مخالفة رأي فاتنة.

لا يمكنه اللّحاق بحافلة النقل الجماعي. للتوّ سمع النداء الأخير. لا يريد أن يقف في الطابور الطويل نصف ساعة أخرى ليركب في الحافلة التي ستنطلق بعد ساعتين أو ساعة. الساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل. لو ركب الحافلة فلن يصل الرياض قبل السابعة صباحًا. الشمس ستضايقه. هو لا يحبّ الشمس. يكرهها. يقول لفاتنة: «شمس السعوديّة حارقة. حتى مكيّف الحافلة لا يمكنه أن يبرّدها. أشعّتها وهواء المكيّف البارد معًا يجعلاني أشعر بالرغبة في التقيّؤ. شمس حارّة ومكيّف بارد، يشبه أن تقضمين قطعة من آيس كريم وتتناولين رشفة من فنجان قهوة سوداء في الوقت ذاته».

هي تضحك. لا تعلّق على كلامه. أحيانًا تقول: «أختك على حقّ. تفلسف الأمور زيادة عن اللزوم».

ينظر إلى سيّارة صفراء بدا أنّ عدد ركّابها اكتمل. لا ينقصهم سوى اثنين. يقترب من السائق. يهمس في أذنه. السائق ابتسم. أومأ موافقًا. انطلق إلى سيّارته وفتح باب الراكب الأمامي. طلب من الراكب أن ينتقل إلى المقعد الخلفي. رفض الراكب. اقترب إيهاب من السائق وهمس في أذنه مرّة أخرى. بحدّة، خيّر السائق الراكب بين الجلوس في المقعد الخلفي أو النزول من السيّارة. وافق صاغرًا. جلس في المقعد الخلفي إلى جانب ثلاثة آخرين.

إيهاب صاحب حِيَل. عاش بين الفقر والغنى. يعرف كيف يأخذ ما يريد. لكنّه لا يتجاوز حدود الأدب. لم ينبس بكلمة إلى ذلك الراكب الذي رفض الجلوس في المقعد الخلفي. بعد قليل، سيقدّم له عصيرًا وبسكويتًا ومجلّة. لن يشعر هذا الراكب بأنّه تلقّى معاملة خاصّة. لأن الركّاب الآخرين حصلوا على عصير وبسكويت أيضًا.

جلس وفتح كتابًا. بدأ في القراءة بمجرّد أن انطلقت السيّارة. (لم يكن يعرف أنّه سيتغرّب عن أمّه التي تحبّه ويحبّها سبعة أعوام. ولن يراها. رغم أنّ الحافلة تقطع المسافة بين الرياض والدمّام في نحو ٤ ساعات).

[٤]

ينظر بعينٍ مدهوشة إلى جزء المدينة الذي دخل منه. دخل من طريق الملك فهد. لم يحسّ بشيء غريب ولو للحظة.

هنا سيعيش سنوات. سيحبُّ ويتألّم. سمع كثيرًا عن الرياض لكنّه لم يزرها من قبل، سوى مرّة واحدة فقط.

هذه المرّة ليست منذ زمن. يذكرها جيّدًا. قبل شهر واحد فقط كان هنا في الرياض. جاء بالطائرة وعاد إلى الدمّام بالطائرة. لم يقض فيها أكثر من ٢٤ ساعة. وصل في الصباح الباكر. استقلّ سيارة تاكسي إلى جامعة الجزيرة العربيّة، حيث سيدرس. قدّم ملفّه واختبر وقدّم فحصه الطبّي وعاد في اليوم ذاته. كان اختبر ليتخصّص في الطب. قال له من استلم منه الملف وأعطاه رقمًا: «يجب أن تختار تخصّصًا آخر غير الطبّ، كي يتسنّى لنا نقل أوراقك إليه في حال لم تجتز اختبار الطبّ». هذا الكلام غير مهمّ، فقد اتصلوا إليه ليبشّروه باجتيازه اختبار الطبّ. أمّه كانت أكثر سعادة منه. سيكون طبيبًا وستُذلّ والده بنجاحه. لا تعرف أنّ فاطمة ستُضيّع كل أحلامها. والده سيذلّها طيلة عمرها بفشله.

ـ أين تريد أن تذهب يا صاحبي؟

نظر إليه صاحب التاكسي. لم يسأله عن السعر كالعادة. نظر السائق إلى ملابسه المرتّبة. سأله عن المكان فقط.

كانت فاتنة لا تشتري ملابس جديدة لنفسها في عيد رمضان كي توفر له مالاً يصرفه مع أبناء عمومته. هي لا تريدهم أن يدفعوا له. نبّهته مرارًا ألاّ يقبل قرشًا واحدًا منهم.

اشترت له قبل أن يسافر إلى الرياض ملابس غالية كثيرة. لم تهتمّ كثيرًا بإصراره على أن يشتري من الرياض. خشيت أن يضيّع الأموال. أرادت أن تتأكّد أنّ معه أكثر من ساعة وأكثر من جزمة، وأكثر من حزام. وقمصان وبنطلونات وثياب كثيرة.

ـ فندق رخيص يا عمّ.

استغرب الرجل. أدرك أنّ فراسته خانته. لم يتردّد في تحديد تسعيرة جديدة مقابل توصيلة إلى فندق. إيهاب كسول. لا يمانع في ذلك. المهمّ عنده ألاّ يحمل إلى سيّارة أخرى، حقيبته الكبيرة. وضعت أمّه فيها ملابس كثيرة والشطّة الحارّة التي يحبّها، وبعض مؤونة غذائيّة ـ معلّبات، تكفيه إلى أن يجد وقتًا يذهب فيه للتسوّق. كأنّ فاتنة لا تعلم أنّ المطاعم تملأ الرياض.

هي تعرف، لكنّها وضعت تلك المؤونة ليستخدمها إن استيقظ من النوم ليلاً ولم يجد مطعمًا يطفئ جوعه. ابنها يشتهي الطعام

لحظة جوعه في شكل غريب. شهوته للطعام قويّة. وعلى رغم ذلك لا يأكل إلاّ لقمتين بعد هذا الجوع.

خافت أن يفيق كعادته في اللّيل يبحث عن شيء يسدّ هذا الجوع المتوحّش. لن يجد أخواته إلى جانبه ليسدّوا هذا الجوع. وضعت والدته شيئًا من المعلّبات، كي تنام مرتاحة البال.

* * *

تجلس فاتنة إلى جانب والده. يشربان نبيذًا أحمر. وضع أبوه أكثر من مئة قارورة على الطاولة. تمقت أمّه الكحول! وقف هو من فوق الدرج ينظر. يحاول أن يتأكّد من ملامح المرأة. هل هي فاتنة؟!

لكن والده لا يحبّ النبيذ ولا الويسكي. قالت فاتنة مرّة إنّه يحبّ البيرة. صُوره في سوريا ومصر تصوّر البيرة. في كل صورة تظهر علبة البيرة أو كأسها الكبير الذي تغطّيه الرغوة.

أصلاً لم يشرب والده في المنزل، يومًا. لم يره سكران في حياته! كانت فاتنة تقول إنّه يسكر.

يمسح إيهاب عينيه. يخشى أن يكون لا يزال نائمًا. يشير بإصبعه. دخل رجلان للتوّ إلى المنزل. أخذا والده إلى الصالون. أحد هذين الرجلين شرب كؤوسًا كثيرة من النبيذ. الآخر بدا كمن يعرف أمّه. قبّلها. جلس إلى جانبها. أمّه كانت سعيدة. تُقبّله هي أيضًا. تُقبّله بشبق.

لم يرها تقبّل والده بهذه الطريقة. هو لا يعرف أصلاً إن كانت تقبّله أم لا؟!

شفتا إيهاب تتحرّك. صوته واضح. هو يصرخ: «من هذا الذي اقتاده إلى الصالون وأقفل الباب عليه؟ كيف تجلس مع آخر؟ لمَ كل هذه السعادة؟ ما الذي يحدث الآن؟».

تخلع فاتنة ملابسها.

يصرخ: «كيف تفعلين هذا؟». لكنّها لا تسمعه.

جسدها عارٍ.

لا يزال يصرخ: «ماذا تصنع هذه المجنونة؟».

يضيع صوت إيهاب، وسط أصوات اللذّة. يُغطي الدم جسد أمه. اللون الأحمر حفظه من متابعة مشهد يمارس فيه رجلان الحبّ مع فاتنة! غطى كل شيء أمامه.

أنقذه صوت الهاتف. أوقف صراخه.

اقترب صوت الهاتف أكثر. يصحو شيئًا فشيئًا. رفع السمّاعة. هذا مأمور السنترال في الفندق الذي وصل إليه أمس.

ـ الساعة السادسة صباحًا.

رفع الغطاء عن جسده العاري. نزل ببطء. نظر بين فخذيه. ابتسم. وقف أمام المرآة. تمعّن في جسده. التفت إلى المناديل المرميّة على الأرض. اقترب منها. فتحها نظر إليها. لمّها كلّها في منديل واحد. رماها في سلّة مهملات الحمام.

نظر إلى وجهه. بشرة بيضاء. ضغط عليها بظفره. تلمّس الدم الذي خرج منها. مسحه على المرآة. ضغط على البشرة من

الجلد. يأخذ من الدم ويمسحه على المرآة. نظّف أسنانه بالفرشاة. خرج من لثّته دم. لم يمضمضه. لمسه بإصبعه. مسحه على المرآة.

اغتسل. لفّ المنشفة على جسده. نظر إلى المرآة وهو خارج من الحمّام. نزع المنشفة. مسح الدم. بلّلها بالماء ومسح الدم.

لبس ملابسه بسرعة وخرج. ذهب إلى الجامعة.

(ستمرّ فترة طويلة من دون أن يحلم بوالده وفاتنة. سينشغل عامًا بدراسته عنهما. يخرج من محاضرة ليدخل إلى أخرى).

«ليس سهلاً أن تعد نفسك لدراسة الطبّ. حتى العام الدراسي الأوّل وموادّه العامّة تُذكّر دارس هذا التخصّص دائمًا أنّه يدرس طبًّا. كثر أولئك الذين يحلمون بلقب طبيب»... يردّد عبارات أخرى كثيرة تشبهها كلّما قابل أحد زملائه في الثانويّة والذين لم يتخصّصوا في الطبّ.

محاولات أمّه لإقناعه بزيارتها ستبوء بالفشل. سيقول لها إنّ عليه أن يدرس. في أيّام الدراسة يدرس. وفي الصيف يدرس. وفي الأعياد يدرس. لم تضغط عليه. تقول إنّ أمنيتها أن يصبح طبيبًا. ستدفع له أيّ مبلغ يطلبه. لن تلحّ عليه في السنوات المقبلة. ستكتفي بصوته. المهمّ أن يحضر لها شهادة تثبت أنّ مهنته طبيب. شهادة تاريخيّة، ترسل منها نسخة إلى والده وأعمامه، كي تقول لهم إنّ ابن الخائنة طبيب.

لن يحصل على شهادة الطب. لن يحقّق حلمها. لن يثأر لها

من والده وأعمامه. ستجذبه فتاة إلى جوفها. (ستدمّره. ربما تنقذه). الأكيد أنّه لن يحصل على شهادة الطب.

* * *

فاتنة جميلة. حتى إخوة أبيه سعوا إليها. حكت هذا الكلام لبناتها. هو يسمع أحيانًا. ويترك المكان حينما تبدأ الحديث عن أعمامه وأبيه. تصفهم بالازدواجيين. تقول: «يأمرون بالمعروف وينسون منكرهم». تتمادى أحيانًا: «يصلّون في المساجد ويشربون الحشيش في الليل. يتقافزون في الصيف إلى مصر أو سوريا ليصرفوا أموالهم على النور والراقصات. يدفعون كل ما يجمعونه خلال العام. يقترضون مرّات كي يسافروا. يغيبون شهورًا خارج البلاد».

أعمام إيهاب تجّار. يعملون في المقاولات. ورثوا العمل عن والدهم. لا تقف قصص فاتنة عند هذا الحدّ. تقول إنّ والده قرّر أخذها وراء البحر الأحمر. إلى بلدها مصر. كان سيقتلها بعدما يُسقط الجنين (إيهاب).

تراجع عن السفر إلى مصر. خاف أن يكتشف أمره. احتفظ بالولد، «على الأقلّ سيثبت به للناس أنّه رجل». بهذه العبارة تبرّر لإيهاب لِمَ تركه أبوه يعيش. هي لا تخجل منه. تقصّ له الحكاية. تعيدها عليه مرّة كل أسبوع على الأقلّ. تقول إنّه جامعها بعدما أخذ مقوّيًا جنسيًّا من عند العطّار. تقول: «كيف سيتذكّر؟ كان سكران؟ لن يصدّق أبدًا أنّ العشبة التي أعطاه إيّاها علي وحيد العطّار نفعت».

يسمع هذه الحكاية منذ كان عمره ستّ سنوات. تحلفُ وتبكي وتُصرّ على أنّها لم تخن والده. تنظر إليه وتسأله إن كان يصدّقها؟ حتى حين يكبر، لن يجيبها يومًا. يجلس في حضنها ويبكي (يفعل هذا إلى أن يبلغ ١٢ عامًا).

مرّة سأل والده (حين كان عمره ٦ سنوات): «من هذا الرجل الذي تسأل عنه ماما؟ لماذا تبكي؟».

انطلق والده كعادته، حين يغضب منها، أو يفتح هو السيرة ذاتها. انطلق إلى العلاّقات الخشب. كسر ثلاثًا على ظهرها.

عاد إلى إيهاب. حمله. قرّبه من النافذة. كان كمن سيرميه منها. ينظر إلى أمّه ويقول: «هو ابن زنا. إن لم تعترفي مَنْ أبوه سأرميه من النافذة».

لم يبك إيهاب هذه المرّة. صمت ونظر إلى النافذة وما وراءها ثم إلى أمّه.

جاء عمّه في الوقت المناسب. كان من الممكن أن يموت. أن تنتهي حياته وهو في سن السادسة!

[٥]

انتهيت من الكتاب. كتبتُ كل الفصول. كل الفتيات الخمس. كنتُ بدأت بفاطمة فدَيَان ودنيا، ثم منال فهتون (هنا في بيروت). وأخيرًا فاتنة. بقيَ أن أراجع ما سجّلته فقط. وأن أدقّق في الزمن. سأبدأ من أوّل صفحة إلى الأخيرة كما رتّبتها. لكنّي أحتاج الآن إلى راحة فقط.

أنظر إلى المدفأة. قاربت النار على الانطفاء. لم يبق حطب لأشعلها. فرغتْ قارورة النبيذ الأخيرة في الشاليه. أتذكّر آخر عبارتين كتبتهما في حياة إيهاب (في هذه الرواية): «كان من الممكن أن يموت. أن تنتهي حياته، وهو في سنّ السادسة!».

ضحكتُ كثيرًا على هذه العبارة. لم أتمالك نفسي. كانت ضحكة هستيريّة. تُذكّرني بهذياني بينما أكتب صفحات هذا الكتاب. تُذكّرني بـ «أنا والرواية وهي» (رواية إيهاب). تذكّرني بالحقيقة والخيال، ومدى إدراكي لهما!

قمتُ من على الأريكة. اقتربتُ من باب البلكون الزجاجي. نظرتُ إلى الثلج الذي يغطّي جبال فاريّا. أدركتُ للتوّ، لماذا اختار جورج وسّوف الشاليه الملاصق للشاليه الذي أعيش فيه هذه اللحظات. منظر الثلوج التي تغطّي الجبال ساحر.

بحثت عن هاتفي المحمول. سجّلتُ مقطع فيديو لذلك الثلج الذي يغطّي كل شيء. هي لحظة تاريخيّة بالنسبة إليّ. أغمض عيني. أتخيّل ماذا كان إيهاب سيفعل لو قضى شهر عسل، هنا، مع فاطمة؟

أطرده وكل أشخاص الرواية من ذهني. أفتح عيني. النار انطفأت. لا تزال زجاجة النبيذ فارغة. أعرف أنّها لن تمتلئ من دون أن يخرج أحد (هذا تأثير الكحول). لا أدري ماذا أصنع.

طردتُه وحياتَه من رأسي. لا أرغب في الكتابة. أو بمعنى أدقّ لا أرغب في الشروع بمراجعة الرواية.

خطر إيلي العقيلي في بالي. اتصلت به. قلت إنّني أشعر بالجوع. قال سأرسل لك غداء. شرحتُ له: «لا. أرغبُ في الخروج. سئمتُ الرواية. هل تتناول الغداء معي؟».

أذكر لقائي الأوّل به. هو مدير مطعم «الحجر» وصاحبه. يقع المطعم في عيون السيمان. هو مدير أعمال المطرب جورج وسوف، أيضًا. هذا ما قاله لي. يُرافق إيلي جورج حين يأتي إلى فاريّا لقضاء أيّام في الشاليه الذي يملكه.

قابلت إيلي بالصدفة. كنتُ أبحث عن شاليه أقضي فيه بعض الأيّام. كان سمير معي حينها (سمير السائق، أخو إبراهيم).

طلبتُ من سمير، فجأة، أن يتوقّف عند مطعم لمحته. كنّا نبحث عمَّن يؤجّر لنا شاليهًا. الرجل المسنّ الذي يقف أمام

المطاعم، هو سبب وقوفنا. سأله سمير: «هل تعرف من يؤجّر شاليهًا لأسبوع؟».

دلّنا على إيلي الواقف غير بعيد من المطعم. بدا لي ضخمًا و«أزعر». كان يُشرف على تأجير زلاّجاتٍ ناريّة.

نزل إليه سمير. سأله إن كان يعرف شاليهًا للإيجار. لم يعره إيلي اهتمامًا. اقترب من السيّارة. قال لي: «الشاليه إلك؟». أومأت إيجابًا.

سأل: «هل أنت لوحدك؟». جاوبته بالطريقة ذاتها.

ابتسم: «ما في شي بنت أو صديقة... أو يعني... أنت بتعرف؟». ضحكت. قلت له: «أنا وحدي. أرغب في إنجاز روايتي».

سكت لبرهة. بدا كأنّه استوعب ما قلته. ضحك بصوت عالٍ. قال: «إيه ولو... عال وكاتب كمان. بنوفّر إلك أحلى شاليه».

نادى فتاة تقف معه وتساعده. أعطاها الفواتير. أكّد عليها ألاّ تؤجر بأقلّ من ٢٠ دولارًا. ركب السيّارة معنا.

الثلج يغطّي كل شيء. لم أشاهد منظرًا في حياتي على الطبيعة (حقيقة) مثل المنظر الذي أتمعّن فيه الآن. اكتفيت دائمًا بالتلفزيون في ما يخصّ الثلج.

أشعر بالبرد. اللون الأبيض كاف لتسري درجة حرارة منخفضة تحت جلدي. أرتعش. تصطكّ أسناني أحيانًا. مكالمات إيلي لا

تنتهي. معجبو جورج وسوف لا يكفّون عن الاتصال. هو يعتذر منهم بلباقة، لا تشبهه أبدًا.

أخيرًا وقفنا أمام الشاليه. نزلنا. اتصل بأحد. سأله عن الناطور. قال بصوت عال: «يا خيي ابن خالتي ومن السعوديّة شو المشكلة؟ خالتي اتزوّجت بالزمانات حدا سعودي وخلّفوا هالابن الخالة. تصطفل. ما ضروري تعرف قصصنا العائلية يا خيي. هو لوحدو. جايي يكتب رواية».

أقفل التلفون وصرخ، «يا سامر». نظر إلينا وابتسم: «يا خيي شو هاللبنانيين حشريين. ما بدّو يصدّق أنّك ابن خالتي».

* * *

قرّرت أن أرتاح قبل البدء بمراجعة ما سجّلته. خرجت مع إيلي. جلسنا في مطعمه، «مطعم الحجر». سألني إن كنتُ أنجزتُ الرواية. قلتُ بقي منها القليل. لم أتردّد في الإجابة عن: ماذا تكتبُ؟

حكيتُ له. قال: «العمى خمس بنات. وخمس تانيين دفعوا... وبالسعودية... شو عم تكتب يا خي أنت؟». ابتسمت.

سألته هل يمانع في ذكر اسم مطعمه واسمه في الرواية. ضحك: «اكتوب يا خيي. ليش ما تكتُب. المهمّ تكون أنت مبسوط. بس ما تكتب إنّو مطعمي فيهو بنات وهيك شي. دخيلك ما بدّنا ياخذو عن المطعم فكرة عاطلة».

لم أتعلّق بإيلي دفعة واحدة. لكن تحوّلت علاقتنا إلى صداقة. حين سيعرف أنّي انتهيت من الرواية سيأخذني لنحتفل. سننزل إلى المعاملتين بعد أن نتعشّى في مطعم سمك على طريق جونيه البحري. سأتعرّف على المطرب محمّد قمر. هو يُحبّ إيلي. سيحتفي بنا احتفاء لم أعهده من قبل في الأماكن التي سهرنا فيها، احتفالاً بإنجاز الرواية.

* * *

أجلس في فندق البورتوميليو من جديد.

اليوم الأربعاء الـ ٢٣ من نوفمبر (تشرين الثاني). استلم مندوب دار الآداب مخطوطة رواية «رجل وخمس نساء»، يوم الإثنين (أوّل من أمس).

لن يقدر إيهاب على كتابة روايته. كانت الشخصيّات وعلى رأسها إيهاب وفاطمة ودَيان تتحكّم بكلّ شيء. أنوي أحيانًا كتابة حدثٍ ما، فيغيّرون فكرتي. يقلبون الأحداث!

حسنًا... لا يقلبونها. لكنّهم يغيّرونها...

عدتُ مرّة أخرى إلى الهذيان. عدتُ أفكّر فيه وروايته وفتياته...

لكنّي انتهيت من الرواية. سلّمتها. لم أعد قادرًا على إضافة حرف واحد. ستُنشر بينما أنا جالس في بيتي في السعوديّة. متمدّد على الأريكة إلى جانب زوجتي.

سأنظر إلى تعبير وجهها وهي تقرأ في الصحف عن الرواية. ستطلب منّي نسخة. لن أعطيها. لن أسمح لها أن تثرثر وتتّهمني بكل تلك العلاقات.

أتخيّلها وهي تقول: «أنت فاسد، كيف تكتب قصصًا جنسيّة؟ ماذا سأقول لأهلي؟ أصلاً لن يعرفوا لأنّني سأوّقعها باسم فتاة»...

لن أبرّر. لن أردّ. سأضحك وأضحك وأضحك. سأجلس أتابع. سأتفرّج وسأقرأ: «البحثُ عن الكاتبة المجهولة»، التي وقّعت باسمها الرواية...

يجب أن أتهيّأ لكل ذلك. أن أتحرّر من الرواية ومنه. سأسترخي. سأنسى كل شيء...

* * *

دخلتُ غرفتي في الفندق. الغرفة تطلّ على البحر. رقمها ٥٠٣. غرفة «سينغل». تُكلّف ١٥٠ دولارًا في الليلة.

أجلسُ في البلكون. أطلب نبيذًا أحمرَ معتّقًا. أحتفل وحدي، احتفالاً يختلف عن ذلك الذي مع إيلي.

اتصلت بقسم «المسّاج» في الفندق. ستأتي أخصّائيّة العلاج الطبيعي بعد دقائق. ستسألني عن سبب زيارتي لبيروت. ستسألني عمَّ أكتب. ستسأل أسئلة كثيرة عن السعوديّة وفتياتها وشبابها. ستحكي كلامًا كثيرًا عن لبنان والحرِّيَّة والطوائف والسياسة. ستثرثر لتثبت أنّ «التغيير» آت، بل وقريب.

لم أزعج نفسي كثيرًا بكلامها. تمدّدت وتركت يديها تكسران ظهري. تخيّلت زوجتي. وجهها حين ستنظر إليّ وأنا «أتمسّج» على يد امرأة وفي غرفة مغلقة لوحدنا.

تأكّدت أنّها خرجت حين اختفت الثرثرة. كان يفترض بها أن تريحني لا أن تُزعجني بكلامها الذي لم ينته حتى وهي تغلق الباب وراءها.

وقعت عيناي، بينما كنت أفتح باب البلكون، على بروشور. كان وُضع على طاولة قريبة من الستارة. على غلافه امرأة شبه عارية. لم أتمكّن من معرفة ما يعلن عنه لأنّ الكتابة باللّغة الفرنسيّة. استنتجتُ أنّه مركز تجميل طبّي.

اتصلتُ بموظّفة الاستقبال. سألتها عن المركز. أعطتني «التحويلة». اتّصلت. سألتْ. كانت الإجابات تناسبني: «يستقبلون شبّانًا، ويزيلون شعر الوجه بالليزر». حدّدتْ المتحدّثة موعدًا بعد ساعة. شكرتها. أقفلتُ الخطّ.

جلست على حافّة السرير. تذكّرتُ وسامته. تذكّرتُ حاجبيه الجميلين، وذقنه المرتّبة. لم أكتب هذا الكلام، لكنّي أعرف أنّ فاطمة ودَيَان ومنال ودنيا وهتون قلن له إنّهنّ معجبات بحاجبيه وذقنه. قلن أيضًا إنّ مؤخّرته جميلة. قلن ببساطة: «وسيم يخزي العين».

حاجباي كثيفان. أخفّفهما وأحفّهما كلّما زرت الحلاّق. لا يجيد بعض الحلاّقين قصّ الحواجب. كانوا دائمًا يلعبون

بحاجبي، ليبدو الأيمن غير الأيسر. ذقني هي الأخرى تحتاج إلى تحديد. شعر وجهي ينمو على الرقبة أكثر من أيّ مكان آخر. أنظر إلى المرآة أكتشف سوءًا واضحًا في التوزيع.

سأذهب إلى المركز. سأطلب منهم أن يقدّموا لي اقتراحات أخرى. سأحدّد حاجبي وذقني.

سأبدو أجمل منه. لا يهمّ كم سأدفع. المهمّ أن أفوقه وسامة، استعدادًا للظهور يومًا على شاشات التلفزيون (بعدما أعترف بأنّني صاحب الرواية). يكفيه أنّه عاش سبع سنوات بين فتيات من نسج خيالي. ماذا يريد أكثر من عشر فتيات. خمس منهنّ أحبّهنّ وأحببنه. وخمس دفعن له كي يمارس الحبّ معهنّ. ماذا يريد متعة أكثر من ذلك؟

سأفاجأ في مركز التجميل، بخمس فتيات سيعتنين بي. الخمس رشيقات. لا يتجاوز عمر أكبرهن ٢٩ عامًا. كل شيء في هذا المركز جميل. طريقة استقبالهنّ. ملابسهنّ الموحّدة. قطعة واحدة لونها «بمبي». تصل إلى حدّ الركبة. وتكشف أذرعهنّ. رائحة عطرهنّ فوّاحة. العطر ذاته أشمّه حين تقترب أيّ واحدة منهنّ. أحسّ باللمسة ذاتها. تلك ستلمس وجهي والأخرى ستلمس ذقني. كل واحدة على حدة. كل تقوم بعملها.

شعرت للحظة بمعنى رجولتي ومعنى الحياة والراحة. نسيت زوجتي. نسيتُ إيهاب فعلاً. قرّرت أن أنساه، منذ سلّمت الرواية. خرجتُ من الحقيقة إلى الخيال. ربما العكس. لا أعرف، خصوصًا وأنا هنا في هذا المركز وبين الفتيات الخمس.

سأخضع بعد كل ذلك، لجلسات مكثّفة لتقليص محيط «بطني» البارزة. سأخسر كيلوغرامات كثيرة. حتى مؤخّرتي سيُعدن نحتها. لون بشرتي سيتغيّر. شعري ومسام وجهي. أظافر يدي ورجلي.... لن يبقى شيء من دون أن يصلحنه. يستخدمن أحدث التقنيّات.

لا تذهبوا بعقولكم بعيدًا، فالأمر لا يصل إلى الحد الذي قد يتخيّله بعضكم. هذا مركز تجميل محترم.

انتهت

الأربعاء، ٢٣ نوڤمبر

[١]

اتّصلت دَيَان به، لتقول إنّها تنتظره عند سينما الكونكورد.

سيسهران. كان هذا هو الاتفاق. حلم كثيرًا بهذا الاتفاق ـ أن تسهر معه في بيروت. جاء من السعوديّة من أجل هذا اليوم. أراد أن يسهر معها في لبنان. راوده ذلك منذ عرفها للمرّة الأولى في جدّة، منذ قالت له إنّها لبنانيّة دُرزيّة. لم يكن يحبّ مقابلتها هناك، في مطاعم جدّة. كان ذلك بالنسبة إليه صعبًا. يضطر للتخطيط قبل كل مقابلة بأسبوع على الأقلّ. ليس لأنّ دَيان لا تقبل بذلك. بل لأنّه لا يسكن في جدّة. (لاحقًا سينتقل إليها. سيسكن فيها ويتزوّج).

كان يختلق أعذارًا لمديره كي يسافر. في كل مرّة حجّة جديدة. يزعم تارة أنّه سيذهب لمقابلة عميل، وتارة أخرى أنّ المستودع هناك يحتاج إلى جرد. في بعض الأحيان يضطر إلى طلب إجازة من إجازاته السنويّة.

كانت علاقته متوتّرة في تلك الفترة بفاطمة. اتفقا على أن ينفصلا. المشكلات تزيد يومًا بعد يوم. شكّه فيها لم يكن لينتهي. عمله الجديد شغله قليلاً عنها. فاطمة أيضًا بدأت العمل في وظيفة جديدة في البحرين. الصدفة وحدها قادته لأن يتدرّب

في جدّة. (سافر إلى جدّة، قبل أن يتعرّف إلى ديان في عمله الجديد. كان ترك كلّيّة الطبّ، حين عرضت عليه تلك الشركة أن يتحوّل من عمل جزئي إلى عمل بدوام كامل. شركة لبيع الملابس. قرف من الدراسة. حُرم من حضور اختبارات موادّ كثيرة، بسبب غيابه. ترك الجامعة. قرّر وفعل).

أمضى في تلك المدينة الكبيرة ستّة أشهر. تعرّف على دَيَان. عرّفه بها زم له ومدير في المحلّ، اللبناني مالك. كان يدرّبه. أُعجب بإخلاصه للعمل.

لم يكن مالك ليعرف أنّ علاقة إيهاب بدَيَان ستتطوّر. كانت دَيَان زميلة خطيبته، هَنَا، في الدراسة. درست الفتاتان في معهد الفنون المسرحيّة في الجامعة اللبنانيّة.

أراد مالك أن يسعد خطيبته وزميلتها. أراد أن يعرفا عن المسرح السعودي. حكى لهما عن زميله في العمل إيهاب، وعن حبّه للمسرح. لم تصدّق الفتاتان. لم تكونا لتتوقّعا أنّ في السعوديّة مسرحًا حقيقيًّا. بل تخيّلا أنّ هذا الشابّ لن يفهم حقيقة المسرح الذي تعلّماه في الجامعة. ابتسما حين حكى مالك لهما عنه. همست دَيان لهَنا: «تخيّلي... مسرح في السعوديّة ومن دون امرأة».

شرح له أنّ خطيبته وزميلتها درستا المسرح، ويمكنه الاستفادة منهما. فابتسم.

عزمه مالك إلى عشاء في منزل أهله، حيث رأى دَيان للمرّة الأولى.

كانت المفاجأة واضحة على وجهي الفتاتين، خصوصًا حين صحّح لهما مفهومهما لكلمة سينوغرافيا. انتبه إلى أنّ الفتاتين تصفان ديكور المسرحيّة بهذه الكلمة. نبّههما إلى أنّ الديكور عنصر من عناصر السينوغرافيا الخمسة.

شعرت الفتاتان بخجل. ضحك مالك كثيرًا. بدأ النقاش يحتدم بين الثلاثة. اندهشتا حين عرفتا أنّ إيهاب يعرف قديم المسرح اللبناني وجديده. فاجأهما أكثر أنّه عرض مسرحيّة في لبنان، خصوصًا دَيان التي لم تكن لتتخيّل أنّ أخبار المسرحيات اللبنانيّة كلّها تصل إلى السعوديّة. وهي لم تسمع عن مسرحيّة سعوديّة واحدة، ولم تسمع عن مسرحيّته التي عرضها في بيروت.

ستلتقي به كثيرًا. ستشعر للحظة أنّه عبقري صغير. ستصفه بـ «الأخوت».

تعرّفت عليه أكثر. تحوّل الكلام من المسرح إلى الحبّ. حكى لها عن فاطمة وحكت له عن فراس. الشبه الذي جمع قصّتهما لم يكن مجرّد صدفة.

هي كانت من مواليد برج فاطمة، وهو كان من مواليد برج فراس. فسّرا بهذه المعلومة سبب تشابه قصّتها وفراس وقصّته وفاطمة. المشكلات ذاتها. كل شيء في القصّتين متشابه. غيرة فراس عليها، وغيرة إيهاب على فاطمة. شعرا أنّهما يعرفان بعضهما منذ فترة.

اقتربت منه أكثر واقترب منها أكثر. لم يفلح كلامه على أنّه لا

يزال يحبّ فاطمة في إيقاف الودّ بينهما. حتى محاولتها الاختفاء عنه لأيّام قليلة لم تصنع شيئًا. ظلاّ يقتربان أكثر وأكثر.

حاولت أن تخبره بأنّها دُرزيّة ولا يمكنها الزواج منه ولا المضي في هذه العلاقة. حاول أن يلمّح إلى أنّه لا يزال يعشق فاطمة، لكن كل ذلك كان يقرّبهما أكثر. الصراحة بينهما قرّبتهما.

وعلى رغم أنّه كان اتفق مع فاطمة على الانفصال، فإنّه شعر بتأنيب الضمير. لم يلمس دَيان، لكنّه كان يتصل بفاطمة كلّما شعر أنّه اقترب أكثر من دَيَان.

كان يحاول أن يكفّر عن ميله إلى دَيان بالاتصال بفاطمة. لم يستطع أن يقنع نفسه بأنّه لم يخن فاطمة. برأيه مجرّد ميل قلبه نحو ديان يعدّ خيانة. لكنّه لم يستطع كبح قلبه، خصوصًا في وقت اتفق هو وفاطمة على أن يفترقا.

استمرّ في مقابلة دَيان، حتى بعد عودته إلى الرياض. ظلّ يتحيّن الفرص كي يسافر إلى جدّة ليقابلها.

لكن دَيان عادت إلى بيروت، لم تستطع أن تعيش مع أهلها في جدّة. أرادت أن تعود لتعمل في المسرح. في المجال الذي تحبّ.

* * *

نظر إلى ساعته. شعر أنّه تأخّر عن موعده، بالكاد سيصل إلى سينما الكونكورد. لم ينشّف شعر رأسه. أراد أن يبقى رطبًا.

نفض شعره من الماء. نشّف جسده. ارتدى ملابسه بسرعة. ليس من عادته أن يلبس بسرعة. تعطّر من «الدينهل ديزاير» الذي تحبّه فاطمة ودَيَان. تأمّل نفسه في المرآة مليًّا.

تناول ملقط الشعر. التقط أربع شعرات من تحت حاجبه الأيمن، وخمسة من تحت الحاجب الآخر. خلط كريم «بالمرز» بـ «الجلّ» جيّدًا، قبل أن يفرك به شعره. عطّر يديه مرّة أخرى. وضع باكيت دخان في جيبه. نظر نظرة أخيرة إلى نفسه في المرآة. هذه المرّة حدّق في شعره. نظر حوله وتأكد أنّ هاتفه المحمول في جيبه. خرج.

فندق الكازا دور ليس بعيدًا من سينما الكونكورد، لكنّه لا يريد أن يتأخّر. المشي سيستغرق ١٠ دقائق وسيكلّفه عرقًا يخفي رائحة عطره الجميلة.

كان يفكّر بينما هو واقف في شارع الحمراء غير بعيد من ستار بوكس والشي أندريه، ينتظر سرفيسًا يقلّه إلى السينما. أين سيسهران؟ في الحديقة أم في «السوليدير» (وسط البلد) أم في مكان آخر؟

لن يشغل باله، فهي صاحبة الفكرة، حتمًا ستختار المكان.

ركب السرفيس. رنّ المحمول. لهجته مخلطة. يحاول أن يقلّد اللبنانيين في حديثه. «هلأ بكون عندك، ما راح طول، أنا

بالسرفيس». لكن سائق التاكسي سيسأله السؤال ذاته الذي يسأله كل سائق تاكسي حين يركب سرفيسًا. «من وين الأخ»؟ وهو يردّ مقلّدًا كعادته: «احزر. شو بتتوقّع، من وين أكون»؟

بعضهم يطلب منه أن يتكلّم كي يتعرّف على جنسيّته. لكن لم يصدف في الثلاثة أسابيع التي قرّر أن يقضيها في لبنان من أجل دَيان، أن عرف أحد هؤلاء السائقين الثرثارين جنسيّته.

سؤال آخر يحضر حين يقول إنّه سعودي: «ليس هذا وقت سياحة. ماذا تفعل هنا؟ هل تدرس؟»

ردّه بعبارة: «أعمل»، يثير تساؤلات كثيرة، لدى هؤلاء السائقين. «سعودي وتعمل في لبنان! ماذا تعمل؟ هل هو عمل خاص؟». يجيب وهو مبتسم دائمًا: «أعمل في الكتابة. أنا روائي. أنشر رواياتي في دور نشر لبنانيّة». تتلاحق بعد هذه العبارة أسئلة كثيرة. مثلاً: عن ماذا تكتب؟ وهل يسمحون بدخول رواياتك السعوديّة؟

كانت دَيان واقفة تلوح بحقيبتها كالعادة. ما إن وقف إلى جانبها حتى قالت:

ـ شو ما بتعرف توصل عالموعد أبدًا؟ حكيتلي خمس دقايق وراح تكون هون.

ـ تأخّرت دقيقة واحدة.

ـ وين بدّك نسهر؟

ـ أنا على بالي بدّك تفوتي فيلم.

ـ لا جاي عبالي نسهر بشي بار أو بشي مكان «نايس». يالله ما حتصحّلك هالفرصة بحياتك. وين بدّك تسهر؟

ـ وين بدّك نسهر؟

ـ ما بعرف.

بعدما ألحّت عليه، اختار «الكالينكا». «جوّه هادئ». زاد: «يوم الثلثاء، ما بكون عجقة». ابتسمت على لكنته. وافقت. اختار أن يستقلاّ سرفيسًا.

كانت المرّة الأولى التي يذهبان فيها معًا إلى «الكالينكا». لاحقًا ستكتشف أنّ «الويتر» صديق لزميلة لها في الجامعة. لن يعودا إلى هناك سوى مرّتين فقط. هي لا تحبّ أن يربط أحد بين جلوسها في بار وبين أنّ من تسهر معه سعودي!

عطرها فوّاح. كانت أنيقة. للتوّ لحظ ذلك.

نسي فاطمة. على رغم أنّها تفكّر فيه هذه الأيّام كثيرًا. تتناقش مع خالتها عنهما. تؤكّد لها أنّه طيّب. هالة تسألها لماذا تنكّدون على بعض؟

[٢]

ينزلان الدرجات التي تقودهما إلى «كالينكا». «البار» تحت الطابق الأرضي، كأنّه في بدروم. لم تدخل هذا المكان من قبل.

نظر إلى مؤخّرتها. ثمّ أدار وجهه بسرعة.

اختار زاوية ضوؤها خافت. الصدفة وحدها فرضت غياب الزبائن. البار لن يمتنع عن تقديم المشروبات لهما. أملاً في قدوم زبائن آخرين.

كانت زاويتهما بعيدة عن نظر «الويترز».

دَيَان شربت ٢ «آيس فودكا». شرب هو أربعة. كانا يتحدّثان من دون توقّف. عن القدر والحياة والله... عن المسرح والكتابة والعباقرة. عن مستقبلهما. عن الزواج وكيف ينظر كل واحد إليه.

لم يتحدّثا في ذلك بإسهاب عندما كانا يتقابلان في جدّة، فأطول مرّة جلسا فيها لم تستغرق أكثر من ساعة.

أخبرته أنّها فكّرت في حياتها بعد ٣٠ سنة: «هل سأجيء لمقابلتك لو زرت لبنان؟ أم سأنشغل وأعتذر؟ هل سأتأدّب في معاملتي لك، أم سأتركك وأخرج كلّما غضبت، وأصرخ عليك أمام كلّ الناس؟».

ضحك.

حتى هنا، لا تلبث دَيَان أن تشير له إلى أنّها درزيّة، ولا يمكنها أن تتزوّج من غير «ديانتها».

هو بدوره يزعم أنّه يستطيع أن يختار من يشاء. ينسى أنّه يريد المنصب كي تعيش فاتنة وبناتها في رغد. يزعم أنّه يريد الهجرة. يتحدّث عن أمنيته في أن يعيش في بلد غير عربي وفي منزل مليء بالكتب، يقرأ ويقرأ ويقرأ. يكتب لنفسه. لا يهتمّ لو نشرت كتاباته، أو لا. سيوران يقول إنّ الكتابة من أجل القُرّاء لا تستحقّ أن تُقْرَأ. الكتابة من أجل الكتابة هي ما يستحقّ أن يُقْرَأ فقط. هو يؤمن بهذا الكلام. ويحكيه لديان. لا يلبث أن يذكر أسماء مفكّرين أو مقولات لهم يحفظها عن ظهر قلب.

الكلام يجرّ كلامًا. تكلّمت من جديد عن علاقتها القديمة. هي تكلّمت عنها من قبل، لكنّها تكمل بعض النواقص. تكلّما أيضًا عن الأنا والحبّ والعشق.

هو لا يترك شيئًا من دون تعليق. فلسفته حاضرة دائمًا.

تكلّم عن فاطمة ومشكلاته معها من جديد، على رغم أنّه يرفض أن تتصرّف فاطمة مثله. أن تحكي عن علاقتهما مع أحد آخر، فتاة أو شابّ. لا ينكر ذلك بل يؤكّده لديان ولا يعرف كيف يسمح لنفسه بما لا يسمح به لفاطمة.

مدّ قدمه. لامس قدمها. يلمس يديها الآن. تقترب تدريجًا

نحوه بينما يتحدّث. تَنَفّسَ أنفاسها القريبة جدًّا منه. اقترب أكثر. كانا يقتربان ببطء. التصقت شفتاهما.

(لم تكن القبلة الوحيدة، في تلك الليلة. تبعتها قبلات).

انتهت اللّيلة. خرجا من الكاليناكا. قبل أن يصعدا الدرج، طلب أن تحضنه. فعلت. فاطمة أقصر وأنحف بكثير. ها هو يلاحظ جسم دَيَان للمرّة الأولى.

سيوصلها إلى منزلها. هي ستعتاد على ذلك.

لن يتركها يومًا تذهب وحيدة، طيلة فترة مكوثه في بيروت.

في التاكسي حصل شيء غريب. الناظر إلى وجهه يكتشف اندهاشه.

باتت تقبّل يديه بشبق. سمحت له أن يلمس جسدها. سمحت له أن يقبّل يديها. شعر بالخجل لأنّ راكبًا آخر يجلس إلى جانب السائق، استقلّ السرفيس معهما.

لم تفعل ديان هذا، لم تظهر هذا الشبق من قبل في جدّة ولم تلمّح إليه يومًا.

وصل التاكسي. شعرا أنّ المسافة كانت قصيرة. باحا بذلك. كانا يتمنّيان أن يدور بهما التاكسي في لبنان.

نزل معها. أوصلها إلى باب عمارتها.

استقلّ سرفيسًا آخر وعاد إلى الفندق.

* * *

ما إن وصل إلى غرفته حتى اتصل بها.

كان متمدّدًا على السرير عاريًا إلاّ من البوكسر. قال إنّه يريد أن يعرّيها ليُقبّل كل جزء في جسدها. (هذه هي المرّة الأولى التي يقول فيها مثل هذا الكلام لفتاة بعدما تعرّف على فاطمة).

ضحكت وسألته: «لو حصل هل تطلب شيئًا آخر؟».

سكت لبرهة:

ـ كل ما أعرفه الآن هو أنّني أريد فعل ذلك. ربما بعدها أطلب شيئًا آخر.

ضحكت. سألت: «ماذا لو أخذت كل ما تريد؟».

ـ لا أعرف.

ـ أفضل أن تبقى مشتاقًا على أن تختفي بمجرّد أن تأخذ ما تريد.

سكت لبرهة ثم قال: ربما كان هذا أفضل لي ولك.

* * *

حين استيقظ في اليوم التالي (الأربعاء: ٢ أبريل ٢٠٠٤)، وجد رسالة قصيرة، من دَيَان، في هاتفه المحمول.

الرسالة وصلت عند التاسعة. الآن الثانية عشرة ظهرًا:

«كل ما كان ليلة أمس هو كذبة أبريل. لا تصدّق القبلة ولا حتّى ما حدث بعدها في التاكسي، ولا الكلام الذي دار بعد وصولك الفندق».

ضحك كثيرًا. خرج إلى «بلكون» غرفته. قال لنفسه بصوت عال: «أخذت ما تريد. عرفت كيف تلعبها صحّ». ثم همس: «لا فرق بينها وبين فاطمة».

اتصل بها.

بدأ المكالمة بضحكة، وردّت هي بضحكة أيضًا.

ـ كانت كذبة أبريل إذًا؟

ـ نعم. «ما تكون مفكّر غير هيك. كل اللّي صار أمس كذبة أبريل ما أكتر».

ـ كانت أحلى كذبة على أيّ حال.

قال لها إنّه سيعود العام المقبل إلى بيروت كي تكذب عليه كذبة أخرى.

هو سيعود العام المقبل. سيخبرها بأنّه يكتب رواية عن علاقة شابّ بفتاة. ستسأله: إذا كان سيكتب عن كذبة أبريل أم لا؟ سيضحك. سيقول:

ـ ربما، لست متأكّدًا.

ـ كيف منّك متأكّد، هاي أهمّ شي بعلاقتي فيك، هاي ماستر علاقتنا.

سكت. ثمّ قال: «أنا أكتب علاقتي بفاطمة». ردّت: «أعرف. أعرف أنّك مهووس بها. لكن كيف ستكتب عن علاقتك بفاطمة من دون أن تكتب عنّي؟ ألم أؤثّر على تلك العلاقة؟».

ضحك كثيرًا. سيتردّد في الكتابة عنها. لكنّه سيتّصل يومًا بها وسيسألها عن الاسم الذي تريده لنفسها في الرواية. طلب منها أن تختار، فهو لن يكتب الأسماء الحقيقيّة. اقترح عليها أسماء كثيرة تؤكّد لبنانيّتها. لكنّها رفضت. ببساطة قالت إنّها تريد أن يكتب اسمها الحقيقي. تريد أن تقرأ عن دَيَان لا عن غيرها.

في تلك المكالمة تحديدًا حين كان هو في جدّة، سألته عن كذبة أبريل وعمّا إذا كان سيكتب الحقيقة. قال إنّه سيفعل في حكايتها معه، لكنّه لا يضمن لها الحقيقة في كلّ الرواية. طلبت دَيَان طلبًا آخر. طلبت أن تكون أوّل نسخة لها. كان قرّر أن تكون النسخة الأولى لفاطمة. رغم ذلك قال:

ـ أنا لم أعد فاطمة. وهي لم تطلب. إن كنت تريدين، فالنسخة الأولى من نصيبك، والثانية لها.

ستحبّ دَيَان ذلك، ستؤكّد عليه ألاّ يغيّر أيّ شيء في ما دار بينهما. أن يكتب كلّ شيء كما حدث بالضبط.

[٣]

كان خالد أرسل كعادته، قبل خروجه من المصرف، عند الخامسة، أوراقًا إلى فاطمة. الأوراق مُصوّرة. تحوي نظريّات وقواعد تسويقيّة وماليّة حديثة. يُعطيها نحو ٢٠ ورقة، يومًا بعد يوم. تتراكم في شقّتها. تجد في كل ورقة خطوطًا تحت الأسطر والعبارات المهمّة. يكتب، أحيانًا، ملاحظات جانبيّة. يستفيض في الشرح في وجه الورقة الآخر، إذا استدعى الأمر ذلك. يتصل بها بعد الحادية عشرة ليلاً، ليتأكّد إذا كانت قرأت ملاحظاته واستوعبتها أم لا؟

هي كسولة. لا تحبّ قراءة الكتب والبحوث الاقتصاديّة تحديدًا. اتّفقا على أن يراقبها، بعدما استنتج وحكت له عن كسلها. يدوم الاتصال ساعتين إذا كان قصيرًا. يمتدّ في الغالب إلى ثلاث ساعات. تقول له إنّها طموحة. يقول: «لهذا السبب أهتمّ بك». تقتنع.

قبل أن يُعلّق على طموحها، للمرّة الأولى، كانت تتساءل: «لَم يضيّع وقته معي، ولا يُخفي عنّي أسرار مسؤوليه والمعلومات السرِّيَّة التي لا ينبغي أن تصل إلى أذن أيّ موظّف؟».

تُصدّق أنّ طموحها يُسخّر لها ما تعلمه خلال ١٥ عامًا في هذا

المصرف. ستكره اتصالات إيهاب المتكرّرة، أثناء مكالمتها مع خالد. لن تكترث لو اتصل ٤٠ أو ٥٠ مرّة. هو يفعل ذلك حقيقة. لن تقطع يومًا مكالمتها مع خالد لتُجيب عليه.

يُدخّن، بينما يتّصل بها، أكثر من ١٠ سجائر. تطلب منه الاقتناع بأنّ ساعات مكالمتها مع خالد بعد منتصف الليل تقتصر على الحديث في العمل.

ـ أنا أتعلّم منه. ثم لا يحقّ لك التدخّل في حياتي. نحن لا نصلح لبعضنا.

يبدو هذا الكلام جديدًا عليه. لم يسمعه قبل خالد. لا يرضى أن تتركه من أجل آخر.

يكره جدّة بسبب خالد. يعتقد أنّهم لو لم ينقلوا عملها من الرياض إلى جدّة لما تعرّفت عليه. يلعن المصارف. يتمنّى لو عملت معلّمةً في مدرسة. «حينها لن تقدر على تبرير مكالمتها».

حين سينقلها المصرف إلى الرياض، نقلة قصيرة، وتعود بعد أقلّ من شهر، سيجزم لها:

ـ تحبّين خالد، نسيتيني. جسدي خرج من حساباتك. كلّما حاولت الاقتراب منك تقذفينني بعيدًا. قبل خالد، كنتِ تقبّلينني بشغف. كنتِ تتصلين عليّ في اليوم عشر مرّات. تكلّمينني في الليل حتى الفجر. تطلعين معي كلّما سنحت الفرصة. لا ترفضين دقائق نقضيها بين الطرق السريعة. تمسكين يدي. لا تنقطعين عن

رؤيتي أكثر من يومين. تقعدين فوقي في أيّ مطعم ندخله من دون أن أطلب أو ألمّح. لم تهتمي يومًا لخناقاتنا وصراخنا اليومي. تنهين ذلك بشبق مجنون، خصوصًا حين أرفض الردّ على مكالماتك. ترسلين رسالة تطلبين أن أمرّ عليك لنخرج.

يدرك أنّه يبالغ في كلامه، وأنّها لم تفعل ذلك دفعة واحدة. خطّطت لإقصائه خطوة خطوة، بعد شهرين على دخول خالد حياتها. سيصدّقها حين تقول: «حصل كل شيء فجأة من دون أن أحسّ. أسرني بعد مئات المكالمات الطويلة. لم أقرّر بسرعة».

هي لن تُبعده، فجأة، حتى بعد اقتناعها بأنّها معجبة بخالد. ستخرج معه كلّما ألحّ. فهي تكره سماع «اسطوانته». ستجلس على ركبته حتى تنتشي. لن تُقَبّله، ولن تسمح له بتقبيلها. سترضى أن يلمسها حيث شاء.

لكن، بمرور الأيّام، سيصعب إقناعها. سيضطر إلى اختراع حيلة كل مرّة. سترفض الخروج معه بحجّة عدم رغبتها في الوقوع في «الخطأ». سيصير اقتناعها بالخروج معه أشبه بمعجزة. كأنّهما يعيشان مراحل بداية علاقتهما، في كل شيء سوى القبلة، إذ ستبرّر بأنّها لا تحب رائحة السجائر في فمه.

* * *

اليوم، إحساس إيهاب بالضيق شديد. استنفد كل حيله. أخذها في سيّارته. عزمها على عشاء في مطعم مصري. أكلت «أم علي» التي يحبّها هو أيضًا. بعدما خرجا، طلبت منه أن

يأخذها إلى البيت، فهي تشعر بالنعاس، لكنّها لم تلحّ، مثّلت النوم لنصف ساعة منذ خروجهما من المطعم. كان ينظر إليها وهي «نائمة» إلى جانبه في السيّارة. طاف بها كل طرق جدّة السريعة. يتمنّى لو أنّهما زوجان يسافران الآن بين مدن السعوديّة. يمارسان عادتهما القديمة. المداعبات في السيّارة.

بدأ اليأس يتسلّل إليه، فكلّما مدّ يده إلى بنطلونها تأفّفت. بعد ثلاث محاولات صرخت في وجهه. طلبت أن يأخذها حالاً إلى البيت. ترجّاها، من دون فائدة. استغلّ عدم معرفتها بطرق جدّة. زعم أنّ بيتها يبعد نصف ساعة. بدأت الصراخ. أكّد لها أنّها ستصل خلال ٢٠ دقيقة.

جسده الآن مشتعل. كيف يفوّت الفرصة؟ تعب حتى أقنعها بالخروج معه. يعرف أنّها ترغب به في هذه اللحظة. قال لها إنّه سيفعل شيئًا ويخاف من غضبها. أصرّت أن تعرف. خافت من احتمال شكّه في أنّها اتصلت بخالد بينما كانت في حمّام المطعم. تعرف أنّه يفكّر بهذه الطريقة دائمًا. خافت ألاّ يأخذها إلى شقّتها.

خلع بنطلونه. ثم السروال الداخلي.

صرخت. أدارت وجهها. طلبت منه أن يرفع البنطلون. تجاهلها وبدأ في مداعبة نفسه. تمالكت نفسها. سكتت، بعدما قالت بصوتٍ عال: «خلّص.. وخذني على البيت». وضعت يدها على أذنيها حين تأوه بصوت واضح. أصدر الأصوات التي اعترفت له كثيرًا بأنّها تثيرها. كانت تختلس النظر إليه.

طلب منها أن تضع في يده قليلاً من المرطب لو كان في شنطتها. يعرف أنّها تحمل نوعين أو ثلاثة من «اللوشن». لم تتردّد. مدّت يدها إلى حقيبتها. ومن دون أن تدير وجهها فتحت غطاء العلبة ووضعت له كمّيّة كبيرة في يده. فعلت. على رغم أنّها ألحّت عليه أن يعيدها إلى شقّتها.

فكّرت في أن ترمي رأسها على فخذه. لكنّها لا تريد. كانت قرّرت قبلها بيوم أنّها مضطرة إلى الاختيار، فلا يمكنها الشعور بالشبق تجاه رجلين في آن. احترقت شهوة وهو يفعل ذلك بيده. تأجّجت غريزتها. أدركت أنّها كانت مشتاقة إلى أن تسمع صوته منتشيًا. انتبهت أيضًا إلى أنّها لم تهتمّ باحتمال أن يراهما أحد من سائقي الشاحنات.

* * *

تركها عند البناية. غادر الشارع بسرعة. شكّ في أنّها ستصعد لتبدّل ملابسها وستنزل لتركب مع خالد. فكّر في العودة. خاف أن يتيقّن من خيانتها.

حينها، كانت دخلت شقّتها. اتصلت بخالد. مضى نصف ساعة فقط قبل ركوبها سيّارته. بدت له في حال كئيبة. لم يشأ أن يسأل، كعادته، هل قرأت الأوراق؟ ولمَ طلبت منّي الحضور في هذا الوقت (الحادية عشرة ليلاً)؟ لم تستغرب على رغم أنّه كان يوبّخها حين تخبره أنّ أحد زملائها في المصرف أوصلها إلى بيتها. يرفض خالد الفكرة. لا يقبل مبرّرًا مثل: «أنا لا أعرف

أحدًا في جدّة». كما أنّه لا يُصدّقها حين تقول: «والدي يوصلني إلى أيّ مكان حين أكون في الرياض». تحبّ غيرته.

عادت إلى شقّتها، بعد ساعة. الهاتف الثابت يرن. كانت أقفلت الخليوي.

- شاهدتك وأنت تركبين معه السيّارة.

- كنت مكتئبة. أردت أن يسمعني أحد.

سكت. هي لم تتكلّم. قال: أفتقدكِ. ردّت: أنا أفتقدكَ أيضًا. أتبع: أحبّكِ.

أغلقت الهاتف وبكت كثيرًا. لم تفتح جوّالها. رنّ الهاتف أكثر من ٢٠ مرّة.

انهمر مطر بغزارة. لم تمطر من قبل، منذ عملت في جدّة. سمعت كثيرًا عن مطر هذه المدينة الذي يُغرقها، لكنّها لم تعشه.

فتحت النافذة. (شقّتها في الدور السابع. تقع البناية على شارع عام). تعبر سيّارات كثيرة. كل النوافذ في البنايات المقابلة مفتوحة، رغم أنّ الوقت جاوز منتصف الليل، واليوم ليس عطلة.

تبتسم. تُحدّث نفسها: «الناس هنا لا يخلدون إلى النوم».

لا يزال الهاتف يرنّ. فصلت سلكه. عادت إلى النافذة. شمّت رائحة المطر. بكت مجدّدًا. أخرجت رأسها من النافذة. لم تكترث إن كان هناك من يراها. نظرت إلى السماء. قطرات

المطر تهطل على وجهها. أغمضت عينيها. المطر لا يتوقّف عن الانهمار. تحسّ بقطرات كبيرة. تحسّ نفسها تحت «دُشّ» كبير. كأنّها تستحمّ في الشارع، عارية. وحدها في مدينة. تفكّر في أنّها على خطّ تماسّ بين حياتين مختلفتين. يبرق النور في عينيها المغمضتين.

تسمع أبواق السيّارات، فعلى رغم أنّها في الطابق السابع، لمحها شبّان يقودون سيّاراتهم تحت المطر.

لا تكترث. يبلّل الماء شعرها. يدلف من شعرها ووجهها إلى رقبتها. يصل إلى حلمتيها. يقشعر بدنها. تستغفر. تبكي. تُسبّح.

أغلقت النافذة. دخلت حمّامها. خلعت ملابسها. لم تنظر إلى المرآة كعادتها حين تتعرّى. لم تفكّر في لمس مؤخّرتها وثدييها هذه المرّة. ولم تتصل بخالد ولا إيهاب.

اغتسلت.

تخرج من تحت «الدُشّ».

يحضر خالد في ذهنها وما إذا كان سيتزوّجها أم لا؟ تفكّر في حقيقة أنّ الأيّام الجميلة لا تكون إلاّ في بداية أيّ علاقة. تتناسى. وصلت إلى حلّ. تريد مصاحبته، والاستمتاع بعلاقته فقط. لا يهمّها إن تزوّجها. يكفي أنّه لن يسأل أين ذهبت ومع من. حتى لو سأل فإنّه لن يفعل بطريقة إيهاب. لكن ماذا لو تحوّل خالد إلى وحش؟

تُنشّف جسدها. دخل أبوها رأسها بغتة. وبّخها. لامها. لام نفسه على ثقته بها. لفّت المنشفة على جسمها. توجّهت إلى المغسلة. توضّأت. خرجت من الحمّام. دخلت غرفة النوم ولبست بيجامتها و«شرشف الصلاة». فرشت السجّادة إلى جانب الطاولة. وضعت القرآن على الطاولة. صلّت ركعتي استخارة. سلّمت. دعت ربّها أن يوفّقها مع من لها فيه خير.

سجدت طويلاً. كرّرت: «ربّي وفّقني مع الصالح وأبعد عنّي عيال الحرام».

بكت. تربّعت ومسحت دموعها. مدّت يدها إلى القرآن. قرأت صفحات كثيرة. لم تشعر بالوقت. شعرت بخدر في قدميها وساقيها بسبب القعود الطويل. لكنّها واصلت القراءة. لم تتوقّف.

أذّن الفجر. صلّت. دعت في سجودها: ربّ اغفر لي خطيئتي وسامحني، وإن لم تغفر لي فسأكون من الظالمين.

بكت كثيرًا في سجودها. سلّمت.

قامت إلى فراشها وتمدّدت. لا تريد أن تفكّر في شيء. كانت تستغفر وتُسبّح. قرّرت ألاّ تذهب إلى عملها في الصباح. ستنام، كي ترتاح.

حدّثت نفسها: «غدًا يفعل الله ما لا تعلمون»، قبل أن تغطّي وجهها.

[٤]

نام إيهاب في تلك الليلة بالذات، باكرًا.

اتصل عليها أكثر من خمسين مرّة، بعدما أغلقت السمّاعة، فجأة.

فكّر في أن يذهب إلى بيتها، أن يقف أمام البناية، أو يصعد إلى شقّتها ويطرق الباب، فالناس خلدوا إلى النوم، ولن يشعر سكّان البناية بصعوده على الدرج.

استأجر والد فاطمة الشقّة، من صاحب البناية وكأنّه سيعيش معها. لم يقل إنّها ستبقى وحدها. وعلى رغم أنّه لا يحبّ الكذب، فإنّه اضطر، فهي تقنعه بكل شيء. لا يرفض لها طلبًا. هي بنته الوحيدة.

لم تكن المرّة الأولى التي يرغب فيها إيهاب في دخول شقّتها.

لمّح لها، كثيرًا. قالت: «هل أنت مجنون؟».

تخيّل ماذا سيفعلان لو كانا في الشقّة. أحبّ مرّات فكرة أن ينام معها يومًا كاملاً. تخيّل ذلك، مع أنّه يعرف أنّها لن تقبل.

طرد هذه المرّة الفكرة من رأسه.

يتذكّر الآن أنّها تركته لبرهة في غرفة المطعم. ذهبت إلى الحمّام. قالت: أشعر بألم في بطني.

*

أيقنتُ حينها أنّها تخفي شيئًا، إذ برّرت ما لا يحتاج إلى تبرير.

هي ذهبت إلى الحمّام لتتصل به. تكلّمت معه قليلاً. لا بدّ أنّه اتصل بها ونحن نتعشى. ليعرف إن كانت خرجت مع أحد غيره. هو يشكّ أيضًا.

عادت مبتسمة. قالت إنّها اتصلت بخالتها. لم أسألها، كي تخبرني. هي تعرف أنّني قد أشكّ.

الآن أدركتُ لمَ حضنتني. قالت: «احضنّي أخويًا. هل تعدني بذلك؟». كانت تريد شغل بالي عن الشكّ. اشتهيتها. هي اشتهتني أيضًا، لكن اتصالها به أسفر عن موعد بعد ساعة ونصف. أجّلتْ شهوتها. تظاهرت بينما أحضنها بالنعاس. لكنّها لا تقدر على استغفالي.

بدأت تتظاهر بالنعاس كي أوصلها إلى الشقّة. وحين طلبتُ أن نتجوّل بالسيّارة، وافقتْ. لم ترغب بإثارة شكّي. نامت لنصف ساعة، كي لا تنعس حين تخرج مع خالد. رفضت أن تنام على فخذي، رغم أنّني أثرتها في المطعم حين حضنتني. تظاهرت بالعفّة كعادتها. قالت: «ذلك سيجرّنا إلى ما نفعله عادة... أشعر

بالقرف حين أتذكّر ما فعلناه. أريد أن أتوب وأحترم ثقة والدي بي».

أرادت ألاّ أفكر في إمكان أن تفعل ذلك مع غيري. تظنّ أنّ كلامها سيجعلني أصدّق أنّها تغيّرتْ. هي تغيّرت فعلاً، منذ أسابيع. تبدأ عند الحادية عشرة مكالمة تستمرّ لثلاث ساعات. تحسبني مغفّلاً أصدّق أكاذيبها.

لا تملك غير الكذب. كيف ستعترف؟ هل تقول صراحة: أنا عاهرة، أحب تغيير الرجال، ولا أكتفي بواحد؟ صعقتها حين قلت: رأيتك تركبين معه السيّارة. هي ارتمت في حضنه بمجرّد ركوبها سيّارته. قعدت على فخذيه في السيّارة بعدما خلعت بنطلونها. فعلت كل شيء فعلته معي.

* * *

كان والدها في البحرين. هي تتمتّع بإجازة عيد الأضحى في الرياض.

لا يزال هو يشكّ بأنّها على علاقة بخالد. لكنّه لم يجرؤ بعدما أقفلت السمّاعة، في ذلك اليوم الممطر في جدّة، أن يذكر اسم خالد. إذ عاقبته تلك المرّة. لم تتصل ولم تردّ عليه ثلاثة أيّام.

تناسى أنّها ركبت مع خالد السيّارة. قال إنّه اقتنع أنّ علاقتها به لا تتجاوز حدود العمل. وعدها ألاّ يثير المشكلات، ألاّ يسألها عنه. مضى على ذلك اليوم الممطر أكثر من شهر.

جاء إلى الرياض في رحلة عمل قصيرة (يومين). يعتمد عمله في شكل رئيس على العطل.

تعرفُ هي ظروفه المادِّيَّة. أرادت أن يستفيد من كلفة الفندق التي ستدفعها له الشركة. اقترحت أن ينام في بيتها. فوالدها سيغيب أربعة أيّام.

اشترطت ألاّ يلمسها. وعدها، وحلَف. أدخلته البيت، بعد منتصف الليل. سيخرج باكرًا في الصباح والجيران نيام. وسيعود في اليوم التالي بعد منتصف الليل أيضًا.

يغريه منظرها متمدّدة على الأريكة. ورغم أنّها تغطّت بغطاء سميك، شعر بالشبق. انتبهت إلى نظراته. تجاهلته. تابعت فيلمًا على التلفزيون.

الساعة تشير إلى الثانية فجرًا. انتهى الفيلم. بدأت في تغيير القنوات. خاف أن تنام، أن تغلق غرفتها بالمفتاح. سألها إن كانت تحفظ لَقَطات «بلوتوث» (فيديو)، جديدة، في هاتفها المحمول. (سيسألها هذا السؤال لاحقًا. سيكون ردّها مختلفًا). حركت رأسها نفيًا.

سكت. فاجأته: «هل عندك جديد؟». رفعت حاجبيها بخبث. بدا واضحًا أنّها تسأل عن لقطات خليعة. أومأ إيجابًا. طلبت أن يرسلها إلى جهازها. تريد مشاهدتها وحدها في غرفتها.

رفض، مبتسمًا.

وافقت، على مضض. جلست إلى جانبه. شاهدا إحدى عشرة لَقْطَة. شعر بأنفاسها، تزداد وتتسارع تدريجًا، بعد كل لقطة.

انتهت اللقطات. وقفت. ركّزت نظرها إلى البنطلون الذي يرتديه. ابتسم. تناولت الغطاء من على الأريكة. غطّت البنطلون من فوق ركبته حتى قميصه. قالت:

ـ غريبة. لا أشعر بشيء. يبدو أنّني أصبحت باردة.

همّت بالخروج من الصالة، حيث سينام. ناداها. التفتت. طلب أن يحتضنها. رفضت، بهدوء وبكلمة لا، فقط. ألحّ. أغلقت باب الصالة وتركته.

خرج إلى المطبخ. أراد التأكّد أين ذهبت. أمل نفسه بصدفة أن يلقاها في المطبخ. سيتعلّل بأنّه عطشان. انتبه إلى ضوء الحمام. تخيّلها فيه.

تساءل: «هل أثرّت فيها اللّقَطات؟». لعن خالد. قال: «أنا في بيتها وحدنا. لا نفعل شيئًا. لو أنّها لا تُقدم على فعل شيء معه، فكيف تكبح رغباتها؟».

قرّر أن يجرب حظّه للمرّة الأخيرة، هذه الليلة. سحب كرسي طاولة المطبخ. قرّبه من الباب. جلس عليه، في الظلام. وجهه إلى الباب. خلع بنطلونه وما تحته إلى حد ركبتيه.

حين شعر بها تخرج من الحمام. بدأ بإصدار أصوات منخفضة، مقتنعًا بأنّها تسمعها. هي تقترب. يخفض صوته تدريجًا.

وقفت عند الباب. بعد برهة انتبهت له. لعنته. أدارت وجهها بسرعة.

تركته في المطبخ. أغلقت باب غرفتها بقوّة. خاب أمله.

انتظر. جلس على الحال ذاتها أكثر من ساعة. تصور أنّها تتكلّم مع خالد. اتصل بها. لم يجد هاتفها مشغولاً، ولا «انتظارًا». قال في نفسه: «ربما اتصلت عقب دخولها الغرفة مباشرة».

* * *

جرّب فتح باب غرفتها، رغم أنّه كان يظنّ أنّها أغلقته بالمفتاح. لكنّ الباب فتح. نظر إليها وهي ممدّدة على السرير، وفوقها بطّانية سميكة.

تأكد أنّها نائمة. مدّ يده من تحت الغطاء. حكّت فخذها بيدها اليمنى. سحب يده بسرعة. تمدّد على الأرض. لاحظ أنّها لا تلبس بنطلونًا حين حكّت.

بعد قليل، رفع رأسه. هي نائمة. مدّ يده. رفع الغطاء ببطء. نظر نظرة سريعة. استيقظت. وبّخته. طردته من الغرفة. صرخت في وجهه: «أنت وعدتني. لو سمحت اخرج».

كانت نعسانة. لم تقم من على السرير. لم تجادله طويلاً. تخاف من عصبيّته. لم تغلق الباب بالمفتاح.

حدّث نفسه: «لو كانت لا ترغب، لأقفلت الباب». مَنّى نفسه بليلة حمراء.

تمشّى في البيت لساعة. اقترب من باب غرفتها ببطء. فتحه بهدوء محاولاً ألاّ يصدر صوتًا. أغلقه.

كانت تغطّ في نوم عميق. سمع شخيرًا منخفضًا. أدرك أنّه لم يكن شخيرًا. صوتُ تنَفسها مرتفع فقط.

هذه المرّة رفع الغطاء وأدخل يده. اكتشف شيئًا غريبًا. هاتفها المحمول كان مربوطًا بسروالها الداخلي؟!

فكّه. سحبه.

هي لا تسمح له منذ شهور أن يلمس هاتفها. انتشى حين حصل عليه. خرج من الغرفة. لم يجد اتصالاً منها أو به. لم يجد حتى مكالمات مفقودة. قال: «لا بد من أنّها مسحت رقمه من سجلّ المكالمات».

فتح صندوق الرسائل. وجد رسالة واحدة منه. أُرسلت قبل شهر. استغرب. ظنّ أنّها مسحت كل الرسائل واحتفظت بهذه فقط. فتحها.

«أنت مثل السكّر....

من يُجربك...

على فراقك ما يقدر».

مسح الرسالة.

ترك محمولها على المكتبة في الصالة.

أخذ حقيبته وخرج.

*

في الليلة ذاتها، بعدما غادرتُ شقّتها، درتُ بسيّارتي حول بيتها كثيرًا. فكّرتُ في أن أتّصل بها. لكنّي تذكّرت أنّ الهاتف في الصالة.

شتمتُ نفسي، وشتمتها: لا تزال تكذب. ستظلّ كذّابة. أقسمتْ لي أنّها ليست على علاقة به. أعادت قَسَمَها بكلّ ثقة.

أنا مغفّل. صدّقتها. لماذا تغيّرتْ؟

كانت تُحبّني. هو لا يحبّها مثلي. سأرمي نفسي في البحر، لو طلبت. من يمكنه فعل ذلك؟... لا بد من أنّها تحكي له قصصها معي. تُحدّثه عن الضغط النفسي، عن مسحي لشخصيّتها... لكنّها، لا تتجرّأ أن تحكي عن علاقتنا الحميمة. تُحبّ لعب دور البنت العفيفة...

هو يضحك عليّ. يقول إنّني مغفّل...

لن أغفر. لمَ أسامحها؟ سأنتقم. هي خانت. تستحقّ الحرق.

أسمع على الإف إم أغنية نوال الكويتيّة:

معقولة تنساني! وتحبّ من ثاني... وأنا اللّي أغليتك... يا

نصفي الثاني... حسبي على عاذل أبعدك عن عيني... من بعد ذاك الوصل، وينك... وأنا ويني... يا خوفي ناسيني. ما غبت عن خاطري لو لحظة يا غالي... طيفك رفيقي في حلّي وترحالي... ترفّق بحالي... يعني هاين عليك تترك واحد يبيك... سلّم قلبه لايديك وهو راضي... خلّى جميع الكون ما غيرك انت...

أمسكتُ بهاتفي المحمول. بحثتُ عن رقم علوة. فاطمة تكرهها. لا تحبّها. هما تقابلا مرّة واحدة، في السوق. كانت المقابلة برغبة من فاطمة. إذ حكيتُ لها عن علوة ومنال وهتون. لكنّي لم أحك لها عن قصص «الجيغولومان».

ألمحتُ مرّة. اندهشتْ وتفاجأتْ. تراجعتُ عن كلامي. قلتُ إنّني كنت أمزح.

أستغرب كيف لم أمارس الجنس مع علوة؟ كيف لم تُفكّر في أن تجرّب ما جرّبنه الفتيات اللاتي دفعن لي؟! اشتهيتها مرّات. لكنّي كنت أطرد الفكرة بسرعة في كل مرّة. لا أعرف إن كانت تفكّر بالنوم معي، ويمنعها كبرياؤها من التلميح. لا أهتمّ لكل ذلك. أنا أتّصل بها كلّما شعرتُ بضيق شديد. أستشيرها. أسألها.

سأقول لها إنّ فاطمة تركتني من أجل آخر. سأروي لها أنّني قرأت رسالة من خالد في جوّالها. سأسألها إن كان من الممكن

برأيها أن يرسل صديق هذه الرسالة؟ إن كان من الممكن أنّ فاطمة لم تجرّب معه وأنّ هذه مجرّد رسالة سجعية عاديّة؟

ستقنعني علوة بضرورة أن أترك فاطمة، حتى لو لم تكن على علاقة بخالد. نبّهتني مرارًا إلى ذلك. لكنّي لم أسمع منها. هي ترى أنّ فاطمة تدمّرني.

هذه المرّة سأقتنع بكلامها.

*

عرفتْ أنّني قرأتُ الرسالة. فأنا مسحتها. لم تجادلني. لم تسألني لمَ مسحتها؟

اتصلت بي. طلبت أن أجيء إلى البيت.

حين وصلت، قالت:

ـ أريد أن أنهي عذابي وعذابك.

ـ تتركينني من أجل آخر؟

لم تجب. حضنتني. بكت. قبّلتني على خدّي.

كنتُ أفكّر بينما تحضنني: هي حكت لخالد: «يُلاحقني. وقف كثيرًا عند البناية يراقبني. رآني أركب سيّارتك. يتصل بي. لا أجيب عليه. بل أرفض اتصاله. لم يعد يهمُّني. هو يحبّني».

ربما قالت له: تركتُ إيهاب. أنا مُلْكُك. لن أكلّمه.

وهو صدّقها، وقال: إن كنتِ تحبّينه، تزوّجيه. سأقدّم هدية زواجكما.

تُعجبها أخلاقيّاته. تصدّقه. يسألها في كل مكالمة: هل فكّرتِ فيّ اليوم؟

حين تسأله: ماذا فعلتَ، أمس، بعد مكالمتنا؟ يجيب: فكّرتُ فيك.

لهذا السبب تتنازل عن أيّ شيء من أجله. لا تُفكّر في ما إذا كان يخدعها. لا تعرف أنّه يخدعها فعلاً.

*

كلّما حضنتها أحسُّ بالإثارة.

طلبت منّي أن أبعد يدي. باتت تكره شبقي بها.

قالت: «إنّ تصرّفك هذا يُهينني». استدركتْ:

ـ لا أتحمّل العيش معك، ولا من دونك.

اقترحتُ أن أتزوّجها بعد عام، أن أنتظرها. اشترطتُ أن تقطع علاقتها بخالد. أقسمتُ بحياة أمّي أنّني لن أتدخّل بحياتها، لن أشكّ بها، لن أحاسبها على تصرّفاتها، لن أتصل لأسأل أين هي وماذا تفعل، لن أرفض انتقالها للعمل في أيّ مدينة.

قالت: «لا تُلزمني. أنا سأعيش حياتي كيفما أشاء. ربما أتزوّجه. من يعلم؟».

«نرفزتني». حملتها. وضعتها على السرير. صرختُ وأنا أعضّ على أسناني، وأحكم قبضتي على يديها: «افهمي. لن يتزوّجك. هو يتسلّى بك. جَسَدُكِ مُلكي. لا يحقّ لأحد أن يلمسه».

في تلك اللحظة دار كلام علوة في رأسي: «لا تأخذك الشفقة بها. لا تسمح لها أن تستغفلك. هي تدمّرك. لو سنحت لك الفرصة، انتقم. قل لها إنّك لا تقبل بها. قل إنّك لا تقبل بفضلة غيرك. لا تأخذ فتاة بعدما يرميها غيرك».

بكتْ. كتمتْ صرختها. خافت أن يسمع الجيران صوتها.

قطّعتُ قميصها. خلعتُ بنطلونها بالقوّة.

[٥]

اتصل بهالة. أخبرته بأنّها لا تعرف موعد وصول رحلتها إلى جدّة. قالت: «لا تتعب روحك يا خالتو. ما تترك شغلك. فاطمة حتجي تآخدني».

أصرّت فاطمة على خالتها أن تستأجر تاكسي. هدّدتها: «سأختفي. سأهاجر. أقسم بالله ما حتعرفوا كيف توصلولي. ما تتدخّلي بحياتي. ما بدّي أعرفوا ولا اتزوّجوا. أنا حرّة. ما إلك فيني». هي لا تريد أن يستغلّ إيهاب قدوم هالة، ليجلس معهما في شقّتها. كان الخميس، يوم وصول هالة، حافلاً. اتّصل بفاطمة عند الخامسة بعد الظهر. يعرف بوصول هالة، إذ كلّمها عند الواحدة. كانت في مطار الرياض. خمّن أنّ فاطمة حكت لها عن خالد.

لم تُجب فاطمة على اتصالاته. كانت مع هالة في السوق. هو متوتّر. تُدرك هدف اتصاله. لم تكترث بتعليق خالتها: «يا خالتو ردّي عليه. عيب ما بيصير هيك. هو بيحبّك». طلبت منها ألاّ تتدخّل. أقفلت جوّالها. اتصل بخليوي هالة مرّات عدّة. كانت فاطمة أخذته منها. خبّأته في شنطتها بعدما اختارت وضعيّة الصامت.

كتب رسائل قصيرة وأرسلها إلى هاتفها. تأسّف فيها عن تطفّله. أكّد أنّه لن يتدخّل في شؤونها ثانية. رجا فاطمة ألاّ تحرمه من خالتها فهو يُحبّها. إذ اعتنت به حينما كان يدرس في الرياض. لم تسمح أن يغسل عمّال المغاسل ملابسه. أدّت خادمتها هذا الدور. كانت تدعوه على الطعام مرّتين كل أسبوع على الأقلّ.

كرّر المعنى ذاته في أكثر من رسالة، بصياغات مختلفة. كتب في واحدة: «إذا كان وجودي في حياتك مُقرف إلى هذا الحدّ، سأبتعد. لكن لا تفرّقي بيني وبين خالتك أنت تعلمين مَعَزَّتي لها».

دفعت هذه الرسالة تحديدًا، فاطمة إلى الاتصال به، بعدما عادت مع خالتها إلى السكن. لم يجبها. أرسلت له: «لا دخل لي بعلاقتك مع خالتي».

اتصلت به من محمول هالة، بعد دقائق من اتصالها الذي تجاهله أملاً في أن تتصل مرّة ثانية. أجاب هذه المرّة.

ـ تعرف أنّني لن أفرّق بينك وبين خالتي حتى لو تزوّجت غيرك. يمكنك أن تخرج معها غدًا. افعلا ما شئتما. لن أتدخّل في علاقتكما. لكنّي لا أريدك أن تدخل الشقّة. لا أرغب في الخروج معك. لا أريد أن أرى وجهك. على الأقلّ إلى أن أنسى ما فعلته آخر مرّة في الرياض.

ـ هالة لا تزورك دائمًا. ولا أستطيع السفر إلى الرياض. هل تتضايقين من وجودي في شقّتك لبضعة أيّام؟

رفضت أن تناقشه. أكّدت له أنّ بإمكانه الخروج مع خالتها حين تكون في المصرف. قال لها: «كل هذا من أجل خالد. قلت لك لن يتزوّجك». صرخت:

ـ انس ما اتفقنا عليه. غيّرت رأيي. لن تخرج خالتي معك، طالما هي في بيتي. إذا كنت تحبّها فزرها في بيتها، في الرياض. لا تتصل بي مرّة أخرى... نعم كل ذلك من أجله. فلتمت غيظًا.

حلف بأنّه سيكون مجرّد صديق. طلب فرصة واحدة. قالت إنّها أعطته فرصًا كثيرة. ثم إنّها لا تحبّ تدخّله السافر في حياتها:

ـ ألم تتصل اليوم لتعرف إن كان خالد معنا في السوق؟

أنكر. قالت: «حل عنّي. أنت كذّاب». كالعادة حضر الصراخ. أقفلت الخط. اتصل خمس مرّات. لم تجب.

* * *

عادت هالة إلى الرياض، بعد أسبوع. كانت قابلته مرّتين في جدّة. لم تخرج فاطمة معهما. قالت له: «يا خالتو ما تزعج نفسك... أنا قلت لها ما تخرج معو تاني». كان هو من أخبر هالة أنّها خرجت مع خالد، قبل أن تصل إلى الرياض. أكّدت له هالة أنّ فاطمة تحبّه، لكنّها مخنوقة. لم يصدّق هذا الكلام. ولم يعلّق عليه.

سيكتشف صدفة بعد سفر هالة أنّ زميل دراسته في الثانوية يحيى يعمل في المصرف ذاته الذي تعمل فيه هي وخالد. لم يقابلها يحيى في حياته. فهي تعمل في القسم النسائي.

كان إيهاب يجلس في سيّارته أمام البنك، بعيدًا من باب القسم النسائي، كي لا ينتبه إليه أحد. جاء قبل نهاية الدوام بنصف ساعة. هذه هي المرّة الثانية التي يقف فيها أمام البنك. أراد أن يتأكّد إن كان خالد يُقلّها إلى البيت. يبحث عن دليل كي يثبت لخالتها أنّها تخونه.

تفاجأ حين انتبه إلى أنّ شابًّا ينقر زجاج النافذة. ارتبك. أنزل الزجاج. طلب منه الشاب أن يتقدّم بسيّارته نصف متر إلى الأمام كي يتسنّى له إخراج سيّارته. هو لم يتعرّف إلى الشابّ. كان

مرتبكًا. ابتسم الشابّ له. قال له: «ألا تذكرني؟». نظر إليه إيهاب جيّدًا. سكت. استدرك الشابّ: «أنا يحيى. صف ثالث/ أوّل». ابتسم إيهاب ابتسامة عريضة. نزل. سلّم عليه...

عرف بعدها أنّه يعمل في المصرف ذاته. سيخدمه ذلك لاحقًا.

* * *

لم تتصل فاطمة به منذ قالت له: «حل عنّي. أنت كذّاب». اتصل هو بها. لم تجب على اتصالاته. حتى بعدما سافرت هالة، لم تُكلّمه. لكنّها أرسلت إليه رسائل كثيرة. تسأله عن حاله.

بعد أيّام قليلة من مقابلته ليحيى في الشارع، أرسل إليها رسالة. كتب: «أعرف ما لا تتوقّعين. سيرتك أنت وخالد يحكيها كل موظّفي المصرف». اتّصلت به، فورًا. قال لها: أعرفُ الكثير. أكّد أنّ علاقتهما انتهت. ولم يعد يفكّر بها كزوجة أبدًا.

صرخت:

ـ ماذا تعرف هذه المرّة؟ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أعرف أنّك مارست الحب مع خالد في بيته. رأيت الفيلم بنفسي. سمعت صوتك. حتى زملاؤه في المصرف كلّهم يعرفون اسمك. يعرفون أنّه يمارس الحبّ معك، أنّه يستغلّ فترة ما بعد الظهيرة، للخروج مع موظّفاته، فهو مدير الفرع. أنت واحدة منهنّ. يتباهى بأنّ ممارسة الجنس معك تحديدًا تختلف عن كل الفتيات الأخريات.

سكتت. لم تعلّق بكلمة. ضحك بصوت مسموع. حدّث نفسه أنّه كشفها على حقيقتها أخيرًا.

أراد أن يؤكّد كلامه:

ـ الصدفة وحدها جعلت يحيى زميلي في الثانوية موظّفًا في البنك. هذه المرّة لن تنكري. ماتت الفتاة العفيفة؟ انكشفت على حقيقتها. لَمَ سكتِّ؟ حذّرتك من هذا الحقير كثيرًا. صوّرك ووزّع مقاطع الفيديو بـ «البلوتوث» على أصدقائه.

لا تزال تنصت. لم تنبس بكلمة.

ـ هل أكلت القطّة لسانك؟ لم تتوقّعي أنّ حبيبك يفضحك في كل مكان. يسرد قصص مغامراته كشابّ مراهق.

ضحكت. قالت بهدوء: «أنت مريض. مت في حقدك وغلك. لن أتزوّجك مهما حصل. حتى لو كنت آخر رجل في الدنيا».

استدركت بخبث:

ـ أنعش ذاكرتي. أين مارسنا الحب، على الكنبة أم الكرسي أم الطاولة؟! ألا تقول إنّك شاهدت الفيلم الذي صوّره! أين مارسنا الحب؟ حدّد لي المكان كي أصدّقك.

ارْتَبَك.

سأل نفسه: «لابدّ أنّهما فعلا ذلك على الكرسي. كانت تحبّ ذلك معي، في عشرات المطاعم. هي تفعل الشيء ذاته معه. تطلب منه ألاّ يشفق عليها. توقفه للحظة لتقول له: لا تتحرّك، أريد أن أنتشي. هي تريده مثلما أرادتني مجرّد آلة حتى تطفئ نارها. تتمتّع فوقه كما كانت تتمتّع فوقي على الكرسي، حيث تتحكّم بكل شيء».

ردّدت السؤال، بينما تتوالى تلك المشاهد في رأسه. سألته للمرّة الثالثة:

ـ في أيّ مكان مارسنا الحب؟ إذن لا تعرف. تكذب. لم تشاهد شيًا.

أجابها من دون تردّد وبسرعة:

ـ أنا لم أشاهد فيلمًا. حكى يحيى لي أنّ خالد يصوّر موظّفات الفرع. ينام معهنّ بعد الظهيرة. في ساعة الغداء. وكل موظّفي البنك يعرفون ويتناقلون هذه المقاطع. لم أشأ أن اسأله عنك. لكنّه قال إنّ خالد ينقل أيّ موظفة ترفض أن يضاجعها. ينقلها إلى فرع بعيد. وكل الموظّفات يعرفن ذلك، لذا يقبلن. وأنت لم يصدر قرارًا بنقلك حتى الآن.

ـ أنت وقح... لا تتصل بي مرّة أخرى. انسَ رقمي للأبد. امسحه من هاتفك. لن أردّ عليك ما حييت. كرهتك. لا تتدخّل في حياتي. ولا يخصّك لو نمت مع كل موظّفي البنك».

ـ حقيرة. لم تشتميه حتى. بتّ تحبّينه. رغم كل الذي قلته،

تتركينني من أجله. تتركينني من أجل زير نساء. يريد أن يستلذّ بك فقط. ليته زير نساء، فلم يجد فتاة تقبل به. أنت عاهرة».

شتمته وذكّرته بأفعاله القديمة، بلسانه الطويل. ذكّرته حين كان يغتصبها. قالت له: «ضعفك يجعلني أبغضك. أشعر أنّك لست رجلاً». شتمها: «مومس تنتقلين بين أحضان الرجال...».

أغلقت الخطّ. لم تجب على اتصالاته كعادتها.

اتصل أربعين مرّة. أغلقت جوّالها.

قذف بجهازه في الجدار.

صرخ: «كيف تعود إليه، وتتركني، بعد كل ما قلته عنه. الساقطة. سأنتقم منها. سأضاجعها غصبًا، لتحمل. ستبكي كثيرًا. سأقول لها: أقلّ ما تستحقّين. عودي إلى كلبك كي يتزوّجك يا عاهرة. سأتفرّج عليها وهي تبكي. هي تستحقّ ذلك».

سكت لبرهة حتى هدأ.

فكرّ. غيّر رأيه. لن يضاجعها، لتحمل، ويتركها حائرة بجنينها. سيكتب قصّته معها في رواية. سيُسميها: «أنا والرواية وهي».

سيكتب كل شيء فعلاه. قرّر وانتهى. سيكتب باسم مستعار. سيُرسل نسخة من الرواية إلى كل من يخطبها أو يتزوّجها. سيكتب له إهداء: «اقرأ لتعرف أيّ عاهرة هي».

قرر ذلك قبل أن يتزوّج دنيا. وقبل أن تدخل حياته حتى.

[١]

على رغم أنّه عرف دنيا بعد منال وهتون وفاطمة ودَيان، فإنّه تزوّجها، بعد شهر من سماع صوتها. عقد قرانه عليها، بحضور خالها. وبموجبه يملك إيهاب عقدَ نكاح رسمي. يملك دفترًا أخضر.

لم يدعُ فاتنة ولا بناتها، ولا حتّى والده، إلى عقد قرانه. تزوّج في السرّ.

لم يرها قبل الزواج سوى مرّة واحدة. كان حذّر فاطمة مرارًا. قال إنّه سيتزوّج. أكّد أنّه جاد في كلامه. لم تُعره اهتمامًا. حلف أنّه سيفعلها، ولو عندًا. قالت: «هل تريدني أن أركع تحت رجليك، أترجّاك؟ افعل ما تريد. حياتنا انتهت. لك حياتك ولي حياتي».

حينما اتصل بها ليخبرها أنّه للتو نظر إلى دنيا النظرة الشرعيّة، قالت: «مبروك. هل هي جميلة؟». سألته عن تفاصيل، ببرود.

بدت له كأنّها بدأت التعايش مع الأمر. جاءه هذا الشعور في نهاية المكالمة ذاتها. إذ سألته: «لا أعرف ماذا أفعل؟ يبدو خالد طيّبًا لكنّي أجهل هل أحبّه أم لا؟ أنت وفقّك الله. ستتزوّج. هناك

أكثر من شاب يحوم حولي. خالتي تريد أن أتزوّج اليوم قبل غدًا».

فكرّ في أن يسألها إن كانت لا تزال تحبّه؟ ولمَ لا تتزوّجه؟ تراجع. خاف من أن تقول: «أنت تكذب. لا دنيا ولا غيرها في حياتك. ليست المرّة الأولى التي تخترع فيها قصصًا عن فتيات في حياتك».

دنيا جميلة، رشيقة. يثير جسمها أيّ رجل. لكن إيهاب يتجاهل.

يدخل أحيانًا إلى غرفة النوم. يستغلّ وجودها في المطبخ. يزعم أنّه سيكلّم أمّه. يُقفل باب الغرفة. يتناول «الفازلين» وعلبة المناديل. يفتح على صُور فاطمة التي يحتفظ بها في جهاز الهاتف. يستلقي على السرير. يتخيّلها. يستحضر مرّات كان فيها معها.

يردّد أسئلة بينما يمسح يديه من بقايا «الفازلين»: «ماذا ينقص دنيا؟ ترغب فيّ كل يوم. بل تتمنّاني أكثر من مرة». يمسح بطنه. يُغلق صور فاطمة. يجمع المناديل ويضعها في جيبه. يفتح باب الغرفة ويدخل إلى الحمّام. يرمي المناديل في السلّة. دنيا انتبهت إلى وجودها أكثر من مرّة.

يخرج من الحمّام. يقابل زوجته بابتسامة. يُقبّلها. قال: «حبيبتي اشتقت إليك، إلى وجهك، إلى طعمك، إلى غنجك».
قبل أيّام، وبعد يومين من زواجهما فقط، تشاجر معها.

سألته كيف يجرؤ على مشاجرة زوجته، ويرفض أن يخبرها مع من يتحدّث كل هذا الوقت، في أوّل أيّام زواجه؟ صارحته: «إن كنت تزوّجتني للتسلية، أو لم أعجبك. طلّقني. لنخرج بالمعروف». حلف بأنّه ليس على علاقة بفتاة، وأنّه لم يحبّ سوى فتاة واحدة، تزوّجت سواه.

* * *

خرج من المنزل. قال لدنيا إنّه سيتحدث إلى أخيه، فالشبكة ضعيفة في المنزل. هي لا تعرف أن ليس له أخ. أحيانًا سيقول إنّه لا يقدر أن يُكلّم أحدًا على الهاتف بينما تجلس إلى جانبه، لأنّه لا يستطيع مقاومة إغرائها.

قالت مرّة: «لا أتضايق لو كان لك صديقات. المهمّ أن تقول لي». يردّ بابتسامة، ثم يخرج.

هذه المرّة، وقفت أمامه. وضعت يديها على صدره. دفعته. رجته أن يُكلّم أخيه، في البيت. لكنّه خرج كعادته.

ركب سيّارته الواقفة في الكراج، داخل حوش المنزل. أقفل الباب. تَرْقُب عيناه مرآة السيّارة الجانبية. اتصل بفاطمة على رقمها البحريني. (كانت انتقلت قبل زواجه إلى الدمّام، إلى فرع آخر في المصرف الذي تعمل فيه. هي الآن في البحرين لأربعة أيّام. في زيارة تدريبيّة. أكّدت قبل أن تنتقل إلى الدمّام أنّ كل شيء انتهى بينها وبينه. قالت إنّها ستعيش حياتها بطريقتها، لن تفكّر في الزواج، وإنّهما لا يصلحان كزوجين. شدّدت على ألاّ

علاقة لخالد بالأمر. طلبت منه بالذوق والصراخ أن يتركها لحالها. فهي كما قالت لا تريده ولا تريد خالد. تريد أن ترتاح. لكنّه لا يزال يتصل. وهي تردّد الكلام ذاته: «نحن لا نصلح لبعض. عش حياتك، دعني أعش حياتي بطريقتي»).

رقمها البحريني الآن مشغول. نظر إلى الساعة: الواحدة واثنتان وعشرون دقيقة. كان اتصل بفاطمة قبل ساعتين ونصف الساعة. قالت إنّها ذاهبة مع زميلها في العمل إلى السينما.

(كان زميلها الذي خرج إلى السينما معها يتصل بها، في الوقت ذاته الذي يتصل فيه إيهاب. لم تردّ عليه. كانت تشعر بالنعاس. لم تتوقّع أنّ الفيلم سيستغرق ساعتين. كتمت صوت هاتفها المحمول، في الوقت الذي انتبهت إلى رقم إيهاب يتصل. لم تردّ. وضعت الهاتف فوق الكومودينة. تمدّدت على سريرها. غطّت في نوم عميق. لم تنظر كم مرّة اتصل، إلى أن نامت).

اتصل إيهاب ١٥ مرّة أخرى. لكنّها لم تجب. اختار خاصيّة إعادة طلب الرقم ذاته. شتم بصوت مسموع: «الساقطة. لا بدّ من أنّها معه في سرير الفندق». شغل مايكرفون الهاتف.

أغمض عينيه. تخيّلها:

تخرج فاطمة من الحمّام. تَلُف نفسها بمنشفة فقط. يتمدّد خالد عاريًا على السرير. سافر معها للدورة ذاتها. كان معها في السينما. تحرّش بها في الصالة. طلبت منه أن يؤجّل ذلك إلى الفندق.

تغطّت معه بالبطّانيّة ذاتها. فكّت المنشفة ورمت بها بعيدًا. جلست فوقه. بدا على وجهها الاستمتاع. تقول له ما يفعل. تطلب منه أن يتوقّف عن الحركة أحيانًا. انتبه إلى ضوء خليويها. قال: ربما كان والدك. نظرت إليه بشبق. قالت: لا أريد أن أكلّم أحدًا الآن.

في هذه اللّحظات سمع إيهاب صوتها يرنّ في أذنه: «لمَ تتصل مليون مرّة. ألم نتفق أنّك لن تتصل؟». أنهى المكالمة من دون أن يتفوّه بكلمة. أغلق الهاتف.

* * *

عاد إلى البيت. كانت دنيا ممدّدة على الأريكة. تلبس قميص نوم شفّاف. رمقته. انتبه إلى أنّ السجاد مبلّل. سألها.

- مضى وقت على هذا البلل؟

سكتت. تردّد. قالت:

- كان ذلك لأنّك ضايقتني. أسقطت الكأس من فوق الطاولة.

بدأ التحقيق، بالطريقة المعتادة: «سكبت الكأس. لم تنتبهي كعادتك؟ لمَ لا تنتبهين لخطواتك؟ هل أنت طفلة؟ كنت تظنّين أنّني أكلم فتاة أخرى؟».

ـ لِمَ خرجت إذًا؟

ـ لأنّك كنت تغرينني، إضافة إلى أنّ الكحول أثّرت عليّ. لم أرد أن ينتبه أخي إلى أنّني كنت أشرب وأنّ فتاة تجلس إلى جانبي. قرّرت الخروج، كي أتحدّث إليه باتّزان. كان سيشعر بشيء ما حتمًا.

حضنته. قالت: «أغار عليك. هذا كل ما في الأمر. لا تغضب». جلس على الأريكة. جلست إلى جانبه. أدخلت يدها اليمنى من تحت قميصه، مدّت اليسرى على ظهره. تلمّسته. بدأت بتقبيل رقبته. لم يتحرّك. يتفرّج على فيلم أميركي يُعرض على إحدى القنوات المشفّرة.

لم تمض ساعة بعد، على دخوله المنزل. نظر إلى دنيا وابتسم. قال: «اسبقيني إلى غرفة النوم، وأحضري عصير «مانجا» وكأس ماء».

فزّت من مكانها. اتجهت إلى المطبخ. بعد دقيقة فقط، وقفت أمام باب المطبخ تحمل صينيّة فيها كأسا «مانجا» وماء.

اتصل في هذه اللحظة، على أحد أصدقائه. شغّل الميكروفون. سمعت دنيا، صوت صديقه. تكلّم في شيء، لم تدرك معناه. عادت إلى المطبخ. خرج واتجه إلى سيّارته. أنهى المكالمة بمجرّد ركوبه السيّارة. لم يكترث لصديقه ولم يعاود الاتصال به. اتصل إيهاب مرّة أخرى بفاطمة. أجابت. بدا من صوتها أنّها نائمة. سألها بصوت منخفض:

ـ هل أنت نائمة؟

ـ اتصلتَ أكثر من مرّة. أجبتك. فلم تتكلّم.

ـ اتصلت عليك قبل ذلك ولم تجيبي؟!

ـ كنت وضعت جوّالي على الصامت. وصلت من السينما حينها...

ـ كيف نمت بهذه السرعة؟

ـ لا أعلم. لا أعرف متى عدت. ليس شأنك؟

ـ هل يجب أن أنتظر؟

ـ عش حياتك. لا تنتظر.

ـ سأعيش حياتي. لكن هل يجب أن أنتظر؟

ـ ألم تقل إنّ هناك فتاة معجبة بك؟ ألم تقل إنّك ستتزوّج؟

ـ كنت أكذب كعادتي.

ـ تكذب؟! اذهب إلى النوم. لا تتصل بي مرّة أخرى. لقد اتفقنا على ذلك. يجب أن أصحو باكرًا. أرجوك لا تتصل.

ـ كنت في السينما قبل قليل. لمَ لم تفكّري أنّك ستضطرين إلى الاستيقاظ باكرًا؟

ـ غلطة. لم أكن أظنّ أنّ الفيلم سيستمرّ إلى هذا الوقت.

ـ هل أوصلك إلى الغرفة؟

ـ يوه. هذا ليس من شأنك. لا تتدخّل في حياتي. باي.

* * *

ليست المرّة الأولى التي تغلق فيها فاطمة الهاتف قبل أن يقول إيهاب كلمة «باي». يتصل مرارًا بعدما تُغلق الهاتف بهذه الطريقة. يقول إنّه ضعيف ويكرّر إنّه يتمنّى أن يُشفى منها. يسألها دائمًا: «ألا تشعرين بالذنب حين تعاملينني بهذه الطريقة؟». تقول: «لا ينبغي أن تكون هكذا. عش حياتك، لأنّني سأعيش حياتي أيضًا واترك أمرنا للنصيب».

أشعل سيجارة. حلف أنّه لن يسامحها، لن يتراجع عن كتابة الرواية. عاد إلى البيت. دخل إلى غرفة النوم. قال لدنيا: «حبيبتي أنا ما حأنام. راح اكتب».

فتح كومبيوتره المحمول. كتب:

«سأجعلها تشعر بما شعرت. سأعلّقها. لن أقول لها إنّني تزوّجت. سأجعلها تظنّ أنّني أنتظرها. سأحاول أن أقطع الطرق على غيري. المهمّ أن تظنّ أنّ هناك من ينتظرها. ستعود إليّ في النهاية. سأُذكّرها بكل ما كانت تفعله. يجب أن تندم. هي تستحقّ أن تذوق العذاب. نفسي لا تهدأ.

أقفلت الخطّ. عادت إلى النوم. كان يومها حافلاً. فبعدما عادت من عملها عند السابعة مساءً اتجهت إلى الحمّام. ومن دون أن تغسل شعرها، أخذت حمّامًا. تعطّرت. وقفت أمام المرآة. نظرت إلى جسدها. نظرت إلى ثدييها الصغيرين. لبست

حمّالة صدر سوداء من الدانتيل. وسروالاً داخليًّا فرنسيًّا. أخذت احتياطها. سحبت طرفه كي يظهر من فوق البنطلون. لبست قميصًا قصيرًا. فتحت زري القميص الأوّلين. تأكّدت أمام المرآة أنّ طرف الحمّالة ولونها ظاهران. مالت يمينًا وشمالاً. عرفت إلى أيّ حدّ سينكشفان. أدارت ظهرها. قرّبت الكرسي من أمام المرآة. وقفت عليه. جلست القرفصاء ونظرت».

أشعل سيجارة. قرأ العبارات الأخيرة مبتسمًا. كتب:

«بعدما تعشّيا، ذهبا إلى السينما. تحرّش بها في الصالة. طلبت منه أن يؤجّل ذلك إلى الفندق، حيث ستتغطّى معه بالبطّانيّة ذاتها. فكّت المنشفة ورمت بها بعيدًا...».

[٢]

تزوّج إيهاب دنيا، بعد صلاة المغرب، بعدما أفطر الشيخ (المأذون) الذي عقد له. كان صائمًا.

تسكن زوجته مع خالها في حيّ السلامة في جدّة.

ـ لا أعرف جدّة جيّدًا. اعتدت على زيارتها في الإجازات مع أهلي. لم أزرها منذ زمن.

هذا ما قاله لخالها. معلّلاً سبب تأخّره. كان ابن خال زوجته الشاهد الأوّل. وجار خالها الشاهد الثاني. كان عقد القران بسيطًا جدًّا. لم يكن سوى الجار وابن خالها وخالها وهو والشيخ المأذون. لحية الشيخ سوداء طويلة وكثيفة. يلبس غترة بيضاء مكويّة جيّدًا. لا يلبس عقالاً. نظر إلى إيهاب نظرة مريبة وهو يناوله دفتر العقود، ليوقّع عليه.

سأله الشيخ، بعدما وقّع: «أين والدك؟ عمّك أو خالك أو أخوانك؟». صمت إيهاب. نظر إليهم كلّهم. قطع خالها هذا الصمت: «الله يُكتبلها اللّي في الخير ويوفّقها على قد نيّتها. الله ما يخيّب من رجاه. احنا اشترينا رجال يالشيخ. وارتضينا أجرنا عند الله».

طمّنت دنيا إيهاب قبل أن يجيء للمرّة الأولى، كي ينظر إليها النظرة الشرعيّة. قالت له حينها: «يحسّ خالي بالذنب بسبب زيجتي الأولى. يظنّ أنّه السبب في تعاستي لأنّه أجبرني على الزواج من ابنه الذي طلّقني وتزوّج أجنبيّة».

بعد كلام خالها، نظر إيهاب إلى الشيخ بثقة. بعد ساعتين، سيخرج مع عروسه. سيضحكان على طريقة زواجهما. سيضحكان على الخطّابة التي لم يدفعا لها فلسًا واحدًا.

اقترحت دنيا ألاّ يدفعا لها. قالت إنّهما في حاجة إلى كل فلس، أكثر من الخطّابة. «فهي تكسب مئات الألوف. تربح الكثير من وراء تزويج أغنياء الرياض. تزوّجهم بناتًا من جدّة (مسيارًا) ـ في السرّ، مقابل مبالغ خياليّة».

ضحك إيهاب. قال: «لن تموت جوعًا إذا لم تقبض الخمسة آلاف ريال إذًا».

سيقترح الآن أن يفعلاها في السيّارة.

ترفض. يصرّ عليها. يسألها عن المانع طالما هي زوجته. ويملكان دفترًا أخضر يثبت أنّهما زوجان. تبتسم.

سيعلّمها كل شيء يرغبه بعد تلك الابتسامة. لن يفعل شيئًا جديدًا لم يفعله قبل هذه المرّة مع فاطمة.

* * *

تهمس دنيا في الظلام. هو يريد النوم. ليست المرّة الأولى

التي تفعل ذلك. تمدّ يدها إلى صدره على رغم أنّه هدّدها ألاّ تفعل ذلك، وهو نائم.

في كل مرّة تلمسه، يزعم أنّها أيقظته من نومه. يُغمض عينيه. لكن دنيا لا تكفّ عن لمسه. يصرخ:

ـ عندي دوام من رأس الصبح. أنت تنامين طول اليوم.

تبتعد منه.

تبدو دنيا مغرية الآن بقميصها الدانتيل الأسود. لكنّه لا يشتهيها.

ملّ بعد خمسة أيّام فقط. كان شبقًا في أوّل يوم. فعلا أشياء مجنونة كثيرة. لم يقتصر الأمر على السيّارة في الشوارع. فعلا ذلك في السيّارة أيضًا وبراحة، بعدما أدخلها الكراج. فعلاها في الحوش تحت السماء. فعلاها في مطعم سمك.

أحبّت دنيا أوّل يوم. لكنّه فقد رغبته العارمة تلك تدريجًا. بعد خمسة أيّام فقط، ها هو يوبّخها للمرّة الثانية.

حركة جسم دنيا على السرير، لا تسمح له بالنوم. نغمة الرسالة القصيرة في هاتفه المحمول، أجبرته على التحرّك.

قفز من مكانه. نظر إلى الجهاز اكتشف أنّها رسالة من هتون. لا تزال هذه الفتاة تلاحقه. ترك فاطمة وتعرّف على ديان وعاد إلى فاطمة، وتركها مجدّدًا، وتزوج ولا تزال هتون تلاحقه.

منذ تعرّف على فاطمة وهو يتجاهل مكالمات هتون ورسائلها. تعوّدت هتون على ذلك. لكنّها لا تتعب.

فتح الرّسالة. وهو يقول: مجنونة. سمعته زوجته. ضحك، لأنّ هتون كتبت كلمة أحبّك أكثر من ٣٠ مرة. هذه هي كل الرسالة. الضوء الصادر من جهازه المحمول اخترق ظلمة الغرفة.

دنيا تنظر إليه. سألها: «هل تحترقين لتعرفي المرسل؟!». مسح الرسالة. ضحك بصوت عال وقال بعدما تغطّى بالبطّانيّة: «نشبه بعضنا. كلّنا ندور في الدائرة ذاتها. وكل يغنّي على ليلاه».

ينقلب على جنبه، وينظر إلى دنيا. يمدّ يده لها. قالت معاتبة:

ـ عندك دوام من رأس الصبح. نام.

انقلب على جنبه الآخر وتجاهلها. اقتربت منه وبدأت بلمسه مجدّدًا. أبعد يدها. طلب منها أن تعود إلى مكانها. مسحت بيدها على كتفه بحنان.

جلس وطلب منها بصوت عال أن تعود إلى مكانها. عادت مكسورة إلى زاوية السرير.

تسأل نفسها: لمَ يفعل ذلك؟ قالت بصوت يسمعه: عجزت عن أن أفهمك، لم نتزوّج إلاّ منذ أيّام.

بعد دقائق. اقترب من دنيا. حضنها.

سألها إن كانت لم تنس تناول حبوب منع الحمل اليوم. أومأت إيجابًا، لكنّها استدركت:

ـ أفكّر ما آخذ الحبوب الشهر الجاي. تعّبتني. وأبّي أجيب مصري صغير زيّك. يونّسني في البيت.

فتحت هذه العبارات عليها وابلَ رصاص. وجهه انقلب. شرحت له أنّها لا تريد أن تنجب، ستنتبه إلى ذلك معه، لكن الحبوب تُتعبها. لم يفهم. يزعم أنّ ذلك الأمر لا يهمّه. يقول إنّه غضب لأنّها نكثت باتفاقهما. هما اتفقا قبل الزواج ألاّ ينجبا قبل عام أو عامين.

حبست دنيا دموعها. خرجت من الغرفة. أخذت معها لحافًا صغيرًا ومخدّة.

لحق بها إيهاب بعد خمس دقائق. وجدها ممدّدة على أريكة في الصالون. هي تقول إنّها لا تحتمل الصراخ كل يوم، وفي أوّل أيّام زواجها. لم يمض أسبوع بعد!

قَلَب إيهاب الأمور لمصلحته:

ـ أنا أيضًا لا أحتمل الصراخ ولا أهوى المشكلات، لكنّني لم أخرج من الغرفة. طالما أنّك خرجت، فتحمّلي قرارك. لا تعودي إلى هناك مجدّدًا.

دنيا تعبت. لم تحتمله. بكت. دسّت رأسها في المخدّة. بكت كثيرًا حتى نامت.

جلس إيهاب في الصالة. أشعل سيجارة. شغّل التلفزيون. بحث عن أغنية.

نجاة الصغيرة تغنّي: أنا رمشي ما داق النوم وهو عيونه تشبع نوم. عيون القلب سهرانة ما بتنامش. روح يا نوم من عين حبيبي. روح يا نوم...

ضحك بصوت عال. لكنّه بكى. أطفأ التلفزيون وعاد مع سيجارته إلى غرفة النوم. أقفل الباب بالمفتاح. رمى نفسه على السرير. تمدّد. تناول «الفازلين»، وعلبة المناديل...

سيتأخّر في النوم. لن يصحو إلاّ بعد الرابعة عصرًا.

حين خرج من غرفته إلى الحمّام، كانت دنيا تجلس في الصالة. جهّزت ملابسه وفطوره. شغّلت سيّارته الواقفة في الكراج، وشغّلت مكيّفها.

خرج من الحمام ووجد ساندويش بيض وعصيرًا إلى جانب سريره. ملابسه معلّقة. ثلاثة بنطلونات وثلاثة قمصان.

اختار. لبس وتعطّر من العطر الذي قدّمته له هديّة. لم يتعطّر اليوم من عطر فاطمة. ستشمّه دنيا حين يمرّ من أمامها. سألها عن مفتاح سيّارته، رغم أنّه يذكّرها دائمًا أن تشغّل سيّارته بينما يستحمّ. لم ينتظر جوابها. ابتسم وقبّلها. الشيء الوحيد الذي لم تفعله كعادتها: تلبيسه الجوارب.

شتم فاطمة وهو يقود سيّارته. كل يوم يشتمها في السيّارة ويصرخ أنّه سينساها. لكنّه في الليل يتذكّرها، ويتذكّر الرواية التي عاهد نفسه على كتابتها.

وصل إلى عمله، متأخّرًا كمثل كل يوم منذ انتقلت فاطمة إلى جدّة. حلف أنّه سيتغيّر من اليوم. يحلف كل يوم أيضًا. رسالة وصلت إلى هاتفه المحمول.

رسالة من دَيان. كتبت أنّها تريد الحديث معه متى استطاع. مسح الرسالة. هي لن ترسل له رسالة أخرى. هو لن يتصل بها.

* * *

وصلت فاطمة من البحرين عند السابعة والنصف مساء يوم الجمعة. كان مضى على زواجه عشرة أيّام. سينسى إيهاب لاحقًا متى تزوّج. لم يسجّل تاريخ زواجه. دنيا ستذكّره وتلومه.

لم تتصل فاطمة به. اتصل عند الثامنة والنصف. تجاهلت اتصاله هذا. لم تردّ على اتصاله عند الحادية عشرة أيضًا. اتصل بخالتها هالة ليسألها عن موعد وصولها. قالت: «إنّها وصلت مطار الدمّام عند السابعة والنصف». لاحقًا ستقول فاطمة إنّها وصلت إلى الشقّة المفروشة في الدمّام عند التاسعة، ولم تنتبه إلى اتصاله الأوّل، بينما كانت نائمة حين اتصل المرّة الثانية.

كانت دنيا في بيت أختها. عاد إلى كومبيوتره المحمول. كتب:

«وصلت فاطمة من البحرين عند السابعة والنصف مساء يوم الجمعة. أقلّها خالد من المطار إلى الفندق. لم تركب تاكسيًا. لم تفوّت فرصة كهذه. خالد أخذ إجازة من عمله. سافر إليها في الدمّام. قرّر أن يقضي معها يومين أو ثلاثة. لن يذهب بها إلى

الشقق المفروشة. أخذها إلى الفندق. هي لم ترفض. وافقت على اقتراحه. كانت اشترت له هديّة من البحرين. ستعطيه إيّاها يدًا بيد وسيُقبّلها. الهدية كلّفتها أكثر من ألف ريال. لم تشتر لي في حياتها هديّة بهذا الثمن».

وضع نقطة. أشعل سيجارة. قام إلى المطبخ ملأ الكأس ثلجًا. فتح الدولاب. رفع الكرتون الذي يضع وراءه الويسكي. صبّه. لم يخلطه بشيء هذه المرّة. هو ليس معتادًا على شربه سكًا.

عاد إلى كومبيوتره. حاول أن يكتب شيئًا من الرواية. تذكّر أنّه كتب في مقطع سابق أنّ خالد «سافر معها للدورة ذاتها». مسح المقطع الأخير. لم يكتب حرفًا.

وقف. تناول هاتفه. اتصل بدنيا. اتصل مرّات لكنّها لم تجب.

أرسل رسالة قصيرة إليها: «اتصلي علي ضروررررري». لم تمض ساعة. بدأ هاتفه بالرنين. أوّل كلمة قالها حين ضغط على زرّ الردّ: «وينك»؟

ـ ما الأمر؟ ما هو الضروري؟

ارتفع صوت إيهاب فجأة:

ـ أجيبي على سؤالي، قبل أن تسأليني. أهلك ما علّموك الاحترام.

ـ أنت أرسلت إليّ رسالة: «اتصل بي ضروري». ما الأمر؟

أعاد إيهاب كلامه بنبرة أكثر حدّة. جاوبته: «أنا عند بنت خالي». سألها: «لماذا لم تردّي؟». قالت له «ببساطة الهاتف كان مع خالي. اتصل به واسأله». أغلق الخطّ في وجهها، بعدما قالت: «أيّ أسئلة ثانية».

عاد إلى كومبيوتره المحمول. سقط رماد سيجارته على الأرض. أشعل أخرى.

كتب كل ما حدث بالحرف. زاد عليه:

«ليس هناك سبب للتوتّر. هذا تأثير الكحول. لا بل تأثير فاطمة. تُوتّر علاقتي بدنيا. هي تجلس في الفندق معه مرتاحة البال. ستعود إلى الشقق المفروشة، وتتصل به. ستضحك معه. وتتكلّم معه ساعات. لا تشعر بشيء. أين العدل؟ ألا يقتضي العدل أن تأخذ جزاءها. هل لأنّ العلاقة غير شرعيّة؟ كنت سأتزوّجها. هي تجلس الآن إلى جانبه في السرير في الفندق».

* * *

في اليوم التالي (السبت). اتصلت به عند الثانية ظهرًا. قالت «كنت نائمة حين اتصلت... ستصل هالة إلى الدمّام اليوم». قال: «لا تشغلي بالك. كنت أودّ الاطمئنان عليك. لم أقصد مجرّد الاتصال». أجابته: «كنتُ نائمة. لم أتمالك نفسي. الإرهاق قادني إلى السرير حين وصلت إلى البيت في التاسعة. جئت إلى المكتب قبل ساعة فقط».

فاطمة تردّ على هاتفها النقّال حتى لو كانت نائمة.

انتهت المكالمة. اتصل بها عند السادسة، ليسأل عن موعد وصول هالة، وعمّن سيقلّها من المطار؟

ـ لا أعلم. أنا في المكتب. ثم لمَ تتدخّل في خصوصيّاتنا. أنت قلت إنّك ستتزوّج. أين زوجتك. تدخّل في حياتها.

صرخ: «لا تعجبني طريقتك في الحديث معي. لا أريد منك سوى أن تعامليني مثلما تعاملين خالد. اعتبريني صديقًا فقط».
سكتت. قال: «باي».

من دون أن يشعر انزلق إلى منزله. دخل البيت من دون أن يُقبّل زوجته. أبدى لها غضبه لخروجها من دون إذن، حين قالت إنّها عادت توًّا من بيت ابنة خالها.

لم يتعشّ معها. قال إنّه أكل مع أصدقائه.

تأسّفت. قالت: «لم يكن عليّ الذهاب من دون أن توافق. لكنّي اتصلت بك ولم تردّ». قال: «لا أرفض خروجك، لكن لن أترك لك الحبل على الغارب». كانت أمّي تردّد هذا المثل كثيرًا. تقول لي: «لا تترك الحبل على الغارب لزوجتك. يجب أن تشعر أنّك وراءها دائمًا».

أحضرت له السجائر، والمنفضة. جهّزت له كأسًا. حضّرت العشاء. وضّبت ملابسه بعد أن خلعها. خلعت له جواربه. ترجّته أن يأكل معها، أن يكلّمها. سألها: «في ماذا؟». قالت له في أيّ شيء.

طلب منها أن تتكلّم هي، ووعدها أن ينصت. حدّثته عن ابنة خالها. قالت هي لا تستطيع أن تعيش مع عبد الله. تفكّر بشاب آخر. هما يُكسّران كل شيء حين يغضبان من بعضهما. شجاراتهما تمتدّ لساعات على الهاتف. سألت إيهاب:

ـ كيف يعيش اثنان مع بعضهما وهما يخلقان المشكلات كل يوم؟

ابتسم. تحوّلت الابتسامة إلى ضحك، فقهقهة. نظرت إليه مندهشة. ابتسمت. حكت له أيضًا عن زوج ابنة خالها الأوّل. تقول إنّها تسدّد له فواتيره. وقفت إلى جانبه أكثر من مرّة. أعتقد أنّها لم ولن تحبّ غيره. تستدرك: «لماذا إذًا تقف إلى جانبه؟». لم يعر أسئلتها اهتمامًا. لا يزال يبتسم. هي تتكلّم. ابتسامته تتسع ثم تعود لتكون ابتسامة صغيرة. قطعت ابتساماته: «هل تسمعني؟». كشّر. صرخ.

ـ كيف تحبّ ابنة خالك زوجها الأوّل وتعيش مع آخر، وتفكّر بثالث؟ كم قلبًا لها؟

[٣]

«لماذا تقرأ كل ليلة؟ ماذا ينفعك هذا؟ ألا يكفي أنّك تكتب؟». لا تكتفي دنيا بهذه الأسئلة. «أنت تحبّ أن تشتري كتبًا كثيرة! تقرأ وتكتب وتقرأ وتكتب وتعمل! ماذا عن حياتك؟ ماذا عنّي؟». هذا النقاش يتطوّر مع الأيّام. باتت أكثر جرأة مع مرور الوقت. بات يسكت ولا يُعلّق. لا يصرخ عليها. يسمعها. ينتظر أن تنتهي. لم يعد يُعنّفها على الأمور التافهة. لم يعد يسأل لمَ اندلق الشاي. ولمَ سكبت العصير. ولمَ لم تجهّز ملابسه. ولمَ لم تمسح الجزمة.

صارت تكرّر على مسامعه: «كان عليك أن تُعلمني بذلك قبل أن أتورّط. ما يضايقني ليس المال. خالي يملكُ ما يكفيني. أنا متضايقة لأنّي خُدعتُ بمظهرك. تحمّستُ ووافقتْ. حسبتك شخصًا رومانسيًّا. سيُغرقني حبًّا. إذا لم تكن في العمل فأنت تكتب. إذا لم تكن تكتب فأنت تقرأ. إذا لم تكن تفعل ذلك تجري مكالمة! كيف أعيش هكذا. يبدو أنّني لم أعجبك. المشكلة ليست فيك. المشكلة فيّ».

تشعر بأنّ كلماتها لم تَعُد تحرّك شيئًا. لم تعد تجذبه حتى إلى الشجار. استشاطت غضبًا: «لا أريد أن أكون مثل الوسادة. لا تتذكّرني إلاّ كلّما احتجت إلى النوم».

الآن هي تُغيّر استراتيجيّتها. تطلب أن تجلس في حضنه بينما يقرأ أو يكتب. تطلب أن تقرأ عباراته. رفْضُه يزعجها. تلقط عبارة أو عبارتين بينما هو مشغول. تسأل: «هل تكتب عن عشيقاتك؟ عن أسرارك؟».

كتب في اللحظة ذاتها:

«أسراري! كل طرف يُحبّ أن يعرف أسرار الآخر. يُحبّ أن يعرف ماذا يخبّئ عنه؟ هذا ما أزعج فاطمة وجعلها تُفضّل العيش من دوني. فأنا كنت أنبش وراءها. كنت أريد أن أعرف كل شيء عن ماضيها. هذا الماضي الأسود برأيها. أنا محبط. بدأت أتأقلمُ مع دنيا. لم تعد تزعجني. بدأت أرضخ لها رغم أنّني لم أرضخ لفاطمة يومًا. لا. رضخت لها حين عرفت خالد».

كانت المرّة الأولى التي يكتب فيها اسم دنيا في روايته. تركته وذهبت إلى السرير. رجع إلى عبارة «بدأت أتأقلمُ مع دنيا». حدّدها. اقتربت يده من زرّ المسح. تراجع. أضاف إلى تلك العبارات بعدما وضع علامة: *، بين الفقرتين: «في هذا الوقت أعود بذاكرتي إلى كلام دَيان. أتساءل. هل يجب أن أضمّ دنيا ودَيان إلى فاطمة؟ أن أخصّص صفحات لهما من هذه الرواية؟ هل أثّرا في علاقتي بها؟ خصّصت صفحات عن علاقتها بخالد. عن خالد نفسه. ديان ودنيا اللتان صمدتا أمام امتحان جنوني. أمام حُبّي لها. قبلتا بذلك. وأنا أقبل بعلاقتها بخالد. لماذا أملأ رأسي بكل هذه الأسئلة؟ لماذا أملأ الصفحات بكل التفاصيل؟ أنا لا أكتب رواية تستحقّ أن تُقرأ. أنا أفضح فقط. ستتعاقب فتيات

كثيرات في حياتي. لن أكتب عنهنّ كلهنّ! أصلاً لا أعرف بعد إن كنت سأصمد. إن كنت سأكتب الرواية فعلاً. في هذه الأيّام تحديدًا بدأت أتأمّل. أتذكّر. أراجع علاقتنا بدقّة. أتساءل إن كنت أنا المخطئ. أترك السرير وأخرج من الغرفة. أدخّن سيجارة وراء سيجارة. أفتح الكومبيوتر المحمول وأتردّد. أتذكّر شكّي وغيرتي. لساني السليط الذي يشبه المِشرط. شرّحتها به مرارًا. أدميتها. هل أخطأتُ بحقّها؟ هل كنتُ السبب الذي دفعها إلى الخلاص منّي والبحث عن أوّل شابّ في الشارع؟ لكنّها خانت. كذبت. فعلت معه مثل ما فعلت معي. أبقتني موجودًا رغم أنّها ارتبطت بعلاقة معه. أسمع طنين بعوضة تحوم حول أذني. يزعجني هذا الطنين. أنا محبط. سأذهب إلى السرير. لا أريد أن تأخذني الشفقة أكثر من هذا. ربما أمسح كل هذا الكلام غدًا. لا أعرف».

* * *

في الليلة التالية، كان في مكتبه.

شركته مقبلة على مشروع جديد. الصيف على الأبواب. المهرجانات تُقام في كل مدينة. عليه أن يُعدّ برامج كثيرة. أن يكتبَ مسرحيّات للأطفال. أن يُجهّز موازنات البرامج وكلفة المهرجانات. (كان ترك شركة بيع الملابس وانتقل إلى شركة تنظّم المهرجانات)

رنّ هاتفه. رقمُ دنيا.

كان أخبرها أنّه سيتأخّر.

عبارته المعتادة حين يجيب على دنيا «هلا حبيبي»، كانت مثار ضحكة ابنة خالها. لم تكن زوجته. كانت ليلى.

ـ لست دنيا.

ـ لاحظت من صوتك وضحكتك.

اتصلت لتُقنعه أن يسهر في منزلها.

طلبتْ دنيا من ليلى أن تتصل به. كانت حاولت أن تقنعه أكثر من مرّة بالسهر عند ليلى. لكنّه لم يوافق. لم يقبل بالجلوس إلى جانب عبد الله.

في هذه السهرة أيضًا، لن يكونوا الثلاثة فقط. لن يكون الرابع زوجها. سيكون عبد الله طبعًا.

اعتذار إيهاب، قابله رجاء من ليلى. اعترف: «سيظنّ أنّني أتسلّى بابنة عمّتك. لن يقتنع بأنّي تزوّجتها، فكيف أسمح لها بالسهر معه وهو ليس إلاّ مجرّد صديق لك؟ لن يصدّق».

أقنعته ليلى بأنّ عبد الله يختلف: «هو من عائلة متحرّرة. يشرب مع أمّه وأخواته. سهرتُ معهنّ وشربتُ أيضًا. قال لهم: إنّني زوجة صديقه. هو يُحبّني كثيرًا. يعتبرني ودنيا أختين له. يغار ويخاف علينا».

بعدما أنهى المكالمة، موافقًا، ضحك بصوت عال. (سيضحك أكثر بعد شهور حين ستخبره دنيا بأنّ عبد الله تزوّج ونسي ابنة خالها).

سيقول لدنيا في الليلة ذاتها وبعدما يخرجان من بيت ليلى، سكرانيْن: «كل الشبّان في هذا البلد طيّبون برأيكنّ. ما إن تنتهي العلاقة حتى يتحوّل الشاب إلى شيء آخر. لا يهمّ من أنهى العلاقة. المهم أنّه سيكون مجرّد شهواني حيوان».

(كانت فاطمة تقول إنّ خالد ومحمّد طيّبان. يردّ: طبعًا وإلاّ كيف سيكسبانك؟).

شغّل سيّارته. انطلق إلى بيت ليلى.

كان يسمع أغنية زياد الرحباني «بصراحة». تحديدًا مقطع «اذكري شو كنت بهيم معك». يُغنّيها بصوت عالٍ.

تناول هاتفه المحمول. كتب المقطع.

أرسله إلى فاطمة.

لم تردّ.

*

استغنتْ. لم تعد تهتمّ بأمري. لا يهمُّها أن تسمع صوتي.

عشتُ معها على الحلوة والمرّة. في الحالين رأيت الألم. بقيتُ عليها. لم أنسها كما فعلت. مرّ في حياتي فتيات غيرها. ديان.. دنيا.. لا تزال هي عالقة. لكنّها اليوم في سرير رجل آخر. يمسك ببطنها. يقول من هنا سيخرج النونو. مثلما كنت أقول لها. يُحرّك أنفه على أنفها. يحكّ ذقنه بذقنها. هي تُعلّمه.

لا بدّ من أنّها على فراشه. مبلولان بالعرق. لا يشمّان رائحته. لماذا؟

إذا سألتها تغضب. وتطلب منّي ألاّ أتدخّل في حياتها. ماذا عن حياتي؟

إن سكتُّ تتمادى. تخرج معه. تفعل ما يريدان. وأنا أتفرّج.

كلّما عادت تلك الأسئلة، تشتعل النار في قلبي من جديد. أشعر بمعنى ألم القلب. تنازلت عنّي لأنّها وجدت شخصًا يتأخّر معها في النشوة. أحبّتُه لأنّها تستمتع معه. لأنّ جثّته أكبر من جثّتي. لأنّه يؤلمها ويعصرها.

أكتبُ كلمات محروقة بغيرتي. مسمومة بأنفاسهما الحميمة حين يلتصقان. كأنّني أشعر بهما.

أراهما كل يوم. في أحلامي. في المنام واليقظة. أكرهه وأكرهها. سأنتقم. يجب أن يذوقا ما أذاقاني إيّاه.

حرب نفسيّة كل يوم. لا تنتهي. سأنتظر إلى أن يرميها. ستعود إليّ. تريدُ زوجًا في النهاية. لكن ماذا لو ظهر آخر في حياتها؟ لن يظهر أحد. لن تجرّب. كبرت. يجب أن تتزوّج. صديقاتها تزوّجن. ستعود إليّ حتمًا.

نظرتُ إلى محمولي. ألم تثرها رسالة «اذكري شو كنت بهيم معك»؟ ربما تتصل الآن. هل يعقل أنّها تتنازل عن صوتي بهذه السهولة، بعدما كانت لا تستطيع النوم يومًا من دون أن تسمعه.

النار تشتعل من جديد. لا تزال فكرة تركها حائرة بجنين، تراودني. ستضربني وتبكي كثيرًا. سأُذلّها. لن أكذب عليها. لن أقول إنّ هذا حصل بالخطأ. سأقول هذا جزاؤك. لا أمانع في أن أتزوّجك. لكنّني لن أقول لوالدك وخالتك إنّه ابني. سأقول إنّك حملت من خالد وأنا سأستر عليك. إذا لم يعجبك هذا، أجهضيه. عليك بالسفر إلى خارج السعوديّة لإجهاضه. أو فليتزوّجك خالد.

لكن، هل يمكن أن تنتحر؟ لا لن تفعلها. هي دنيئة وشهوانيّة. لا تجرؤ على الانتحار. لكنّي أحبّها. كيف أفعل ذلك؟ ولِمَ؟

كي أتزوّجها. ستعرف حينها أنّني أحبّها فعلاً.

ربما لن تسمح لي أن أراها مرّة أخرى.

سأزورها في بيت هالة.

أنا أتألّم كثيرًا. أتذكّر لذّتها. وجهها وحركة أطرافها. طمعها في المزيد. حتى دنيا لم تنسني. كيف تغيّر كل شيء فجأة؟

هي باعتني. حقيرة. لا بدّ أنّها سعيدة. تتمتّع به كما كانت تتمتّع بي. تخرج وتضحك معه. ربما تخطّط للإيقاع بمغفّل جديد.

لمَ أرأف بها؟ تستحقّ أن أواصل كتابة الرواية وأفضحها. من أجل نفسها. من أجل أن تغسل خطاياها، وتفكّر في حياتها من جديد.

* * *

وصل إلى منزل ليلى. فتحت دنيا الباب. تلبس وشاحًا. تُغطّي خلفه قميصها الذي يعرّي جسدها. رائحة الكحول تفوح منها. سؤاله عن الرائحة أربكها.

ـ بدأت الشرب قبل خمس دقائق.

ـ رائحتك تشي بأنّك تشربين منذ ٢٤ ساعة!

عضّ على أسنانه. ذكّرها باتفاقهما. طلب منها ألاّ تشرب إلاّ بوجوده. لكنّها شربت لأنّه سيأتي. هكذا برّرت. ابتسم بخبث. قال:

ـ هل لبسته قبل قليل. لأعرف أنّك لم تظهري له عارية؟

لم تجب، قال: سنتحدّث لاحقًا. دخلا. يبدو له منزل ليلى غريبًا في كل مرّة يدخله. أحسّ منذ المرّة الأولى بأنّه خارج السعوديّة. سرعان ما يستسلم للمكان ويجلس على الكنبة. يجلس وينسى. يغرق في الحديث. لكنّه لم يأت مرّة وعبد الله موجود. سيصف البيت في روايته بالقصر. لكنّه لا يصوّره تصويرًا دقيقًا. بكلمات قليلة يحكي عنه. في صفحة أو اثنتين يكتب عن عبد الله وعن بيت ليلى. هما سيُقبّلان بعضهما اليوم أمامه. لن يخجلا منه

ومن دنيا. حاول عبد الله أن يُوقف ليلى. لكنّه استسلم. لن يسأل إيهاب دنيا عن هذا المنظر. سيمحوه من ذاكرته. لكنّه سيكتبه. هو لا ينسى منظر ريم ابنة ليلى. يتذكّرها كل يوم. يقول لدُنيا إنّ ابنة خالك ترتكب خطأً فظيعًا. ستدرك ذلك بعد فوات الأوان.

اتسعت عيناه حين رآها أوّل مرّة. نظر مذهولاً. تُقدّم ريم ابنة ليلى الشراب. تُشعل الشموع. ترقص بعدما تُلح أمّها عليها. الويسكي فوق الطاولة. ليلى تشرب كل يوم. أو كل يومين. يبقى مذهولاً دائمًا، كلّما يدخل هذا البيت.

كان عبد الله جالسًا إلى جانب ليلى. بدا مرتبكًا. مدّ يده مبتسمًا. يجلس كما لو كان في بيته. يلبس «شورتًا» و«فانيلة» «كت». تدعوه ليلى كلّما أراد كي يشرب وينام معها. يعرفان بعضهما منذ ثلاث سنوات. هي ستهجره يومًا بعدما تكتشف خيانته لها. وهو لن ينتظر ولن يفكّر، سيتزوّج وسينساها.

جلست دنيا إلى جانب إيهاب. جلسا في الصالة. تتوسّطهم طاولة وضع فيها كل أنواع المكسّرات. وضع أيضًا مشاوي ومقبّلات. تتناوب الشغّالات على تغيير كل صحن. لم يجرّب إيهاب ذلك من قبل.

هذه المرّة لم يقتصر الويسكي على الـ «بلاك ليبل»، كان هناك «شيفاز» و«ريد ليبل» و«براندي».

زوجته وليلى شربا «شيفاز». عبد الله يشرب «بلاك ليبل» مثله. انخفض الوشاح الذي يُغطي صدر دنيا، إلى خصرها. لم تُعره اهتمامًا. هي لبسته بمجرّد أن رنّ إيهاب الجرس.

سقط جهاز تحكّم التلفزيون من يد دنيا. التقطته. كلّفها ذلك ظهور سروالها الأسود الداخلي. لم تهتمّ. بل لم تنتبه. وبّخها إيهاب.

اقترب منها وهمس في أذنها. قالت: «لا تكن دقيقًا. حبيبته عندها مؤخرة كبيرة. لن ينظر إلى مؤخّرتي». أزعجه ردّها. استند على الكنبة مجدّدًا. كان ينظر إلى مؤخّرة ليلى وصدرها، حين تسنح الفرصة له. كان ينظر قبل أن تقول دنيا تلك العبارات.

ريم تنام على الأريكة بعدما أنهكها الرقص. لم تعد مركز السهرة. تعبت الفتاة الصغيرة التي لم تتجاوز السبع سنوات. نظر إليها وهي نائمة. طلب من أمّها أن تنادي الشغّالة كي تحملها إلى غرفتها.

كانت ليلى تشرب منذ ثلاث ساعات. ابتسمت. صرخت: «ريم. قومي ارقصي حبيبتي لماما وعمو عبد الله». فزعت البنت. اندهش إيهاب. ضحك عبد الله. نظرت دنيا إلى إيهاب. في رمشة عين، كانت ريم ترقص، وكانت أمّها تقبّل عبد الله.

تنظر الطفلة إلى أمّها. ترقص وتنظر. تختلس النظر. تمعن في يد عبد الله. ترقص. فجأة، كانت ليلى وعبد الله في غرفة النوم. وشوشا بعضهما، ثم صعدا.

صرخ إيهاب: «كيف تسمحين؟ كيف ترى العينان الصغيرتان ما ترتكب هذه العاهرة ومن معها؟». لكن ليلى تطلّقت منذ زمن، من والد ريم. ليس من حقّ أحد أن يمنعها من أن تعيش حياتها. هكذا برّرت دنيا. لم يكن إيهاب يعرف أنّها تطلّقت.

وضع يده على جبينه. قال: «يا الله. كيف سيكون تعبير وجه خالك حين يعرف بكل هذا أو يراه؟ كيف؟ أهلكما محافظون؟ لماذا أشغل بالي؟».

إيهاب أنهكته الكحول.

قامت دنيا وصعدت بريم فوق. كانت نامت من جديد. حملتها وهي نائمة. لم تفق البنت. ظلّت نائمة.

[٤]

في السيّارة، بعدما خرجا من بيت ليلى، سيبدأ إيهاب «دُشّه». سيُحاسبها على كل شيء. على طريقة كلامها، وكيفيّة حركتها، وردودها. سيقول للمرّة الألف إنّه يكره الكذب.

هي كذبت، حين قالت إنّها بدأت الشرب قبل قليل، حين وصل وقبل دخوله صالة ابنة خالها. كلام الأخيرة كشف له أنّهما يشربان منذ ثلاث ساعات. سيقول أيضًا إنّها كذبت في كلامها عن الوشاح. لم تلبسه لأنّها تريد ذلك. لبسته عندما خرجت لاستقباله عن باب الڤيلا كي تظهر له أنّها لا تقبل أن يرى جسدها أحد غيره.

ـ طالما أنّك تفعلين ما تشائين، كوني شجاعة ولا تكذبي.

يردّد الكلام ذاته. الكذب لا يعني إلاّ استغفالاً.

ـ أنت تستغفلينني. لا تقدّرين ذكائي.

صمتَ. بادلته السكوت. صمتَ بعدما تكلّم كثيرًا. صرخ. هدّد. تأنيبه وتوبيخه، لم يمنعا دنيا من تقبيله بمجرّد دخوله بيته، بعدها. لم يُبادلها القبلة. لم يفعلا شيئًا في تلك الليلة. لم يلمسها. رمى نفسه على السرير ونام. نسي حتى أن يتصل

بفاطمة. نسي أن ينظر إلى هاتفه المحمول. لم يقرأ الرسالة التي أرسلتها. قرأت دنيا الرسالة. مسحتها. لن تسأله عن الفتاة ولا عن الرسالة. هو لن يُكلّم فاطمة ولن يرسل لها رسالة أخرى.

كتبت فاطمة: «لم تكن بهيمًا معي. كنتَ أذكى الرجال. أنا لا أكرهك. لم أحبّ غيرك بعد. لكن يجب أن نتعايش مع الفراق. فزواجنا مستحيل».

انتظرت فاطمة أن يردّ عليها. لم تنم. كانت كتبت ومسحت عبارة «لم أحبّ غيرك بعد»، أكثر من ٦ مرّات. لكنّها قرّرت أن ترسلها أخيرًا.

انتظرت إلى صلاة الفجر، بعدما أرسلت الرسالة. تنظر كل خمس دقائق إلى هاتفها.

صلّت. بعد الصلاة نظرت إلى هاتفها أيضًا. لم يرسل شيئًا.

مضى على عودتها من لبنان أكثر من ١٥ يومًا. لم يتصل بها. أرسل أكثر من رسالة. لكنّها لم تُجب، وهو لم يتصل بناءً على طلبها. اتصل بها أكثر من مرّة في لبنان. طلبت منه ألاّ يتصل. أعادت عليه الكلام ذاته: «نحن لا نصلح زوجين. لا تتصل بي مرّة أخرى. أريد أن أتنفّس».

كانت هذه آخر جمل سمعها منها. قالتها في لبنان.

أطفأت نور غرفتها. تغطّت. هاتفها لا يزال بيدها. تنظر إليه.

كتبت رسالة: «هل تستطيع أن تنسى كل شيء؟ هل يمكن أن ندخل زمنًا جديدًا؟ بلا مشكلات وصراخ ومعايرة؟ ماذا لو عرفت أنّني أردت استراحة فقط. أردت هدنة. لم أخنك. لم ألمس غيرك منذ عرفتك وأحببتك؟ ماذا لو عرفت أنّني بخعت خالد منذ أرسل لي الملابس الداخليّة؟ قلت له: أنا مجرّد زميلة عمل، أحبّ غيرك. هل يريحك كل ذلك؟ أنت غبي لا أحد يرفض مثلك. أخشى عليك من فتاة تلعب بك. حتى بكائي قبل سفري إلى لبنان لم يكن لأنّي أحبّه. بل لأنّك لا تفهم».

قرأتْ الرسالة أكثر من مرّة. اختارت الإرسال. لكنّها ضغطت وبسرعة ومن دون توقّف على زر الإلغاء. قرأت الرسالة مرّة أخيرة. ضغطت على زرّ المسح. لم ترفع يدها عنه قبل أن مسحت كل الحروف. هو لم يردّ على رسالتها الأولى. لم يقرأها أصلاً. (هي لن تتصل به مرّة أخرى أبدًا).

فتحت صندوق حفظ الصور في هاتفها. تحتفظ بخمس صور له في هذا الصندوق. تتوقّف عند كل صورة نحو ٣ دقائق. تنتقل إلى التالية. ستظلّ تفعل ذلك إلى أن تنام. لم تكتب رسالة أخرى. لم تفتح رسالة جديدة. ستنام. الهاتف على صدرها. صورته آخر شيء نظرت إليه.

هو لن يتصل. لن يرسل رسالة أخرى. سيُلهي نفسه بروايته ودنيا. وستَنْظُر فاطمة، كل يوم، إلى هاتفها.

لن تُقفله للحظة. ستحرص على أن يكون مشحونًا دائمًا.

وفي الليل ستتنقّل بين صوره.

أحيانًا ستخرج صوره التي تحتفظ بها في الخزانة. تفردها على السرير وتنظر إليها.

غيّرت رنّته المُميزة. اختارت له رنّة عادية، تضعها لكل الأرقام. كلّما يرنّ هاتفها تقفز إليه. حين ترى رقمًا غير رقمه، ستتجاهلُ الاتصال.

سيمضي شهر وشهران. لن يتصل. لن يرسل رسالة. هي لن تتصل ولن ترسل رسالة. حتى في عيد رأس السنة القريب. لن يتصل أيّ منهما. ولن يُعيّد أحدهما الآخر.

* * *

وصل إيهاب إلى الرياض بسيّارته عند الثانية عشرة بعد منتصف الليل.

كان قاد في الطريق السريع الواصل بين جدّة والطائف. ثم قاد بين الطائف والرياض. يستمع إلى شريط كاظم الساهر «انتهى المشوار». بعد كل ساعة تتصل هالة به. تطلب فاطمة ذلك. تقول إنّها تخاف أن يصيبه مكروه. عرف ذلك صدفة. نسيت خالتها أن تغلق الخطّ حين اتصلت به المرّة الثانية.

لم يُغلق الخطّ. أنصت. كانت هالة تنتظر فاطمة عند الباب. سيذهبان إلى جارة خالتها لساعة. تلبس فاطمة عباءتها. سألت خالتها: «هل اتصلت به؟ متى سيصل؟». ترجّت: «اتصلي كل نصف ساعة كي لا ينام... خالتو هو جاي مشانا. ما بدّي

يصيبو مكروه». ضحكت هالة. ردّت فاطمة: «بحبّ ها الصبي قد ما بكرهو». أقفل الخطّ.

سيراها للمرّة الأخيرة في هذه الزيارة. ستكون الزيارة الأخيرة للرياض أيضًا. زيارة سبقتْ سفر فاطمة مع خالتها إلى لبنان بأربعة أيّام. كانت أخذت إجازة لمدّة شهر.

(حين عادت من هذه الإجازة لم تكلّمه. لم تتصل به. لم يتصل بها. أرسل رسائل كثيرة. آخرها «اذكري شو كنت بهيم معك». هي أرسلت رسالة واحدة. لم يقرأها. مسحتها دنيا. هذه الزيارة قبل الرسالة بنحو شهر).

سيمكث في بيت هالة ثلاثة أيّام. سينام عند هالة في البيت. فاطمة جاءت عند خالتها قبل وصوله بيوم. لم يسألها لمَ جاءت. لمَ لم تنم في بيتها مع والدها، خصوصًا أنّها ستسافر لشهر.

حين وصل إيهاب إلى الرياض. حين دخل طريق «الملك فهد»، أخذ نفسًا عميقًا بعينين مغمضتين. (سيكتب عن هذه اللحظة: هذه المدينة شاهد على كل شيء. مطاعمها ومقاهيها وشوارعها، شاهدٌ على العلاقة التي انتهت. هناك في الدور التاسع والتسعين قَبّلْتُها فوق كل الرياض. قبّلتها وقبّلتني فوق الجسر الذي ينظر إليه كل من يدخل إلى هذه المدينة. كان المكان خاليًا إلاّ منّي ومنها. شجعتها. ألا تريدين تقبيلي ونحن ننظر إلى كل الأماكن التي ستشهد على حبّنا. هنا والناس يمرّون من تحتنا. أمامهم كلّهم وهم ينظرون إلينا ولا يروننا).

اتصل بخالة فاطمة لكنّها لم تجب.

تنقّل بين الشوارع السريعة التي لا يجرؤ بشر على قطعها مشيًا. لم يشمّ لهذه المدينة رائحة طيلة فترة دراسته فيها غير الغبار حين يهلّ عاصفًا عليها. اليوم السماء زرقاء. لا غيوم. لا عجّ. لا أتربة.

فتح زجاج النافذة. خرج دخان سجائره العشرين التي دخّنها في السيّارة. مدّ رأسه. حاول أن يشمّ. حتى رائحة القهوة والحليب والتي يشمّها في بيت هالة في المجمّع السكني، لا يجدها في الهواء الآن.

الساعة الثانية عشرة. لا ضجّة زحام سيّارات كما هي عادة الرياض. لا أطفال ونساء متسوّلين عند الإشارات. ألم في بطنه. تحسّسها. أخذ نفسًا عميقًا. سيّارته تجري في الطرق ذاتها التي كانت تجري فيها حين تجلس فاطمة إلى جانبه. لاشعوريًّا يلتفّ ويعود ويمشي في الطرق ذاتها.

لم يذهب إلى فندق. كانت هالة عرضت أن ينام عندها في البيت. مرّ بثلاثة مطاعم. نظر إليها مطعمًا مطعمًا وابتسم.

المطاعم ذاتها، التي ملآها بأمواج حبّ لسنتين، تغيّرت عليه قليلاً. تساقطتْ البنايات حولها. «هذه المدينة تمحو بصمات من مرّوا بها». كتب هذه العبارة في هاتفه المحمول. احتفظ بها في صندوق الحفظ.

أعاد الدوران حول المطاعم الثلاثة. ليست قريبة من بعضها

كثيرًا. نزل عند المطعم الأوّل. اشترى آيس كريم. ركب سيّارته واتجه إلى الثاني. طلب قارورة ماء. ومن الثالث أخذ كوكاكولا. في أحد المطاعم الثلاثة فعلاها في أيّام دورتها الشهريّة. وفي الآخر فتحت الطفلة الستارة. وفي الثالث بدأ كل شيء.

مرّ إلى جانب صيدليّة كان يشتري منها الواقيات. فاطمة تكره هذه الصيدليّة. إذ حين اشتراها للمرّة الأولى واستخدمها طلبت منه ألاّ يعيد شراءها. قالت: «بلا كلام فاضي». علّق بعدما ابتسم: «إذا سقط الكبير هان الصغير». قالت إنّها لم تفهم العبارة، لكنّها فهمت قصده.

بعد نصف ساعة كان في بيت هالة. تصرّف بغرابة. لم ينظر إليها بشبق كعادته. (هي كانت تحبّ تجاهله لها وعدم إظهاره لرغبته. صرّحت له مرّات. كان يضبط نفسه. مرّة هي تطلب ومرّة هو).

جلس في الصالة معها ومع خالتها من دون أن ينظر إليها ولو للحظة. كانت تلبس بنطلونًا ضيّقًا. ذهبت إلى غرفتها ونزعت حمّالة الصدر. لكنّه لم ينظر إليها. كلّما ذهبت إلى الحمّام، يخرج من الصالة متوجّهًا إلى المطبخ. بينما هالة جالسة. يتأكّد أنّها لا تنظر إليه. يقترب من باب الحمّام. يسترق السمع.

لا تزال فاطمة تحمل هاتفها المحمول أينما ذهبت داخل البيت. حتى إذا دخلت إلى الحمّام.

بعدما ذهبت خالتها للوضوء، قرّر أن ينام في غرفة للضيوف.

فاطمة لحقت به، إلى حيث مارسوا جنونهم كثيرًا. جلست على الكنبة القريبة من السرير. تَغطّى وتظاهر بالنوم. لم يُعرها انتباهًا. رفع الغطاء عن وجهه. قال: «الحمّام شاغر. خالتك خرجتْ. سمعتُ صوتها. يمكنك أن تتوضّئي الآن».

ابتسمتْ. وقفت. رفعتْ كتفيها. ذهبت إلى الحمّام.

*

أعرفُ بأنّها اتصلت بخالد وداعبتْ نفسها. تخلّصتْ قليلاً من رغبتها. لكنّ الجرح لم يندثر. يدُها وصوتُ خالد لا يكفيان طالما أنا في البيت.

في اليوم التالي ستخرجُ من غرفتها بقميصها القصير الشفّاف. لن تكترث لتوبيخ خالتها. كل ما تريده أن تثيرني. الرغبة تنهشها.

ظلّتْ بالقميص أكثر من أربع ساعات. لم تُبدّله.

أحيانًا كانت ترقص أمامي حين تسمع أغنية على التلفزيون. تجاهلتُها. رغم أنّ الرغبة تأكلني. كنت أنتظر أن تقفز هي كي أتأكّد من رغبتها.

خرجنا إلى السوق. عند العاشرة مساءً تعشّينا في مطعم. احتفلنا بعيد ميلادي. المطعم مملوء بشرًا.

بانت فاطمة تشبه فاطمة القديمة. تضحك. تمرح. تمزح أيضًا. تغرف لي الطعام. تلقّمني بيدها أمام خالتها. هي تظنّ أنّنا سنتزوّج.

بان جسدي في عينيها. بان الحبّ القديم. رمّمته للحظات.

رجع جديدًا. حرصت كعادتها على أن آكل. هي الآن تشبه القديمة. تحبّني وتهتمّ بي، مادام خالد بعيدًا.

هو الآن في بيت صديقته القديمة، يخونها. هي لا تعرف. هو لا يعرف أنّها معي. وحدي وصديقة خالد، نعرف. كنّا على اتصال.

اتفقنا على أن نكشف هذا لاحقًا «للخونة». لكنّي كرهت اللعبة. في الوقت ذاته لم أقدر على البوح بها لفاطمة. صديقة خالد ستغضب. ستعتبرني نذلاً. لست رجلاً. إمعة. لا أزال أحبّ من خانتني.

هي أيضًا ترفض أن تكشف لخالد حقيقة اتفاقنا. هي متأكّدة أنّ خالد سيترك فاطمة عاجلاً أو آجلاً. تعرف أنّه لعوب. لن يتزوّج من يشكّ بها. هي عانت هذا الأمر، يشكّ بها رغم حبّه لها. تظنّ أنّ خالد لا يحبّ فاطمة بل يحبّها هي. فهو لا يزال يتصل بها. يتمنّى أن ترضى عنه.

كانت فاطمة تعاملني بحنّيّة كي تكسب الليلتين الباقيتين. خافت أن أسافر من دون أن يحدث شيء. خافت ألاّ أبادر. خالد بعيد منها. ستسافر إلى لبنان شهرًا على الأقل. قالت بعدما خرجنا من المطعم وخالتها تمشي خلفنا: «هذا كل ما أريده منك. أن نكون أصدقاء حتى لو انتهت علاقتنا. أنا تغيّرت ولم أعد أنظر إليك كحبيب».

كنت أظنّ أنّها لا تزال تحبّني، حين سمعتها تطلب من خالتها

الاتصال بي كل ساعة. لم أعرف أنّ الكلام مجرّد تأنيب ضمير. هي تحبّه. لكنّها لا تستطيع أن تطرد خوفها من الله. تخاف أن تُصيبها مصيبة على خيانتها لي.

أيقنتُ أنّها تحبُّ آخرَ. بل تأكّدت. أيقنت أنّني انتهيت من حياتها. كشفت لي الأيّامُ الثلاثةُ التي قضيتها في بيت هالة، الكثير. رغم أنّني أثرتها بأنفاسي. حتى وهي تُحبّه أثرتها. لكن ليس لأنّها لا تزال تُحبّني بل لأنّها لم تقابله منذ فترة.

ستقفز في حضني كي أُخلّصها من رغبتها. ستفعل ذلك مرّتين. سأغتصبها مرّة. لأنّها حين تنتشي تبدأ بشتمي. تقولُ إنّي خنزير، سافل. لا أحترم البيت الذي دخلته. تقول إنّها ستصفح عن خالد لو خانها لأنّها نذلة وخائنة.

هذا الكلام أثارني. لا تعرف هي أنّه يخونها في مكان آخر. لا تعرف أنّني راقبته وعرفت بيت الفتاة التي تخرج معه.

* * *

جلسا في الصالة. خالتها ذهبت لزيارة جارتها. تُحبّ الجلوس مع هذه الجارة.

لبست فاطمة بنطلونًا قطنيًّا وقميصًا أسود خفيفًا. جلست تتفرّج على التلفزيون. سألها إن كانت تملك مشاهد مصوّرة جديدة في هاتفها المحمول. أكدّت له أنّ كل المشاهد عائليّة. تفرّج على بعضها.

سألته إن كان هو يحتفظ ببعض المشاهد الجديدة. قال لها إنّ معظمها إباحيّة. طلبت أن تشاهد بعضها.

أعجبت بأحد المشاهد. قالت إنّها لم تقرف. شعرتْ بأنّ الممثلين يُحبّان بعضهما بعضًا. عبّرت عن إعجابها بالمشهد وأنّه أثارها.

شغّل لها لقطات أخرى. وصلت حينها خالتها، لكنّها دخلت إلى غرفتها. حينها سألته:

ـ لِمَ تجعلني أشاهد هذه المشاهد. ماذا تريد؟

حاول جاهدًا أن يشرح لها أنّ نظرته إليها تغيّرت. لم يعد يرغب بها.

قالتْ لو رغبتُ أن أشعلك لفعلتْ. انقلب الأمر رهانًا بينهما. (كلاهما كان يرغب في ذلك. ادّعيا أنّ الأمر مجرّد رهانٍ وتحدٍّ).

قفزتْ في حضنه. أظهرت شبقًا. تلذّذت وهي تتحرّك. مدّت يدها. قال وهو يلهث ووجهُه ذبلان: «لن تقدري. لم يبق لجسدك مكان في عقلي».

طلبت منه أن يقترب أكثر وأكّدت أنّه سيشتعل حالاً. جلست فوق فخذه. تحركت بسرعة شديدة. سألته إن كان يقدر مساعدتها أكثر.

قال: «هل تساعدك يدي؟».

كانت وصلت إلى نشوتها. قامت بسرعة عنه. شتمته. قالت: «أنت حقير وأنا حقيرة. لعبة قذرة هذه التي مارسناها. كان يجب أن نحترم خالد ودنيا. ألم تقل إنّك تُحبّها، وستتزوّجها؟». غادرتْ إلى المطبخ.

لحق بها. نظرَ إليها باشمئزاز:

ـ أنا لم أرغبك. أنتِ رغبتِ. وصلتِ إلى النشوة بينما أتفرّج

على قذارتك. لا تزالين ترغبين بي. لا يمكن لرجل أن يوقف رغبتك بي.

تلبّكت. حاولت أن تبرّر. ابتسامته الصفراء تقطع أيّ تبرير.

تركته وذهبت إلى غرفة النوم. بكت كثيرًا.

تمدّد على كنبة في الصالة. ابتسم.

تمدّدتْ فاطمة على سريرها في بيت خالتها. بكتْ.

قامتْ. خرجتْ إليه. سألته ثلاثة أسئلة. ردّدت بعض العبارات.

عادتْ إلى غرفتها. أقفلتْ الباب بالمفتاح.

رمت نفسها على السرير بقوّة هذه المرّة. بكت بحرارة. نامت.

*

أعرفُ أنّها دخلت لتتصل به. لن يجيبَ عليها، لأنّه ممدّد إلى جانب صديقته القديمة.

عادتْ إليّ وسألتني بصوت شاحب وهي تبكي: «لمَ فعلتَ ذلك؟ كنّا توقّفنا عن هذه الأمور. لا أريد أن أقوم بخطأ مرّة أخرى. أريد أن أحترم والدي وثقته بي. لمَ أتيت؟ لم استدرجتني لكل هذا؟».

تركتني في الصالة. خرجت. لا بدّ من أنّها تتصل به الآن مرّة ثانية. بكاؤها أكّد أنّها تحبّه. تعيسة، فهو سيتركها. بكت بحرقة لأنّها خانته. لم تبك حين خانتني معه. رغم أنّه نذل. لا تفهم أبدًا أيّ شيء. تبكي لأنّه سيتركها لو عرف منّي ذلك. لا تهتمّ إن تركتها. بل هي تريدني أن أتركها. أن أذهب بعيدًا. كي تستطيع ممارسة كل شيء معه. لا تريد أن تشعر أنّني ألاحقها. لا تريدني أن أبقى في حياتها. تودّ أن أرحل بعيدًا منها. حينها ستخرج مع خالد. لن تخاف من مراقبتي. هذا ما تفكّر فيه.

كنتُ أتساءل لم تعاملني بهذه الطريقة؟ هل لأنّها تعرفُ أنّني أحبّها؟ أم لأنّني مملّ لا أفتأ إعادة المواويل ذاتها.

تريد شابًّا تجري وراءه. تريد شابًّا تمثّل عليه الشرف. تخطّط عليه. لا يعرف عنها شيئًا. ستلبس مرايا تعكس العفّة. لم أعد أثير رغبتها. لم أعد أكثر من ذراع كنبة تجلس عليها لتنتشي. مجرّد أن تنتهي حاجتها تقوم من فوقي. تقرف. تسبّني. تقول أنت خنزير نجس وسّخت هذا البيت.

لِمَ تقول هذا الكلام؟

هي تفعل كل شيء مع خالد. تجلسُ في حضنه. لا تشعر بالذنب. بل تتلذّذ. لماذا إذًا تمثّل الشرف عليّ؟ ذهبت معه بإرادتها. قبّلها. حضنها. قرّبها أكثر. لكن معي لم تعد تريد ذلك. حتى لو فعلت تريدني أن أشعر بقرفها.

هي فعلاً تقرف منّي. تحبّ جسدًا آخر. تعشق شفاهًا أخرى. تحبّ يدًا أخرى. وجهًا آخر. لم أعد قمرًا في عينيها. لم يعد كل شيء ممتعًا معي. قالت إنّها تقرف حين ألمسها.

لا بدّ من أنّها تشعر بالسعادة والنشوة حين يلمسها خالد.

تجرّب الآن جسدًا آخر غير ذلك الجسد الذي تعوّدت عليه. تبدأ من جديد. من البداية من دون خلع البنطلون.

غدًا ستخلع كل شيء. ستبقى هي معلّقة به. ستركض وراءه. سيُهينها. سيُذلّها. سترضى لأنّها أحبّته.

لكنّ حبّها تسبّب في إيذاء آخر. في إيذائي. ستذوق من الكأس ذاته. لن يهملها الله. سيأخذ حقّي منها.

* * *

ستشتري له عطرًا لعيد ميلاده من لبنان. قيمة هذا العطر ستكون أقلّ من قيمة عطر خالد الذي اشترته في الرحلة ذاتها إلى لبنان. حين وقفت فاطمة في السوق المفتوحة في مطار بيروت وقبل أن تصعد إلى الطائرة عائدة إلى الرياض، ستقفُ كثيرًا أمام الكاشير. تنظرُ إلى تسعيرة عطر خالد وتسعيرة عطر إيهاب. الأخير أهداها هدايا ثمينة وكثيرة. لم يقل لها يومًا عن أسعار هداياه. لكنّها تبكي كلّما أحضر لها هديّة. تُؤنّبه، تقول إنّها تعرف كُلفتها. خالد لم يشتر لها سوى ملابس داخليّة شفافة مشجّرة. تبدو كقميص نوم إلى حد ما. كان يريد أن ينظر إليها وهي تلبسها. هكذا قال لها حين أخبرها عن الهديّة. هي ظنّت أنّ الهديّة قد تكون عقدًا أو ساعة، كما كان يشتري لها إيهاب. فوجئت حين رأت قميص النوم الشفّاف. لم يشتر إيهاب لها يومًا ملابس داخليّة أو قميص نوم. قال لها إنّه يتمنى فعل ذلك. لكن زملاءه يشترون الملابس الداخليّة وقمصان النوم لصديقاتهم فقط. لا يشترونها لفتاة يحبّونها. قال لها إنّ الملابس الداخليّة أحد أساليب كسر حاجز الخجل بين الشاب والفتاة. وتعني أنّ الشاب يبحث عن الجنس، خصوصًا إذا لم يكن خطب أو تزوّج بعد.

وعدها بأنّه لن يسمح لها بشراء ملابسها الداخليّة وقمصانها حين يتزوّجها. هو سيختارها بنفسه.

لكن فاطمة، أهدت خالد هديّة أغلى. كتبت ورقة داخل الهديّة. «رميتُ هديّتك في الزبالة. ستكون هذه الهدية الأولى والأخيرة منّي. لا أريد منك أيّ هديّة. لا أريدك أن تتصل بي بعد اليوم. علاقتنا تقتصر على العمل فقط». بمجرّد وصولها إلى الرياض، أرسلتها إلى مكتب خالد في جدّة. لم تردّ على اتصالاته. أرسلت له رسالة قصيرة: «لا تتصل لو سمحت. أنا مرتبطة بآخر».

(هل كانت تعرفُ أنّها لن تكلّم إيهاب ولن تلتقي به أبدًا؟ هل شكّت للحظة أنّه تزوّج؟ هل كانت ستغيّر رأيها بخالد لو تأكّدت أنّ علاقتها بإيهاب انتهت؟).

[٥]

طلبت منه أن لا يقصّ عليها حكاياته مع حبيباته: «أنا زوجتك. هم مجرّد هباء. لا تقارن. هل ترضى بأن أسرد تفاصيل حياتي الحميمة مع زوجي؟».

كان يتلذّذ بسماع تلك القصص من فاطمة. لكن دنيا لم تصدّقه. لم تصدّق أنّه لن ينزعج إذا تحدّثت عن علاقتها بزوجها الأوّل. هي تنزعج بمجرّد أن تشعر أنّ أغنية «أحلى غرام» لريان، تُذكّره بفتاة قديمة. دنيا تغير من الهواء الطاير.

لا تسمح له بأن يدور في المنزل بالمنشفة فقط. تخشى أن تراه الشغّالة ـ الصانعة ـ فتنجذب إليه. تنزعج بمجرّد التفكير بأنّ هناك من ينجذب إلى إيهاب.

طلب إيهاب منها سرد قصصها الحميمة مع زوجها. خلق هذا الطلب ليلة مزعجة. الصراخ وصل إلى البيوت المجاورة. الخصام دام أكثر من ساعة. إيهاب مصدر الصراخ. كانت تسمعه وتندب حظّها. تبكي على اختيارها. تتمنّى لو تنشقّ الأرض وتبلعها.

خرج من الغرفة واتجه إلى سيّارته. الهواء يلعب. المطر يتساقط. دخل السيّارة بسرعة. نظر إلى هاتفه المحمول. اختار رقمها من لائحة الأسماء. كاد أن يجري المكالمة. يده كانت قريبة. اختار الرفض. تردّد. أخيرًا اتصل بفاطمة التي كانت نائمة. (كانت في لبنان).

صرخ بصوت عال. شتمها. قال إنّها عاهرة وساقطة، لا تريد أن تعيش حياة نظيفة. تخون ولا تشعر بالذنب.

حلف بأنّه ندم على بكائه عليها وعلى كرامته التي أهدرها من أجل سافلة. سألها كيف تقبل أن تحبّ آخر، وترمي نفسها بحضن أوّل رجل من الشارع؟

تكلّم إيهاب كثيرًا. كرّر العبارات ذاتها. هذه المرّة نعتها بكل الصفات السيّئة. أكّد أنّها ضيّعت الفرصة من يدها. قال إنّ الله لن يتركها.

كانت فاطمة نائمة. لم تنبس بكلمة واحدة. سمعت كل ما قاله.

تأسّفت. لكن، عندما لاحظت أنّه لن يتوقّف، نطقت:

ـ يكفي. سكتُّ لك كثيرًا. تجاوزتَ حدودك. نحن لا نصلح زوجين. لا تتصل بي مرّة أخرى. أريد أن أتنفّس.

ظلّ يصرخ لدقيقة أخرى وأقفل الخطّ. هي لم تتكلّم.

لن يكلّما بعضًا حين تعود من لبنان.

عاد إلى زوجته. حضنها. طلب منها أن تفهمه. نامت دنيا.

بقي إيهاب. لم يعد يطيق هذا التفكير المؤلم. كتب الكثير من الرسائل وأرسلها:

«لم أنم طوال الليل. أضع رأسي على المخدّة. أتخيّل أنّها خدّك. غسلتها بدموعي. صرخت طوال الليل مثل المجنون. أريد أن أعرف لماذا فعلت ذلك؟ حين كنت أهمّ بالتفكير في فتاة أخرى أقرف. وأنت منذ عرفت آخر بتّ تقرفين منّي. أقسم أنّني صنتك. لماذا فعلت ذلك؟!».

«أنظر إلى المخدّة. أقبّلها. أقول بصوت خافت: سامحيني. لو كنت أعرف أنّ صراخي وشكّي بك سيدفعك للنوم في حضن رجل آخر غريب، لما صرخت عليك ولو مرّة. أقبّل المخدّة وأبكي. أسرُّ لها بأنّني لا أصدّق. أنت كنت تخافين عليّ من الهواء الطاير وتحبّينني. مستحيل أنّك فعلت ذلك! لأنّك تعرفين جيّدًا بأنّني سأصاب بجلطة لو عرفت. تعرفين أنّني لن أحتمل الصدمة!».

«أقبّل المخدّة وأحضنها بقوّة. أسألها: هل حقًّا تقرفين منّي؟ هل صحيح أنّك لا ترغبين في شفتيَّ؟ لا تريدين إنجاب فاطمات وإيهابات منّي؟ هل هي حقيقة أنّك تشمئزّين إذا لمستك، وتحبّين أن يلمسك آخر غيري؟».

«أحضن المخدّة وأقبّلها مثل المجنون. أقول لها إنّني صبرت ولم أنم مع أخرى. أسأل نفسي حين أشعر بالرغبة: كيف أخونها وهي صابرة مثلي؟ كنت أتخيّلك كل ليلة. أطرد الشيطان من رأسي حين يقول لي: لا يمكن لفتاة أن تصبر على ذلك كل هذه المدّة طالما أنها جرّبت. لا بدّ أنّها تفعل ذلك وتستغفلك. «أشوت» الشيطان بقدمي وأخرجه من غرفتي وأتفّ عليه. أقول له: هذه العفيفة. خالتها هالة. لا يمكن أن تخون. أقبّل المخدّة من جديد. ليت المخدّة تحكي لك كم أحبّك وأعشقك. ليتها تخبرك أنّني قرفت من كل ما مارسته قبلك. ليتها تقول لك إنّني قرّرت أن أتوب وأصونك وأتزوّجك وأستغفر ربّي عن كل ماضيّ».

«ألوم المخدّة. أسألها: كيف تقبلين الخروج معه ولا تقبلين الخروج معي؟».

«أتذكّر ذلك اليوم الذي كنت أقف فيه أمام البناية. كان قلبي يتقطّع. أسأل نفسي كيف تخرج معه؟ هذا يدلّ على أنّها تريد ذلك. بإرادتها. وحين سألتك؟ صدّقت كذبتك. غبي أنا. صدّقت أنّك تتناقشين معه في أمر يخصّ العمل. مغفّل أنا. أتفّ على المخدّة. أنت حقيرة. كان يجب أن أعرف أنّني مجرّد تسلية وسيحين وقت انتهاء صلاحيّتها. كان من المفترض أن أعرف أنّ مثلك لا تكتفي برجل واحد. كان يجب أن أعرف أنّ الذي فعلته معي ستفعلينه مع غيري. سيرميك يومًا بعدما يستمتع بك.

سيرميك لأنّه لا يستنظف أن يتزوّجك. المشكلة أنّي أعرف».

كانت رسالته الأخيرة لها وهي في لبنان: «الله راح يأخذ حقّي منك. لن أشغل نفسي بمثلك ومثله. الله فوق كل شيء. ستكون روايتي شاهدًا عليك قرونًا. سأصلّي وأدعو ربّي كل يوم. سأصلّي النوافل. لن أشرب الكحول. لن أكذب. لن أقترف ذنبًا. سأقوم الليل. سأدعو الله ليل نهار أن ينتقم منك ومنه».

* * *

صديقة خالد، كانت تعرف شبّانًا ثلاثة. هي تركت خالد منذ فترة. لا يزال يجري وراءها. كانت تعامله كما تعامل فاطمة إيهاب.

على رغم ذلك شعرت بالغيرة حين عرفت أنّه ينام مع واحدة أخرى. إيهاب أخبرها. لم يقابلها سوى مرّة. كل منهما قال للآخر حينها، بعدما أصبحا عاريين: «هذا ثأر، ليس إلاّ». لكنّها قالت لإيهاب: «أنت وسيم. كيف تركتك من أجله؟».

اتصلت صديقة خالد به بعد تلك المرّة التي جاءت فيها إلى بيته. لكنّه تجاهلها.

عاد مرّة أخرى إلى صديقه الذي يعمل في شركة الهاتف. طلب منه فواتير هاتف خالد للشهرين الماضيين. لا يزال خالد يتحدّث إلى صديقته ويتصل بفاطمة أيضًا!

هذه المرّة الثانية التي سيقرأ فيها فواتير خالد.

طلب فواتير صديقة خالد أيضًا، ليكتشف أنّ الفتاة تكلّم ثلاثة شبّان آخرين.

لم يكن الأمر صعبًا، كل ما كان عليه أن يبحث في الفواتير عن مكالمات بعد منتصف الليل، والتي لا تتجاوز مدّتها أكثر من خمس ثوان. فلا تحتاج سوى أن تقول: «اتصل بي».

بالطريقة ذاتها عرف اتصالات خالد. بحث عن مكالمات بعد منتصف الليل، الطويلة. المكالمات التي تتكرّر كل يوم أو يومًا بعد يوم.

حين اتصل بها للمرّة الأولى، لم يقل حرفًا. سمع صوتها. تأكّد أنّها فتاة. اتصل مرّة أخرى. الكلام خرج من فمه من دون تفكير. لم يسألها إن كانت قريبته؟

قال:

- هل يهمّك أن تعرفي إذا كان خالد يخونك أم لا؟

صدمته الفتاة بردّها. لم تنكر معرفتها به، بل قالت لم تعد تهتم لأمره.

سألها: كيف، فلا يزال يكلّمك كل يوم تقريبًا؟

بدت كمن يستدرجه إلى الكلام عن الموضوع، لأنّ سخريتها كانت واضحة. قالت قبل إشارتها إلى عدم الاهتمام به «أها». قالتها ساخرة. سرد لها وبسرعة كل شيء. لم يذكر اسم فاطمة. قال إنّ خالد يكلّم حبيبته. قال إنّه ينام معها.

سألته فجأة: هل تريد أن تثأر؟ استدركت: هل تريد أن تفعل ما فعل مع حبيبتك كي تثأر منه؟

لم يجب. سكت. سألته كيف وصل إلى رقمها. لم يتردّد في الجواب. حدّدت موعدًا. غدًا في منزله. سيأخذها من مجمّع تجاري. حدّدا الموعد بعد أن تكلّما أكثر من أربع ساعات. لم يهتم إن كانت ستكلّم خالد. تحدّثا بالأمر. قال إنّه لا يخشى من ذلك. ضحكا. سيتّفقان على كل شيء حين يقابلها.

وصل في الموعد. تعرف لون سيّارته. ترك زجاج نافذة الراكب في سيّارته مفتوحًا، كأمارة. جسمها جميل. ركبت السيّارة. اكتشف أنّ وجهها جميل أيضًا. دنيا تبيت اليوم في بيت خالها. انطلق بسيّارته مسرعًا إلى منزله. لم يتكلّم كلمة واحدة. كل ما فعله أنّه اتصل بفاطمة وشغّل المايكرفون كي تسمع الفتاة حديثهما. افتعل مشاجرة بشأن مكالمات فاطمة لخالد وخيانتها له معه. بعدما أغلق الخطّ. علّقت:

ـ لا تحتاج إلى ذلك. كان صدقك واضحًا من كلامك.

سألته عن سبب سكنه وحيدًا في منزل كبير. لم يعترف لها بأنّه متزوّج.

ـ ظننت أنّني سأتزوّجها بنهاية هذا العام.

ـ لا تقلق. لن يعيشا مع بعضهما طويلاً. سيفترقان بسرعة. أعرف كم هو كريه ولا يطاق، سيقتلها بعقدة النقص عنده. يزعم أنّه متحرّر دائمًا، ويفهم كل شيء، لكنّه يخاف من المرأة. سيبدو رومانسيًّا في البداية. وسرعان ما ينكشف. هو أكبر منها ومجرّد «نسونجي».

قبّلته. خلعت ملابسها. جرّدته من ملابسه. بدت جريئة.

قالت إنّها ليست عذراء! رفض الفكرة التي قصدتها بتلميحها. ضحكت حين عرفت أنّه يعتبر هذا زنا. اكتفت بما يوافق على فعله. لم تسأله إذا كان فعلها مع حبيبته (فاطمة) أم لا.

* * *

يجلس أمام كومبيوتره المحمول. ينفث دخان سيجارته ويفكّر.

منذ أن سافرت فاطمة إلى لبنان وهو يجلس أمام كومبيوتره ويفكّر. أحيانًا لا يكتب كلمة. يجلس أمام كومبيوتره تحديدًا عندما تطلب زوجته أن ينام معها. يدور بينهما نقاش طويل بشأن إمكانيّة استمرار علاقتهما.

بعد عودة فاطمة من لبنان. بعد ثلاثة أيّام من إرساله «اذكري شو كنت بهيم معك». وبعد نقاش جديد مع دنيا بشأن إمكان استمرار زواجهما. ترك البيت. استأجر غرفة في بناية للعمّال.

قرّر ترك دنيا. قرّر التفرغ للكتابة. يريد أن يفرغ من روايته التي تزعجه. يريد أن ينتقم.

دخل الغرفة. دخّن سيجارة وراء سيجارة.

الغرفة الجديدة التي اختارها صغيرة وكئيبة. كيف ستبدو غرفة بألف ريال فقط في الشهر. أربعة أمتار في خمسة. تلفزيون

معلّق. لم يفتحه. باب الحمّام بمواجهة سريره. يغلقه كل ليلة، فالرائحة الصادرة منه لا تحتمل. الغرفة ليست سيّئة إلى هذا الحدّ. لكنّها لا تشبه ڤيلته أبدًا.

تلك الڤيلا التي حكى لفاطمة عنها كثيرًا. الآن تسكن فيها دنيا. يدفع ألفي ريال شهريًّا كإيجار، إضافة إلى ألف وخمسمائة ريال شهريًّا كمصروف لها.

لن يسأل دنيا لمرّة واحدة أين كانت وأين ذهبت. لن يقطع عنها مصروفها أو إيجار البيت. سينشغل بروايته. من المكتب إلى الغرفة، فالمكتب مرّة أخرى. لا يتكلّم مع أحد. كلّما وجد وقتًا في المكتب، يكتب أيضًا.

سيكتب كل شيء. سيصف فاطمة. الفتاة القصيرة الجميلة. سيكتب الكلمات التي كانت تقولها حين يفعلانها. سيكتب أنّه بات يتصور وجهها قبل النشوة.

كل ليلة على المنوال ذاته.

سيكتب: «أن أفعلها مع فاطمة في خيالي أفضل من أن أفعلها مع أيّ فتاة أخرى». سيكتب أنّه يتخيّل فاطمة تدخل عليه من الباب في ثوب نوم مشجّر مهترئ وشراب أصفر وآخر أزرق. تحت هذا الثوب تلبس بنطلونًا أزرق. هكذا كان يراها في منزل هالة. بمثل تلك الثياب كانت تقفز إلى حضنه. بمثل تلك الثياب كانت تفعل معه كل شيء بأسرع وقت ممكن قبل وصول خالتها

من عند جارتها. أذنيهما للباب. بعض الأحيان توبّخه لأنّه لا يقبلها أو لا يلمسها كما ينبغي. لا تدرك أنّ عينيه وأذنيه تتابع احتمال مجيء خالتها.

هو يكتب الآن. ينفث دخان آخر سيجارة في باكيت دخانه:

«هل تفعل مع خالد مثل ما فعلت معي؟ هل يسمع الكلمات ذاتها التي كانت تقولها بينما نفعل ذلك؟ هل تطري لمساته؟ هل تستمتع معه؟».

*

سيّارة «كاديلاك سوداء» تلحق بسيّارة «ساب». تُطاردها في طريق سريع. ثلاثة شبّان يركبون «الساب». لا يعرفون لمَ تطاردهم «الكاديلاك»؟ ظلّت تلحق بهم طيلة الطريق. تصطدم عمدًا بـ «الساب». تتوقّف فجأة في وسط الطريق. الكاديلاك مظلّلة.

بعد مطاردة استمرّت ساعات بعد منتصف الليل. وبعد أن تاه الشبّان الثلاثة عن الطريق الذي يوصلهم إلى مدينتهم، وبعدما أصبحت سيّارة «الساب» الجديدة خردة. وقفت الكاديلاك في وسط الغابة. خرج منها رجل أربعيني. يريد أن يقتل الشاب (سكوت) وأخاه وصاحبه (سي جيه). الأربعيني يحترق. (قلبه يحترق). ضاجع الشاب (سكوت) زوجته في السيّارة «الساب». عرف سكوت سبب كل شيء بعدما خرجت جينين من السيّارة. جينين الفتاة التي ضاجعها سكوت. لم يكن ليعرف أنّ كل تلك المطاردة بسبب أنّه ضاجع فتاة لم يكن يعرف أنّها متزوّجة. بعد مشاجرة عنيفة هرب الشبّان الثلاثة. هربوا في وسط الغابة. لكنّ الأربعيني ظلّ يلاحقهم بسيّارة الكاديلاك. صدم سكوت. الأخير

يعرج الآن. استسلم الشابّ. وقف أمام السيّارة السوداء. استبشر الأربعيني. ابتسم. «الآن سينتهي كل شيء»، حدّث نفسه قبل أن يضع قدمه بقوّة على دوّاسة البنزين. الفتاة جنين زوجة الأربعيني ظهرت فجأة أمام السيّارة ومن خلفها عشيقها سكوت. هو ليس عشيقها بل ضاجعها فقط. كان يبحث عن متعة لا أكثر. الآن تريد أن تموت مع واحد ضاجعها مرّة واحدة. لا تعرف سوى أنّه يدرس في جامعة ييل. الزوج المسكين لا يزال يحبّ زوجته. ربما لا يُحبّها. لكنّه لا يريد أن يقتلها. لفّ المقود ليقع من فوق جبل في الغابة.

ذاك الأربعيني كان يقول لسكوت: لم أخذت حياتي وقلبي؟ لم تركتني زوجتي من أجل شابّ مخنّث؟ كنت أظنّ أنّها ضاجعت رجلاً لأكتشف أنّها ضاجعت مخنثًا؟

*

استيقظتُ باكرًا. تُقلقني المنامات طوال الليل. لا أحبّ سيناريوهات هذه المنامات.

أحلمُ بكل ما أكتب.

أحلم بها. أحلم بمشاهد الخيانة السينمائيّة.

حين أتفرّج على فيلم أميركي أو فرنسي، عن خيانة، أكتب القصّة. أريد أن أملأ الفراغات في هذه الرواية. لا أنتبه إلى الرمز. لا أنتبه إلى كيف سيفهم القرّاء هذا الحلم أو ذلك الفيلم. لا أفكّر في ما وراء العبارات. أكتب فقط.

كل يوم أجلس أمام كومبيوتري المحمول، بمجرّد أن أصحو. أكتب. أتوجّه إلى عملي. ثم أعودُ إلى الكتابة.

أتساءل أحيانًا عن مدى جديّتي في نشر ما أكتبه عنها. أصرف النظر عن كل تساؤل يفضي إلى التفكير في التوقّف عن السرد. لا أزال غير متأكّد إذا كنت سأكتب عن ديان ودنيا. ماذا عن هتون ومنال أو علوة؟ ماذا عن الجيغولومان؟

لا أعرف. بل لست متأكّدًا. كل شيء ممكن، خصوصًا أنّني أرغب في إنجاز هذا الكتاب، بأيّة طريقة.

اليوم عطلة.

أعاني من نعاسٍ شديد، كالعادة. تحضر فاطمة أمام وجهي مثل كل ليلة. تتمدّد على السرير. تنظر إليّ وتنتظرني حتى أفرغ من الكتابة. تثيرني بنظرتها.

لكنّي لا أزالُ أكتب...

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

... سيكتب قصّته معها في رواية. سيُسمّيها: «أنا والرواية وهي».

سيكتب كلّ شيء فعلاه، بالتفصيل. قرّر وانتهى. سيكتب باسم مستعار. سيُرسل نسخة من الرواية إلى كلّ من يخطبها أو يتزوّجها. سيكتب له إهداء: «اقرأ لتعرف أي عاهرة هي».

لكنّي «أنا» مُؤلف هذه الرواية، لن أسمح له. سأطبع روايتي قبل أن يُنجز روايته. لا أريد أن ينافسني.

إبراهيم بادي مسرحي وصحافي سعودي. نال جائزة أفضل نص مبتكر في مهرجان المنستير الدولي في تونس.




ISBN: 978-9953-89-125-5
9 789953 891255